

أنطون تشيخوف قصص قصيرة

ترجمة: أبو بكر يوسف



انطون بافلوفتش تشيخوف

بقلم : مكسيم جوركي

ذات مرة دعاني لزيارته في قرية «كوتشوك — كوي» ،
حيث كانت لديه قطعة ارض صغيرة ومنزل ابيض من طابقين .
وهناك عرض عليّ «ضيعته» وهو يتحدث بحوية :
— لو كان لديّ نقود كثيرة لأقمت هنا مصحاً للمدرسين
الريفيين المرضى . اتدري ، ولكنك شيدت مبنى مضيئاً . .
مضيئاً جداً ، بنوافذ كبيرة واسقف عالية . ولكنك زودته
بمكتبة رائعة ، وبمختلف الآلات الموسيقية ، وبمنحل
ومزرعة خضروات وبستان فواكه . ولكن من الممكن تنظيم
محاضرات في الزراعة والارصاد ، فالمدرس يا عزيزي بحاجة
الى معرفة كل شيء ، نعم كل شيء !
وفجأة صمت ، وسعل ، ونظر اليّ نظرة جانبية وابتسم
ابتسامته الناعمة الرقيقة ، التي كانت تجذب دائماً اليه بلا
فكاك وتثير اهتماماً حاداً خاصاً بما يقول .
— هل مللت من سماع تخيلاتى ؟ أما انا فأحب
الحديث في هذا . آه لو تعلم مدى حاجة الريف الروسي
الى المدرس الجيد الذكي المثقف ! ينبغي علينا في روسيا
ان نحيطه بظروف خاصة ، ويجب ان نفعل ذلك بأسرع
ما يمكن اذا كنا ندرك أنه بدون شعب مثقف ثقافة واسعة

ستنهار الدولة كالبیت المشید من طوب لم یحرق جیدا !
فالمدرس ینبغی ان یرى فنانا ، ومصورا ، متیما بعمله .
اما عندنا فهو عامل یدوی ، شخص قلیل الثقافة ، یمضی
الی تعلیم الأولاد فی الریف بنفس الرغبة التي قد یمضی
بها الی المنفى . انه جائع ، مقهور ، خائف من ان یفقد
کسرة الخبز ، بینما ینبغی ان یرى فی الفلاحون قوة جدیرة
کل اسئلة الفلاح ، ینبغی ان یرى فی الفلاحون قوة جدیرة
بالاهتمام والاحترام ، وحتى لا یجرؤ أحد علی الصیاح فیہ . . .
علی اذلال کرامته ، کما یفعل الجمیع لدينا : الشرطی ،
والبائع الغنی ، والقس ، وشيخ البلد وراعی المدرسة ، ومدير
الناحية ، وذلك الموظف المسمى بمفتش المدارس ، ولكنه
لا یهتم بتحسین الاوضاع التعلیمیة بل فقط بالتنفیذ الحرفی
لتعلیمات المنطقة . ان من حماقة ان تدفع ملالیم لرجل
مدعو لتربية الشعب . . اتفهم ؟ تربية الشعب ! لا یجوز
ان نسمح بأن یرى هذا الشخص فی الاسمال ، ویرتعش
من البرد فی المدارس الرطبة المتهدمة ، وان یختنق بدخان
المدافئ السيئة ویصاب بالبرد ، وفي الثلاثین من عمره
یرى قد اصیب بالتهاب الزور والروماتیزم والسل . . عار علینا
هذا ! ان مدرسنا یعیش ثمانية او تسعة أشهر فی السنة
كالراهب المعتزل ، لا یجد من یتبادل معه كلمة ، انه
یتبلد من الوحدة بدون كتب ، بدون ما یرفه به عن نفسه .
ولو دعا الیه رفاقه لاتهم بعدم الولاء . . هذه الكلمة الغبیة
التي یرهب بها الخبثاء الحمقى ! . . کل هذا کره . .
انه امتهان لانسان یؤدی عملا فی غاية الاهمیة . اتدری . .
عندما ارى المدرس أشعر بالحر ج منه بسبب وجله ، وبسبب

ملابسه الرثة ، ويخيل اليّ انني ايضا مذنب بصورة ما فى
بؤس المدرس هذا . . . صحيح !
وصمت ، واستغرق فى التفكير ، ثم اشاح بيده وقال :
— ياله من بلد اخرق احقق روسيانا هذه !
وارتمت على عينيه الرائعتين ظلال الحزن العميق ،
وأحاطت بهما اشعة التجاعيد الدقيقة فأعطت لنظرته عمقا .
وتطلع حوله ثم قال ساخرا من نفسه :
— انظر ، ها قد القيت عليك مقالة افتتاحية كاملة
من جريدة ليبرالية . هيا ، سأسقيك شايًا مكافأة على
صبرك . . .

كان كثيرا ما يفعل ذلك . . . يتحدث بحرارة وجدية
واخلاص ، ثم يسخر فجأة من نفسه ومن حديثه . وفى
هذه السخرية الرقيقة الحزينة تحس بالتشاؤم الرهيف لشخص
يعرف قيمة الكلمة ، قيمة الاحلام . وفى هذه السخرية
ايضا كان يلوح تواضع رقيق ولباقة حساسة . . .
ومضينا الى البيت على مهل وفى صمت . كان ذلك
يوما صافيا حارا . وتعالى هدير الامواج وتراقصت عليها اشعة
الشمس . وتحت الجبل عوى كلب برقة وهو يشعر بالرضا
لسبب ما . وتأبط تشيخوف ذراعى وقال ببطء وهو يسعل :
— انه لشيء مخجل ومحزن ، ولكنه صحيح . فكثير
من الناس يحسدون الكلاب . . .

وعلى الفور اضاف وهو يضحك :
— اننى اتفوه اليوم بكلمات هرمة . . . اذن فأنا أشيخ !
كثيرا جدا ما كنت أسمعه يقول :
— أتدرى . . . هناك مدرس قد وصل . . . مريض ،

متزوج . . أليس لديك امكانية لمساعدته ؟ لقد رتبت أمره
حتى الان .
أو :

— اسمع يا جوركي ، هناك مدرس يريد ان يتعرف
عليك . ولكنه مريض لا يستطيع ان يخرج . هلا ذهبت
اليه ؟
او :

— هناك مدرسات يطلبن ارسال كتب اليهن . . .
واحيانا كنت اجد عنده هذا «المدرس» . وعادة كان
المدرس ، وقد احمر وجهه من احساسه بالحرج ، يجلس
على طرف المقعد ، وهو يتتقى الكلمات بعناء شديد ويحاول
ان يتحدث بصورة أسلس و«أكثر ثقافة» ، او يركز كل قواه ،
بوقاحة الاشخاص المفرطى الحياء ، فى محاولة الا يبدو
غيبا فى نظر الكاتب ، فيغمر تشيخوف بطوفان من الاسئلة
التي لم تخطر له على بال فيما يبدو قبل هذه اللحظة .
وكان انطون بافلوفتش يصغى بانتباه الى هذا الحديث
المرتبك ، وتلمع فى عينيه الحزینتين ابتسامة ، وترتفع
التجاعيد على صدغيه ، ثم يروح بصوته العميق الناعم مثل
الزجاج المصنفر ، يتحدث بكلمات بسيطة واضحة قريبة
من الحياة . . كلمات تجعل جليسه يتبسط على الفور ، فيكف
عن محاولة ان يبدو ذكيا ، مما يجعله فورا أكثر ذكاء
وطرافة . . .

واذكر أن مدرسا—وكان طويلا ، نحिला ، بوجه
اصفر جائع ، وانف طويل احذب مائل نحو ذقنه بحزن—
كان جالسا قبالة انطون بافلوفتش يحدق فى وجهه بعينين

سوداوين بلا حراك ، ويقول بصوت غليظ متجهما :
— من مثل انطباعات الوجود هذه ، على امتداد
الموسم التربوى ، يتشكل ذلك المركب السيكلوجى الذى
يقضى تماما على اية امكانية للموقف الموضوعى من العالم
المحيط . والعالم بالطبع ليس الا تصوراتنا عنه . . .
وهنا انطلق الى ميدان الفلسفة وراح يخطو فيه أشبه
برجل ثمل فوق جليد زلق .

وسأله تشيخوف برقة وبصوت خافت :
— قل لى من فضلك ، من الذى يضرب الاولاد
فى ناحيتكم ؟

فقفز المدرس من مقعده منفعلا ولوح بيديه باستنكار :
— ماذا تقول ! أنا ؟ أبدا ! اضربهم ؟
وزفر بزعل .

فمضى انطون بافلوفتش يقول وهو يبتسم مهدئا :
— لا داعي للانزعاج . . وهل انا اقصدك ؟ ولكنى
اذكر—قرأت ذلك فى الصحف—ان احدا ما يضرب
الاولاد فى ناحيتكم بالذات . . .

فجلس المدرس ومسح العرق من وجهه ، وتنهد بارتياح
وقال بصوت غليظ اجش :
— صحيح ! لقد حدث ذلك . انه مكاروف .

اتدري ليس فى ذلك ما يدهش . انه شىء فظيع ولكن
يمكن تفسيره . فهو متزوج ، ولديه اربعة اولاد ، وزوجته
مريضة . وهو ايضا مسلول . راتبه عشرون روبلا . . . اما
المدرسة فقبر ، والمدرس فى غرفة واحدة . وفى ظروف كهذه
ستضرب حتى الملائكة دون ادنى ذنب ، والاولاد ليسوا

ملائكة ابدا ، صدقني !

واذا بهذا الانسان الذى كان لتوه قد صعق تشيخوف
دون شفقة برصيده من الكلمات الذكية ، يتحدث فجأة ،
وهو يهز انفه الاحدب ، بكلمات بسيطة ثقيلة كأنما احجار ،
ملقيا الضوء الساطع على الحقيقة اللعينة الرهيبة لتلك الحياة
التي يحياها الريف الروسى . . .

وعندما ودع المدرس مضيفه امسك بكلتا يديه يد
تشيخوف الصغيرة الجافة ذات الانامل الدقيقة وهزها وهو
يقول :

— عندما جئت اليك كنت كأنى قادم الى رؤسائى ،
أشعر بالوجل والرعشة ، فانتفخت كالديك الرومى ، اردت
ان اريك اننى ايضا لى شأن . . . وها أنذا امضي فكأنى
افارق شخصا طيبا ، قريبا ، يفهم كل شىء . ياله من
شىء عظيم ان تفهم كل شىء ! شكرا لك ! اننى ذاهب .
واحمل معى فكرة طيبة جيدة : ان العظماء هم ابسط
واكثر فهما وأقرب بارواحهم الينا من كل هؤلاء الحقراء الذين
نعيش بينهم . وداعا ! لن أنساك ابدا . . .
واختلج أنفه ، وانطبقت شفتاه فى ابتسامة طيبة ،
وفجأة أضاف :

— وعموما فالأوغاد هم أيضا تعساء ، عليهم اللعنة !
وعندما انصرف نظر انطون بافلوفتش فى اثره وابتسم
قائلا :

— شاب طيب . لن يعلم طويلا . . .

— لماذا ؟

— سيكيدون له . . . سيطرذونه . . .

يخيل اليّ ان أي شخص احتك بأنطون بافلوفتش
كان يشعر لا اراديا بالرغبة في أن يبدو أبسط وأصدق وأقرب
الى حقيقته ، وقد لاحظت أكثر من مرة كيف كان الناس
يخلعون أردية العبارات الكتبية والكلمات الموضوعة ، تلك
الأردية البراقة ، وغيرها من الاشياء الرخيصة التي يتزين بها
الشخص الروسي رغبة منه في أن يبدو كالأوروبي ، مثلما
يتحلى الرجل المتوحش بالمحار وأسنان الاسماك . ولم يكن
انطون بافلوفتش يحب أسنان الاسماك او ريش الديوك .
كان كل شيء براق ، مطمئن ، وغريب يضعه الشخص
ليضيف «مزيدا من الاهمية» على نفسه يثير فيه الخجل .
وقد لاحظت انه في كل مرة يرى امامه شخصا مسرف الزينة
تتولاه الرغبة في تخليصه من كل التوافه المضنية التي لا
لزم لها ، والتي تشوه الوجه الحقيقي والروح الحية لجليسه .
لقد عاش انطون تشيخوف حياته كلها على موارد روحه ،
وكان دائما صادقا مع نفسه ، كان حرا داخليا ، ولم يكن
ابدا يولى اعتبارا لما ينتظره البعض من انطون تشيخوف ،
او لما يطالبه به البعض الاخر ، الاكثر فظاظة . ولم يكن
يحب الخوض في «الاحاديث السامية» . . تلك الاحاديث
التي يسلى بها انسانا الروسي الرقيق نفسه بدأب ، ناسيا
انه من المضحك ، ولكن ليس من البراعة في شيء ،
ان تتحدث عن الحلل المخملية في المستقبل دون ان يكون
لديك في الحاضر سروال لائق .

كان تشيخوف جميلا في بساطته ، فأحب كل ما
هو بسيط ، حقيقي ، صادق ، وكانت لديه طريقة مميزة

فى تبسبب الناس .

فذاآ مرة زارآه آلاآ نساء مآأناقآ ببذآ . وملاأ
أرفآه بأففف الآنوارآ الأرفرفة وراآآة العطور القوفة ، وآلسن
بعضمة قبالة مضففهن ، مآظاآرات بأنهن مهآمآ آدا
بالسفاة . وبداأ فى «أآارة الاسألة» .

— انطون بأفلوفآش . . ما رأفك بم سآآآهى الأرب ؟
وآنآنآ انطون بأفلوفآش ، وفكر قلفلا ، آم قال
بصوآ ناعم ونبرة آاآة رقفة :

— على الأراآآ . . بالسلا . . .

— نعم ، طبعأ ! ولكن من الذى سففآآر ؟ الفونافون
أم الأآراك ؟

— أعاآقأ أنه سففآآر من هم أقوى . . .

فمضآ النساء فآسابقن فى السؤل :

— ومن هم الأاقوى فى رأفك ؟

— من فآآذون أفضل ومن هم أكآر آقافة . . .

فهآآأ أآاآهن :

— ما أبرع آذا الآواب !

وسألآ سفاة أخرى :

— ومن آآب أكآر . . الفوناففن أم الأآراك ؟

فآطلع الفها انطون بأفلوفآش برقة ، وأآاب بضآكة

قففارة مهآبة :

— أنا أآب المرملاآ * . . وأآآ ، هل آآبفنه ؟

* المرملاآ — آلوى سكرفة طرفة من مربى الفواكه . المأرب .

فهمت المرأة بحوية :

— جدا !

وأكدت السيدة الأخرى برصانة :

— رائحته جميلة للغاية !

وانهمكن ثلاثتهن فى حديث حى ، فأظهرن فى مسألة المرملاذ اطلالا رائعا ومعرفة دقيقة بالموضوع . وكان من الواضح انهن راضيات تماما لأنه لا لزوم لاجهاد الذهن والتظاهر بأنهن مهتمات جديا بالأترك واليونانيين الذين لم يتطرق اليهم تفكيرهن قبل هذه اللحظة .

وعندما هممن بالانصراف وعدن انطون بافلوفتش بمرح :

— سنرسل اليك مرملاذ .

وعندما انصرفن قلت انا :

— كنت رائعا فى حديثك .

فضحك انطون بافلوفتش بصوت خافت وقال :

— ينبغي ان يتحدث كل شخص لغته . . .

وفى مرة اخرى وجدت عنده وكيل نيابة شابا ، وسيما .

كان واقفا امام تشيخوف يهز رأسه بخصلات شعره المتموج ويقول بحماس :

— انكم يا انطون بافلوفتش ، بقصتكم «مع سبق

الاصرار» ، تضعون أمامي قضية صعبة للغاية . فلو انى

اعترفت بوجود ارادة شريرة لدى دينيس جريجورييف تتصرف

بوعى ، لوجب عليّ دون ادنى تحفظ ان ازج بدينيس فى

السجن كما تملئ بذلك مصالح المجتمع . ولكنه متوحش ،

ولم يدرك جريرة ما فعله ، اننى اشفق عليه ! ولو أنى

عاملته كشخص تصرف دون فهم ، واستسلمت لمشاعر

الشفقة . . فكيف اذن اضمن للمجتمع ان دينيس لن يعود الى فك صواميل القضبان ويتسبب في حوادث القطارات ؟ تلك هي المسألة ! فما العمل ؟

صمت ، ودفع جسمه الى الخلف وحقق في وجه انطون بافلوفتش بنظرة متفحصة . وكانت حلته الرسمية جديدة ، ولمعت الازرار النحاسية على صدره بنفس الثقة والغباء الذى لمعت به العينان الصغيرتان على الوجه الناعم لحامي العدالة الشاب هذا .

وقال انطون بافلوفتش بجدية :

— لو كنت قاضيا ، لبرأت دينيس . . .

— على أي اساس ؟

— كنت اقول له : «انت يا دينيس لم تبلغ بعد

مرتبة المجرم الواعي . . . اذهب . . . وابلغ !» .

فضحك وكيل النيابة ، ولكنه عاد على الفور الى الجدية

المهية وقال :

— كلا يا انطون بافلوفتش المحترم . ان القضية التى

اثرتموها لا يمكن ان تحل الا فى صالح المجتمع الذى

انا مطالب بحماية حياته وممتلكاته . دينيس متوحش ،

هذا صحيح ، ولكنه مجرم . . . تلك هى الحقيقة !

وفجأة سأله تشيخوف برقة :

— هل يعجبك الفونوغراف ؟

— اوه نعم ! جدا ! اختراع مدهش ! — اجاب

الشاب بحيوية .

فقال انطون بافلوفتش بحزن :

— اما انا فلا اطبق الفونوغرافات !

— ولماذا ؟

— انها تتحدث وتغنى دون ان تحس بشيء . وكل ما يخرج منها يخرج بصورة كاريكاتيرية ، ميتة . . . وهل تهتم بالتصوير ؟

واتضح ان وكيل النيابة من هواة التصوير المولعين . وشرع على الفور يتحدث عنه بحماس ، وقد نسي تماما الفونوغراف ، بالرغم من وجه الشبه بينه وبين «هذا الاختراع المدهش» . . هذا الشبه الذى لمسه تشيخوف بدقة . ومن جديد رأيت انسانا صغيرا حيا ومسليا يطل من الحلة الرسمية وهو لا يزال بعد يشعر بنفسه فى الحياة كالجرو اثناء الصيد . وبعد ان ودع الشاب قال انطون بافلوفتش متجهما : — امثال هذه البثور على . . . مقعد العدالة هم الذين يتصرفون بمصائر البشر .

وصمت قليلا ثم اضاف :

— وكلاء النيابة يحبون جدا صيد السمك . وخاصة سمك الراف .

كان تشيخوف يتمتع بفن اكتشاف الجوانب المبتذلة وابرازها اينما كانت . . . هذا الفن الذى لا يملكه الا شخص متشدد المطالب ازاء الحياة ، هذا الفن الذى تخلقه فقط الرغبة الحارة فى رؤية الناس بسطاء ، جملاء متجانسين . وكان دائما للابتذال قاضيا قاسيا وحادا .

. . . فى الصبا يبدو الابتذال شيئا مضحكا وتافها فحسب ، ثم يحيط بالانسان تدريجيا ، ثم يتغلغل بضبابه الرمادى فى عقله ودمه كالسم والدخان الخانق ، فيصبح الانسان اشبه بلافتة قديمة اكلها الصدأ . . تبدو وكأنها تصور

شيئا ما ، ولكن ما الذى تصوره ؟ لا تستطيع ان تميز .
ومنذ البداية استطاع انطون تشيخوف فى قصصه الأولى
ان يكتشف فى بحر الابتذال الكابى مزحاته المأساوية
الكثيية : يكفى ان تقرأ بانتباه قصصه القصيرة «الفكاهية»
حتى تقتنع بأنه ما أكثر ما كان المؤلف يراه بحزن ويخفيه
بخجل من اشياء قاسية ومنفرة وراء الكلمات والمواقف المضحكة .

كان نقيا فى تواضعه ولم يكن يسمح لنفسه بأن يقول
للناس بصوت عال وبصورة سافرة : «فلتكونوا . . أكثر
استقامة !» بل كان يأمل عبثا بأن يفتنوا بانفسهم الى
الحاجة الماسة لهم بأن يكونوا أكثر استقامة . وكان ، وهو
يمقت كل ما هو مبتذل وقدر ، يصف كل حقارات الحياة
بلغة نبيلة لشاعر ، وبضحكة ناعمة لفكاهي ، ومن وراء
المظهر الخارجى الرائع لقصصه القصيرة لا يكاد يبدو مغزاها
الداخلى المشبع باللوم المرير .

ويضحك الجمهور المحترم وهو يقرأ قصة تشيخوف
القصيرة «ابنة أليون» * وربما لا يرى فى هذه القصة امتهاانا
حقيرا من اقطاعي شعبان لانسان وحيد غريب عن كل من
حوله وما حوله . وفى كل قصة قصيرة من قصص انطون
بافلوفتش الفكاهية اسمع آهة خافتة عميقة من قلب نقى ،
انساني حقا ، آهة اشفاق يائسة على الناس الذين لا يعرفون
كيف يحترمون كرامتهم الانسانية ، ويعيشون كالعبيد مستسلمين

* «أليون» اسم قديم اطلق على انجلترا . المغرب .

دون مقاومة للقوة الغاشمة ، ولا يؤمنون بأى شىء اللهم الا
بضرورة ان يتناولوا كل يوم حساء أكثر دسامة بقدر المستطاع ،
ولا يحسون بشىء ، اللهم الا بالخوف من ان يضربهم
شخص ما قوي ووقع .

لم يدرك احد بمثل هذا الوضوح والرهافة ، مثلما ادرك
تشيخوف ، مأساوية توافه الحياة ، ولم يستطع احد قبله
ان يرسم للناس بهذا الصدق الذى لا يرحم صورة مشينة
وكثيبة لحياتهم فى الفوضى الكابية للواقع اليومى العادى الضيق
الافق .

كان الابتذال عدوه ، وقد ناضل ضده طوال حياته ،
وهو الذى سخر منه وصوره بقلمه الرصين الحاد ، وكان
قادرا على اكتشاف عفن الابتذال حتى هناك ، حيث يبدو
للهولة الاولى ان كل شىء مرتب جيدا جدا ، بصورة مريحة ،
بل وحتى باهرة . . وانتقم منه الابتذال على ذلك بحركة
طائشة سيئة عندما وضع جثمانه — جثمان الشاعر — فى عربة
قطار لنقل «القواقع البحرية» .

ان هذه العربة الخضراء القذرة كالبقعة تبدو لى انما
ابتسامة كبيرة ظافرة للابتذال من عدوه المتعب ، اما
«الذكريات» العديدة للصحف الرخيصة فتبدو حزنا منافقا
احس من خلفه بالزفير البارد الكريه الرائحة لذلك الابتذال
عينه ، المسرور فى قرارة نفسه بموت عدوه .

عندما تقرأ قصص انطون تشيخوف تحس وكأنك فى
يوم حزين من أيام اواخر الخريف ، عندما يكون الهواء
شفافا للغاية ، وتبرز بحدة معالم الاشجار العارية والبيوت

الضيقة والناس الرماديين . كل شىء غريب . . وحيد ،
جامد عاجز . اما الافاق الزرقاء البعيدة فتبدو خاوية ، وعندما
تتحد بالسماء الشاحبة ، تنفث بردا مقبضا على الارض
المغطاة بالوحل المتجمد . وعقل الكاتب كشمس الخريف ،
يضيئ بوضوح قاس ، الطرق المكسرة ، والشوارع المتعرجة ،
والمنازل الضيقة القدرة ، التى يختنق فيها من الضجر والكسل
اناس صغار تافهون يملأون بيوتهم بالهرولة الفارغة الناعسة .
ها هي «حبوبة» ، تلك المرأة الرقيقة الوديدة القادرة على
الحب بهذه الدرجة من العبودية وبهذه الوفرة . . ها هي
تتراكض بذعر كفأر رمادى . وبوسعك ان تصفعها على خدها
ولكنها لن تجرؤ حتى على الانين بصوت عال ، هذه العبدة
المسكينة . وبجوارها تقف بحزن «أولجا» من مسرحية
«الشقيقات الثلاث» . . وهى ايضا وفيرة الحب وتخضع بلا
تذمر لنزوات زوجة اخيها الكسول المنحلة الوضيعة ، وتشهد
كيف تتحطم حياة شقيقتيها فتبكي ولا تستطيع ان تساعد
احدا بشىء ، وليس فى قلبها ولو كلمة احتجاج حية قوية
ضد الوضاعة .

وها هى مدام «رانيفسكايا» الفياضة الدموع وغيرها من
اصحاب «بستان الكرز» السابقين . . أناس انانيون كالأطفال
وذابلون كالشيوخ . لقد تأخروا فلم يموتوا فى الوقت المناسب ،
وها هم يشكون دون ان يروا او يفقهوا شيئا من حولهم . .
اناس طفيليون عاجزون عن التعلق بالحياة من جديد . وها
هو الطالب الفاشل «تروفيموف» يتكلم ببلاغة عن ضرورة العمل
ويتسكع دون عمل ، ويتسلى من الملل بالاستهزاء الاحمق
بـ«فاريا» التى تكدح دون كلل من اجل رفاهية العاطلين .

اما «فيرشينين» * فيحلم بان الحياة ستكون رائعة بعد ثلاثمائة سنة ، ويعيش دون ان يلاحظ ان كل ما حوله يتحلل ، وان «سوليوني» * مستعد بدافع الملل والحماسة لان يقتل البارون البائس «توزنباخ» * .

وامام عينيك يمر صف طويل من العبيد والعبادات اسرى حبهم وغبائهم وكسلهم ، اسرى نهمهم لخيرات الحياة . يمر عبيد الخوف الغامض من الحياة ، والقلق المبهم ينتابهم ويملاؤن الحياة بالحديث الركيك عن المستقبل ، اذ يشعرون انه لا مكان لهم في الحاضر . . .

واحيانا تدوى وسط كتلتهم الرمادية طلقة . . انه «ايفانوف» * * او «تريبيليف» * * * . قد ادركا اخيرا ما ينبغي عليهما عمله فماتا .

والكثيرون منهم يحلمون احلاما جميلة بروعة الحياة بعد مائتي سنة ، ولا يتبادر الى ذهن اي منهم السؤال البسيط : من ذا الذى سيجعلها رائعة اذا كنا سنحلم فقط ؟ ومن جوار كل هذه الكتلة الرمادية المملة من الاشخاص العاجزين ، مر رجل كبير ذكي متنبه الى كل شىء ، فتطلع الى سكان وطنه المملين هؤلاء ، وبابتسامة حزينة ونبرة ناعمة ، ولكنها نبرة لوم عميق ، وبصوت جميل صادق

* فيرشينين وسوليوني وتوزنباخ من ابطال مسرحية «الشقيقات الثلاث» . **المعرب** .

* * ايفانوف بطل مسرحية «ايفانوف» . **المعرب** .
* * * تريبليف بطل مسرحية «النورس» . **المعرب** .

قال وعلى وجهه وفي صدره اعتمل أسي يائس :
— ما أسوأ حياتكم يا سادة !

حرارتي مرتفعة لليوم الخامس ، ولكني لا اريد ان
ارقد . والمطر الفنلندي يسقط على الارض غبارا مبللا .
وفي طابية «إينو» تدوي المدافع التي يقومون بتجربتها . وفي
الليل يلحق السحب لسان الكشاف الطويل . فياله من مشهد
مقزز لأنه لا يجعلك تنسى هذا الكابوس الشيطاني : الحرب .
كنت اقرأ تشيخوف . لو أنه لم يمت منذ عشر
سنوات لربما قتله الحرب * بعد ان تكون قد سممته
اولا بكراهية البشر . وتذكرت يوم جنازته .

نقل تابوت الكاتب الذي احبته موسكو «برقة» في عربة
قطار خضراء كتب على بابها باحرف كبيرة : «لنقل القواقع
البحرية» . ومضى جزء من الحشد الصغير الذي اجتمع في
المحطة لاستقبال جثمان تشيخوف وراء تابوت الجنرال كيلر
المنقول من منشوريا ** ، ودهشوا جدا عندما رأوا ان
جنازة تشيخوف يصحبها اوركسترا الموسيقى العسكرية . وعندما
اكتشفوا الخطأ بدأ بعض المرحين منهم يضحكون بصوت
خافت ويهأهئون . وسار وراء تابوت تشيخوف حوالي مائة
شخص لا أكثر ، واذكر منهم جيدا اثنين من المحامين ،

* الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ — ١٩١٨) . المغرب .

** توفي تشيخوف في يوليو ١٩٠٤ ابان الحرب الروسية

اليابانية (١٩٠٤ — ١٩٠٥) التي دارت بين اليابان وروسيا القيصرية
من اجل السيطرة على الشرق الاقصى . المغرب .

وكانا كلاهما فى حداثين جديدين وربطتى عنق زاهيتين
كالعرسان . وسمعت وانا اسير خلفهما احدهما — ويدعى
مكلاكوف — يتحدث عن ذكاء الكلاب ، والاخر ، وكنت
لا اعرفه ، يمتدح مزايا فيلته الصيفية وجمال الطبيعة حولها .
وكانت سيدة ما فى ثوب ليلكى وبمظلة من الدانتلا تؤكد
لعجوز يرتدى نظارة باطار سميك :

— اوه ، كم كان رقيقا بصورة مذهشة وذكيا . . .
وسعل العجوز بشك . كان يوما حارا متربا . وفى
مقدمة الموكب تهادى ضابط شرطة بدين بعظمة على فرس
بيضاء بدينة . وكان كل هذا وكثير غيره مبتذلا بقسوة ولا
يتفق ابدا وذكرى هذا الفنان الكبير المرهف الحس .

كتب تشيخوف فى احدى رسائله الى العجوز سوفورين * :
«ليس هناك ما هو اكثر مللا ولا شاعرية ، كما يقال ،
من الصراع العادى فى سبيل البقاء ، والذى يحرمك من
بهجة الحياة ويدفع بك الى الكآبة» . . .
وكان «الصراع فى سبيل البقاء» قد تحول لديه منذ
الصبا الى صورة بائسة باهتة من صور الهموم اليومية الصغيرة
بحثا عن لقمة الخبز لا لنفسه فقط ، بل عن لقمة خبز

* الكسى سوفورين (١٨٣٤ — ١٩١٢) ناقد مسرحى وصحفى
وناشر . اسس دار نشر ، وجريدة ، ومسرح سوفورين (مسرح بطرسبرج
الصغير) . وكانت تربطه علاقات وثيقة بأدباء عصره وخاصة تولستوى
وتشيخوف . المغرب .

كبيرة . وقد بذل كل قوى صباه لهذه الهموم المجردة من
الفرحة ، وانه لشيء يدعو الى الدهشة ، اذ كيف استطاع
ان يحتفظ بروح الفكاهة ؟ لم ير الحياة الا كسعي ممل
للشئ من اجل الشئ والسكينة . وبالنسبة له كانت المآسى
العظيمة تختبئ تحت طبقة سميكة من الواقع العادي .
وعندما تحرر قليلا من مشاغل رؤية الاشخاص الشباع من
حواله ، عندها فقط نظر ببصر ثاقب الى جوهر هذه المآسى .
لم أر شخصا ادرك اهمية العمل كأساس للثقافة بهذا
العمق والشمول مثلما ادرك تشيخوف . وقد تجلى ذلك لديه
فى جميع التفاصيل الصغيرة للحياة المنزلية : فى اختيار
الاشياء ، وفى ذلك الحب النبيل للاشياء الذى يستبعد
تماما السعى الى تكديسها ولا يمل فى الوقت نفسه من
الاعجاب بها كثرة لابداع الروح البشرية . كان يحب البناء
وزراعة البساتين وتزيين الارض ، ويحس بشاعرية العمل .
وبأى حذب مؤثر كان يراقب نمو اشجار الفواكه وخمائل
الزينة التى غرسها بنفسه فى حديقته ! وكان يقول وهو مشغول
ببناء بيته فى اووتكا :

— لو ان كل انسان صنع فى قطعة ارضه كل ما
يستطيع لأصبحت ارضنا رائعة !

كان المرض يثير فيه احيانا مزاج الوسوسة بل وحتى بغض
البشر . وفى مثل هذه الايام يصبح نزقا فى احكامه وصعبا فى
معاملته للناس .

وذات مرة ، وكان مستلقيا على الكنبه ، يسعل سعالا
جافا ويعبث بالترمومتر ، قال :

— ان تحيا من اجل ان تموت ليس شيئا مسليا ابدا ، ولكن ان تحيا وانت تدرك انك ستموت قبل الاوان . . .
فهذا شيء احمق تماما . . .

وفي مرة اخرى ، وكان جالسا بجوار نافذة مفتوحة ينظر الى الافق البعيد ، الى البحر ، قال فجأة بغضب :
— تعودنا ان نعيش ونحن نأمل بطقس جيد ، وبمحصول وفير ، وبقصة غرامية لطيفة ، نأمل بالثروة او بالحصول على منصب مأمور شرطة ، ولكنى لا الاحظ ان احدا يأمل بان يزداد ذكاء . ونقول لانفسنا : عندما يأتى قيصر جديد ستتحسن الاحوال ، وبعد مائتى عام ستتحسن اكثر ، ولا احد يهتم بان يأتى هذا الاحسن غدا . وعموما فالحياة فى كل يوم تصبح اكثر تعقيدا ، وتمضى فى اتجاه ما من تلقاء نفسها ، اما الناس فيزدادون غباء بصورة ملحوظة ، ويصبح عدد متزايد من الناس على هامش الحياة .
وفكر قليلا ، وقطب جبينه ، ثم اردف :

— مثل العجزة الشحاذين فى الاعياد الدينية . . .
كان طبيبا ، ومرض الطبيب دائما اشد وطأة من مرض مرضاه . . . فالمرضى يشعرون فقط بتدمير الداء لاجسادهم اما الطبيب فعلاوة على ذلك يعرف بعض المعلومات عن هذه العملية . وهذه احدى الحالات التى يمكن فيها اعتبار المعرفة عاملا على تقريب ساعة الموت .

كانت عيناه تبدوان جميلتين عندما يضحك . . . تصبحان رقيقتين بأنوثة وناعمتين بلطف . وكان ضحكه بلا صوت تقريبا — جميلا بصفة خاصة . وعندما كان يضحك كان

يستمتع بالضحك وينتشي . ولا أعرف احدا آخر يستطيع
ان يضحك هكذا . . ضحكا «روحيا» . . .

ذات مرة ، وكنت حاضرا ، ابدى تولستوي اعجابه
بقصة تشيخوف «الحبوبة» على ما اعتقد . وقال :
— انها مثل الدانتلا التي نسجتها فتاة عفيفة . كان
هناك في الماضي امثال هولاء الفتيات ناسجات الدانتلا ،
«العوانس» . . كن يضعن في الزخرف كل حياتهن ، وكل
احلامهن بالسعادة . وبالزخارف كن يحلمن بالحبيب الغالى ،
وينقلن الى رسوم الدانتلا كل حبهن الطاهر المبهم . . .
كان تولستوي يتحدث بتأثر عميق والدموع تترقرق في
عينيه .

وكانت حرارة تشيخوف في هذا اليوم مرتفعة ، وجلس
متوقد الخدين وقد احنى رأسه وراح ينظف عويناته باهتمام .
وصمت طويلا ، واخيرا تنهد وقال خجلا بصوت خافت :
— هناك اخطاء مطبعية . . .

يمكن كتابة الكثير عن تشيخوف ، ولكن لا بد من
الكتابة بتركيز شديد ودقة ، الامر الذى لا اجيده . وما
اطيب لو كتب عنه كما كتب هو قصة «السهب» . . تلك
القصة الخفيفة ذات العبير ، والساهمة الحزينة على الطريقة
الروسية . انها قصة ليست للاخرين بل للنفس .
وما اطيب ان تتذكر انسانا كهذا . . فعلى الفور يعود
النشاط الى حياتك ، ومن جديد يدخل اليها معنى واضح . . .

فرحة

كانت الساعة الثانية عشرة ليلا .
اندفع ميتيا كولداروف الى شقة والديه منفعلا منفوش
الشعر ، ومضى يروح ويجيئ بسرعة في جميع الغرف .
وكان الوالدان قد أويا الى الفراش . ووقدت اخته في سريرها
تقرأ آخر صفحة في الرواية . اما اخوته التلاميذ فكانوا
نائمين .

وقال والداه بدهشة :

— من اين جئت ؟ ماذا بك ؟

— أوه ، لا تسألا ! لم أتوقع ابدا ذلك ! كلا ،

لم أتوقعه ابدا ! انه . . انه غير معقول !
وقهقه ميتيا ، وجلس في القوتيل وهو لا يقوى على
الوقوف من فرط السعادة .

— هذا غير معقول ! لا يمكن ان تتصوروا ! انظروا !

قفزت اخته من الفراش ، واسدلت على كتفيها البطانية
واقتربت من أخيها . واستيقظ التلاميذ .

— ماذا بك ؟ انك شاحب جدا !

— هذا من الفرحة يا ماما ! فالآن أصبحت روسيا

كلها تعرفني ! كلها ! من قبل لم يكن احد غيركم

يعرف انه يوجد فى الدنيا المسجل الاعتبارى * ديمترى
كولداروف ، اما الآن فروسيا كلها تعرف ذلك ! ماما !
يا الهى !

قفز ميتيا ، وجرى فى غرف البيت ثم عاد الى مجلسه .
— ولكن ماذا حدث ؟ هلا أوضحت لنا !
— انكم تعيشون كالوحوش البرية ، لا تقرأون الصحف ،
ولا تهتمون ابدا بما ينشر ، بينما فى الجرائد اشياء رائعة !
فاذا حدث شىء يصبح معروفا على الفور ، ولا يخفى ابدا !
كم انا سعيد ! يا الهى ! الجرائد لا تكتب الا عن مشاهير
الناس فقط ، واذا بهم فجأة يكتبون عني !
— ماذا تقول ! اين ؟

امتقع الأب . ونظرت الأم الى الايقونة ورسمت علامة
الصليب . وقفز التلاميذ فى قمصان النوم القصيرة فقط واقتربوا
من أخيهم الاكبر .

— نعم ! كتبوا عني ! الآن تعرفنى روسيا كلها !
خبئى يا ماما هذا العدد واحتفظى به للذكرى ! سوف
نقرأه احيانا . انظروا !

وأخرج ميتيا من جيبه عددا من جريدة وأعطاه لأبيه
وهو يدس اصبعه فى موضع محاط بخط قلم ازرق .
— اقرأ !

وارتدى الوالد النظارة .

* المسجل الاعتبارى رتبة من ادنى الرتب المدنية فى روسيا
القيصرية . المغرب .

— هيا اقرأ !

ونظرت الأم الى الايقونة ورسمت علامة الصليب .
وتنحنح الأب وشرع يقرأ :

— «فى ٢٩ ديسمبر ، فى الساعة الحادية عشرة مساء كان المسجل الاعتبارى ديمترى كولداروف . . .

— هل رأيتم ؟ هل رأيتم ؟ اكمل ! . .

— . . . كان المسجل الاعتبارى ديمترى كولداروف

خارجا من الحانة الواقعة فى شارع مالايا برونايا ، فى منزل كوزيخين ، وهو فى حالة سكر . . .

— شربت مع سيميون بتروفتش . . . وصفوا حتى أدق

التفاصيل ! اكمل ! بعده ! اسمعوا ! . .

— وهو فى حالة سكر فزلت قدمه وسقط تحت حصان

حودى كان واقفا هنا ، ويدعى ايفان دروتوف من قرية دوريكينا بناحية يوخنوف . وذعر الحصان فخطا من

فوق كولداروف وسحب من فوقه الزحافة التى كان جالسا فيها ستيبان لوكوف التاجر من الدرجة الثانية بموسكو ، وانطلق

عبر الشارع وتمكن البوابون من الامساك به . ونقل كولداروف

الذى كان فاقد الوعي الى قسم الشرطة حيث اجرى له كشف

طبى . واتضح ان الضربة التى تلقاها فى مؤخرة رأسه . . .

— انها من اصطدامى بذراع الزحافة يا بابا . اكمل ،

اقرأ بعد ذلك !

— . . . التى تلقاها فى مؤخرة رأسه تعتبر من الضربات

الخفيفة . وقد تم تحرير محضر بالواقعة . واجرى للمصاب

اسعاف أولى . . .»

— نصحونى بان أبلل مؤخرة رأسى بالماء البارد .

حسنا ، هل رأيتم ؟ هه ؟ هكذا ! الخبر الآن يتتشر فى
روسيا كلها ! هات الجريدة !
ونخطف ميتيا الجريدة وطواها ، ودسها فى جيبه .
— سأسرع الى آل هكاروف لأريها لهم . . . ينبغي
ان أريها ايضا لآل ايفانيتسكى ، ولنتاليا ايفانوفنا ، ولأنيسيم
فاسيليتش ! انا ذاهب ! وداعا !
وارتدى ميتيا العمرة ذات الشريط المعقود وانطلق الى
الشارع منتشيا فرحا .

١٨٨٣

الكبش والآنسة

(مشهد قصير من حياة «السادة المحترمين»)

كانت سحنة السيد المحترم الشبعانة اللامعة تنطق بالملل القتال . كان قد غادر لتوه أحضان مورفيوس * بعد الظهر ولا يدرى ماذا يفعل . لم تكن به رغبة فى التفكير او التأوب . . . اما القراءة فملها منذ عهد سحيق ، وكان الوقت لا يزال مبكرا للذهاب الى المسرح ، ومنعه الكسل من الذهاب للترحلق . فما العمل ؟ بم يسلى نفسه ؟ وأبلغه الخادم يجور :

— هناك آنسة ما جاءت ! تسأل عنكم .
— آنسة ؟ هم . . ترى من هى ؟ على العموم سيان ، ادعها . . .

ودخلت غرفة المكتب بهدوء فتاة وسيمة ، سوداء الشعر ، ترتدى ملابس بسيطة . . بل وبسيطة جدا . وعندما دخلت حيت بانحناءة . واخذت تقول بصوت مرتعش :
— ارجو المعذرة . انا . . قالوا لى ان حضرتكم . .
انه من الممكن ان أجدكم فى الساعة السادسة فقط . .

* اله الاحلام عند الاغريق القدماء . المعرب .

انا . . . انا . . . ابنة مستشار القصر * بالتسيف . . .
— تشرفنا . . . تفضلى اجلسى ! اية خدمة ؟ اجلسى
لا تخجلى !

— لقد جئتك فى طلب . . . — مضت الأنسة تقول
وهى تجلس فى ارتباك وتعبث بازرارها بيدين مرتعشتين —
لقد جئت . . . لكى أطلب منكم بطاقة سفر مجانية الى
موطنى . . . سمعت انكم تعطون . . . وانا أريد ان أسافر ،
وليس معى . . . انا لست غنية . . . بطاقة من بطرسبرج الى
كورسك . . .

— هم . . . هكذا . . . ولماذا تريدن السفر الى كورسك ؟
ألا يعجبك الحال هنا ؟

— لا ، هنا يعجبنى ، ولكن . . . أهلى . . . اريد ان
أسافر الى أهلى . . . لم أرهم منذ مدة طويلة . . . كتبوا لى
ان ماما مريضة . . .

— هم . . . وانت هنا موظفة أم طالبة ؟
وأخبرته الأنسة بالمكان الذى كانت تعمل فيه وعند
من ، وكم كانت تتقاضى ، وبحجم العمل الذى كانت
تؤديه . . .

— هكذا . . . كنت تعملين . . . نعم ، لا يمكن
القول ان مرتبك كان كبيرا . . . لا يمكن القول . . . ليس من
الانسانية الا تصرف لك بطاقة مجانية . . . هم . . . اذن فانت

* رتبة مدنية من الدرجة السابعة فى روسيا القيصرية تعادل
رتبة المقدم العسكرية . . . المعرب .

مسافرة الى اهلك . . . حسنا ، وربما كان لديك فى كورسك حبيب ، هه ؟ حبيب ؟ هىء ، هىء ، هوء . . خطيب ؟ آه ، تخجلين ؟ أوه ، لا داعى ! هذا شىء محمود . . فلتسافرى . . حان الوقت لكى تتزوجى . . ومن هو ؟ — موظف . . .

— شىء محمود . . سافرى الى كورسك . . يقال انه على بعد مائة فرسخ من كورسك تنتشر رائحة حساء الكرنب وتزحف الصراصير . . . هىء ، هىء ، هوء . . لا بد ان الحياة مملة فى كورسك هذه ؟ لا تخجلى ، انزعى القبعة ! نعم ، هكذا ! يا يجور ، هات شايا . لا بد ان الحياة مملة فى هذه الـ . . ام . . ما اسمها . . كورسك ؟ لم تكن الأنسة تتوقع مثل هذا الاستقبال الرقيق فشع وجهها بالسرور ، ووصفت للسيد المحترم كل ما فى كورسك من الوان التسلية . . وأخبرته ان لديها أخا موظفا ، وعمها مدرس ، وابناء أخيها تلاميذ . . وقدم يجور الشاى . . وتناولت الأنسة الكوب بوجل ، وراحت ترشفه دون صوت وهى تخشى ان تصدر عنها مصمصة . . . وكان السيد المحترم يتطلع اليها وهو يبتسم بسخرية . . ولم يعد يشعر بالملل . . وسألها :

— هل خطيبك وسيم ؟ وكيف تعرفتما ببعض ؟ وأجابت الأنسة بخجل على هذين السؤالين . واقتربت بمجلسها من السيد المحترم فى ثقة ، وروت له وهى تبتسم كيف تقدم الخطاب هنا فى بطرسبرج لخطبتها فرفضتهم . . . تحدثت طويلا . وانتهت حديثها بان اخرجت من جيبها رسالة من والديها وقرأتها على السيد المحترم . ودقت الساعة

— والدك خطه لا بأس به . . بأية زخارف ينمق الحروف !

هيء ، هيء . . حسنا ، لقد حان وقت انصرافي . . لا بد ان المسرح بدأ عرضه . . وداعا يا ماريًا يفيموفنا .

فسألت الأنسة وهي تنهض :

— اذن استطيع ان آمل ؟

— بماذا ؟

— بان تعطوني بطاقة مجانية . . .

— بطاقة ؟ هم . . ليس لدى بطاقات . يبدو انك

اخطأت يا سيدتي . . هيء ، هيء ، هيء . . اخطأت

العنوان ، دخلت غير المدخل . . بالقرب منى يسكن ،

حقا ، احد العاملين فى السكك الحديدية ، اما انا فأعمل

فى بنك ! يا يجور ، مرهم ان يعدوا العربة ! وداعا يا

ma chère * ماريًا سيميونوفنا ! سعيد جدا . . سعيد جدا . . .

ارتدت الأنسة معطفها وخرجت . . وعند المدخل الآخر

قيل لها انه سافر الى موسكو فى الساعة والنصف .

١٨٨٣

المغفلة

منذ ايام دعوت الى غرفة مكتبى مربية اولادى يوليا
فاسيليفنا لكى أدفع لها حسابها .
قلت لها :

— اجلسى يا يوليا فاسيليفنا . هيا نتحاسب . انت
فى الغالب بحاجة الى النقود ، ولكنك خجولة الى درجة
انك لن تطلبها بنفسك حسنا . . . لقد اتفقنا على ان
ادفع لك ثلاثين روبلا فى الشهر . . .
— أربعين . . .

— كلا ، ثلاثين . . . هذا مسجل عندى . . . كنت
دائما أدفع للمربيات ثلاثين روبلا . حسنا ، لقد عملت
لدينا شهرين . . .

— شهرين وخمسة ايام . . .

— شهرين بالضبط . . . هكذا مسجل عندى . . . اذن
تستحقين ستين روبلا نخضم منها تسعة ايام آحاد . . .
فانت لم تعلمى كويا فى ايام الآحاد بل كنت تتنزهين
معه فقط . . . ثم ثلاثة ايام اعياد .

تضرج وجه يوليا فاسيليفنا ، وعبثت اصابعها باهداب
الفستان ولكن . . . لم تنبس بكلمة !

— نخصم ثلاثة اعياد ، اذن المجموع اثنا عشر روبلا . . . وكان كوليا مريضا اربعة ايام ولم تكن دروس . . . كنت تدرسين لفاريا فقط . . . وثلاثة ايام كانت اسنانك تؤلمك فسمحت لك زوجتى بعدم التدريس بعد الغداء . . . اذن اثنا عشر زائد سبعة — تسعة عشر . . . نخصم ، الباقي . . . هم . . . واحد واربعون روبلا . . . مضبوط ؟

احمرت عين يوليا فاسيليفنا اليسرى وامتلات بالدمع ، وارتعش ذقنها . وسعلت بعصبية وتمخطت ، ولكن . . . لم تنبس بكلمة !

— قبيل رأس السنة كسرت فنجانا وطبقا . . . نخصم روبلين . . . الفنجان أغلى من ذلك ، فهو موروث ، ولكن فليسامحك الله ! علينا العوض . . . نعم ، وبسبب تقصيرك تسلق كوليا الشجرة ومزق سترته . . . نخصم عشرة . . . وبسبب تقصيرك ايضا سرقت الخادمة من فاريا حذاء . ومن واجبك ان ترعى كل شيء ، فانت تتقاضين مرتبا . وهكذا نخصم ايضا خمسة . . . وفي ١٠ يناير اخذت منى عشرة روبلات . فهمست يوليا فاسيليفنا :

— لم آخذ !

— ولكن ذلك مسجل عندى !

— طيب ، ليكن . . .

— من واحد واربعين نخصم سبعة وعشرين . . . الباقي اربعة عشر . . .

امتلات عيناها الاثنتان بالدموع . . . وطفرت حبات العرق على انفها الطويل الجميل . يا للفتاة المسكينة ! وقالت بصوت متهدج :

— أخذت مرة واحدة . . . أخذت من حرمكم ثلاثة
روبلات . . . لم آخذ غيرها . . .
— حقا ؟ انظر ، وانا لم اسجل ذلك ! نخصم
من الاربعة عشر ثلاثة ، الباقي احد عشر . . . ها هي نقودك
يا عزيزتى ! ثلاثة . . . ثلاثة . . . ثلاثة . . . واحد ، واحد . . .
تفضلى !

ومددت لها احد عشر روبلا . . . فتناولتها ووضعتها فى
جيبها باصابع مرتعشة . وهمست :
— * Merci .

فانتفضت واقفا واخذت أروح واجيء فى الغرفة .
واستولى على الغضب .
سألتها :

— merci على ماذا ؟

— على النقود . . .

— يا للشيطان ، ولكنى نهبتك ، سلبتك ! لقد

سرقت منك ! فعلام تقولين merci ؟

— فى اماكن اخرى لم يعطونى شيئا . . .

— لم يعطوك ؟ ! ليس هذا غريبا ! لقد مزحت

معك ، لقنتك درسا قاسيا . . . سأعطيك نقودك ، الثمانين

روبلا كلها ! ها هي فى المظروف جهزتها لك ! ولكن

هل يمكن ان تكونى عاجزة الى هذه الدرجة ؟ لماذا لا

تحتجين ؟ لماذا تسكتين ؟ هل يمكن فى هذه الدنيا

* مرسى ، شكرا . المعرب .

الا تكونى حادة الانياب ؟ هل يمكن ان تكونى مغفلة
الى هذه الدرجة ؟
ابتسمت بعجز فقرأتُ على وجهها : «يمكن !» .
سألتهما الصفح عن هذا الدرس القاسى وسلمتها ،
لدهشتها البالغة ، الثمانين روبلا كلها . فشكرتنى بخجل
وخرجت . . . وتطلعت فى اثرها وفكرت : ما أسهل ان
تكون قويا فى هذه الدنيا !

وفاة موظف

ذات مساء رائع كان ايفان ديمتريفيتش تشرفياكوف ،
الموظف الذى لا يقل روعة ، جالسا فى الصف الثانى من
مقاعد الصلاة ، يتطلع فى المنظار الى «اجراس كورنيل» .
وراح يتطلع وهو يشعر بنفسه فى قمة المتعة . وفجأة . . .
وكثيرا ما تقابلنا «وفجأة» هذه فى القصص . والكتاب على
حق ، فما احفل الحياة بالمفاجآت ! وفجأة تقلص وجهه ،
وزاغ بصره ، واحتبست انفاسه . . . وحول عينيه عن المنظار
وانحنى و . . . أتش ! ! ! عطس كما ترون . والعطس
ليس محظورا على احد فى اى مكان . اذ يعطس الفلاحون ،
ورجال الشرطة ، بل وحتى احيانا المستشارون السريون .
الجميع يعطس . ولم يشعر تشرفياكوف باى حرج ، ومسح
انفه بمنديله ، وكشخص مهذب نظر حوله ليرى ما اذا
كان قد ازعج احدا بعطسه . وعلى الفور احس بالحرج .
فقد رأى العجوز الجالس امامه فى الصف الاول يمسح صلخته
ورقبته بقفازه بعناية ويدمدم بشيء ما . وعرف تشرفياكوف
فى شخص العجوز الجنرال بريزجالوف الذى يعمل فى مصلحة
السكك الحديدية .

وقال تشرفياكوف لنفسه : «لقد بللته . انه ليس رئيسى ،

بل غريب ، ومع ذلك فسيء مخرج . ينبغي ان اعتذر .
وتنحج تشرفياكوف ومال بجسده الى الامام وهمس
فى اذن الجنرال :

— عفوا يا صاحب السعادة ، لقد بللتكم . . . لم
اقصد . . .

— لا شيء ، لا شيء .

— استحلفكم بالله العفو . اننى . . . لم اكن اريد !

— اوه ، اسكت من فضلك ! دعنى اصغى !

واخرج تشرفياكوف فابتسم ببلاهة ، وراح ينظر الى
المسرح . كان ينظر ولكنه لم يعد يحس بالمتعة . لقد
بدأ القلق يعذبه . واثناء الاستراحة اقترب من بريزجالوف
وتمشى قليلا بجواره ، وبعد ان تغلب على وجهه دمدم :
— لقد بللتكم يا صاحب السعادة . . . اعذرونى . . .

اننى لم اكن اقصد ان . . .

فقال الجنرال :

— اوه كفاك ! . انا قد نسيت وانت ما زلت تتحدث

عن نفس الامر !

وحرك شفته السفلى بنفاد صبر .

وقال تشرفياكوف لنفسه وهو يتطلع الى الجنرال بشك :

«يقول نسيت بينما الخبث يطل من عينيه . ولا يريد ان
يتحدث . ينبغي ان اوضح له اننى لم اكن ارغب على
الاطلاق . . . وان هذا قانون الطبيعة ، والا ظن اننى اردت
ان ابصق عليه . فاذا لم يظن الآن فسيظن فيما بعد ! . . .»

وعندما عاد تشرفياكوف الى المنزل روى لزوجته ما بدر
عنه من سوء تصرف . وخيل اليه ان زوجته نظرت الى الامر

بأستحقاف ، فقد جرعت فقط ، ولكنها أطمأنت عندما علمت ان بریزجالوف «غريب» .
وقالت :

— ومع ذلك اذهب اليه واعتذر . والا ظن انك لا تعرف كيف تتصرف فى المجتمعات !
— تلك هى المسألة ! لقد اعتذرت له ، ولكنه . . .
كان غريبا . . . لم يقل كلمة مفهومة واحدة . ثم انه لم يكن هناك متسع للحديث .

وفى اليوم التالى ارتدى تشرفياكوف حلة جديدة ، وقص شعره ، وذهب الى بریزجالوف لتوضيح الامر . وعندما دخل غرفة استقبال الجنرال رأى هناك كثيرا من الزوار ورأى بينهم الجنرال نفسه الذى بدأ يستقبل الزوار . وبعد ان سأل عدة اشخاص رفع عينيه الى تشرفياكوف . فراح الموظف يشرح له :

— بالامس فى «اركاديا» لو تذكرون يا صاحب السعادة عطست و . . . بللتكم عن غير قصد . . . اعذر . . .
— يا للتفاهات . . . الله يعلم ما هذا ! — وتوجه الجنرال الى الزائر التالى — ماذا تريدون ؟

وفكر تشرفياكوف ووجهه يشحب : «لا يريد ان يتحدث . اذن فهو غاضب . . . كلا ، لا يمكن ان ادع الامر هكذا . . . سوف اشرح له . . .»

وبعد ان انهى الجنرال حديثه مع آخر زائر واتجه الى الغرفة الداخلية ، خطا تشرفياكوف خلفه ودمدم :

— يا صاحب السعادة ! اذا كنت اتجاسر على ازعاج سعادتكم فانما من واقع الاحساس بالندم ! . لم اكن

أفصد ، كما تعلمون سعادتكم !

فقال الجنرال وهو يختفي خلف الباب :

— انك تسخر يا سيدى الكريم !

وفكر تشرفياكوف : «اية سخرية يمكن ان تكون ؟

ليس هنا اية سخرية على الاطلاق ! جنرال ومع ذلك لا يستطيع ان يفهم ! اذا كان الامر كذلك فلن اعتذر بعد لهذا المتغطرس . ليذهب الى الشيطان ! سأكتب له

رسالة ، ولكن لن آتى اليه . اقسم لن آتى !»

هكذا فكر تشرفياكوف وهو عائد الى المنزل . ولكنه

لم يكتب للجنرال رسالة . فقد فكر وفكر ولم يستطع ان يدبج الرسالة . واضطر فى اليوم التالى الى الذهاب بنفسه لشرح الامر .

ودمدم عندما رفع اليه الجنرال عينين متسائلتين :

— جئت بالامس فأزعجتكم يا صاحب السعادة ،

لا لكى اسخر منكم كما تفضلتم سعادتكم فقلتكم . بل كنت اعتذر لاني عطست فبللتكم . . . ولكنه لم يدر بخاطرى ابدا ان اسخر . وهل اجسر على السخرية ؟ فلو رحنا نسخر ، فلن يكون هناك احترام للشخصيات اذن . . .

وفجأة زار الجنرال وقد اربد وارتعد :

— اخرج من هنا ! !

فسأل تشرفياكوف هامسا وهو يذوب رعبا :

— ماذا ؟

فردد الجنرال ودق بقدمه :

— اخرج من هنا ! !

وتمزق شيء ما فى بطن تشرفياكوف . وتراجع الى

الباب وهو لا يرى ولا يسمع شيئاً ، وخرج الى الشارع وهو
يجر جر ساقيه . . . وعندما وصل آليا الى المنزل استلقى على
الكنبة دون ان يخلع حلته . . . ومات .

١٨٨٣

الصبي الشرير

هبط ايفان ايفانيتش لابكين ، الشاب اللطيف الهيئة ،
وأنا سيميونوفنا زامبليتسكايا ، الشابة ذات الانف الصغير
المقعى ، على الشاطئ المنحدر ، وجلسا على اريكة .
وكانت هذه الاريكة تقوم قرب الماء تماما وسط خمائل
الصفصاف اليافعة الكثيفة . مكان ساحر ! ما ان تجلس
هنا حتى تختفى عن العالم ، فلا تراك الا الاسماك والعناكب
المائية الراكضة كالبرق فوق صفحة المياه . وكان الشاب
والشابة مزودين بالسنانير والشباك وعلب ديدان الطعم وغيرها
من ادوات الصيد . وما ان جلسا حتى شرعا على الفور
فى صيد السمك .

وبدا لابكين يقول وهو يتلفت :

— كم انا سعيد باننا اخيرا أصبحنا وحدنا . أريد
ان أقول لك الكثير يا آنا سيميونوفنا . الكثير جدا . . . عندما
رأيتك اول مرة . . سنارتك تغمز . . أدركت عندها لأى غرض
أحيا ، أدركت اين معبودى الذى ينبغى ان اكرس له كل
حياتى الكادحة الشريفة . . يبدو انها سمكة كبيرة تغمز . . .
ما ان رأيتك حتى أحبيتك ، لأول مرة ، أحبيت حبا
جارفا ! انتظرى لا تجذبى ، دعيها تغمز . . خبرينى يا

عزیزتی ، استحققتك ، هل استطیع ان امل — لا بان
تبادلینی الحب ، كلا — فانا لا استحق ، انا حتی لا
اجرؤ على التفكير فی ذلك . . . هل استطیع ان أطمع فی . . .
اسحبی !

رفعت آنا سیمیونوفنا یدها عاليا بالسنارة وشدتها وصرخت .
ولمعت فی الهواء سمكة فضیة خضراء .

— یا الهی ، فرخ ! آی ، آه . . اسرع ! أفلتت !
أفلتت السمكة من السنارة ، وتلوت على العشب قافزة
نحو محیطها و . . غاصت فی الماء !

وبینما كان لابکین یطارد السمكة أمسك عفوا بذراع
آنا سیمیونوفنا بدلا من السمكة ، وعفوا ضمها الى شفתיه . . .
وشدت هی ذراعها ، ولكن بعد فوات الاوان : فقد انطبقت
الشفتان عفوا فی قبلة . حدث ذلك عفوا . وتلت القبلة
قبلة اخرى ، ثم الايمان والتأكدات . . . یا لها من لحظات
سعيدة ! ولكن لیس هناك شیء سعاد بصورة مطلقة فی
هذه الحیاة الدنیویة . فالشیء السعيد عادة یحمل فی طياته
السم ، او یسممه شیء ما خارجی . وهذا ما كان فی
هذه المرة ایضا . فبینما كان الشاب والشابة یتبادلان القبلات
سمعا فجأة ضحکا . نظرا الى النهر واصابهما الدهول :
فقد كان هناك صبی یقف فی الماء عاریا مغمورا حتی
وسطه . كان ذاك هو التلمیذ کولیا ، شقیق آنا سیمیونوفنا .
كان واقفا فی الماء ینظر الى الشاب والشابة وهو یتسم بخبث .
وقال :

— آه . . تبادلان القبل ؟ طیب ! سأقول لماما .
فدمدم لابکین وهو یتضرج بالحمرة :

— امل بانك كانسان شريف . . . ان التلصص شيء
وضيع ، والشاية شيء منحط ، حقير ، كريه . . . اعتقد
انك كانسان شريف ونبل . . .
فقال الانسان النبل :

— هات روبلا وعندئذ لن أقول ! والا فسأقول .
واخرج لابكين من جيبه روبلا واعطاه لكوليا ، وضم
هذا قبضته المبللة على الروبل ، وصفر ، ثم سبح مبتعدا .
ولم يعد العاشقان الشايان الى تبادل القبل بعد ذلك في
هذا اليوم .

وفي اليوم التالي جلب لابكين اصباغا وكرة من المدينة
لكوليا ، وأهدته اخته كل علب الادوية الفارغة التي كانت
تمتلكها . ثم اضطرا الى اهدائه ازرار اكمام قميص بوجوه
كلاب . ويبدو ان هذا كله أعجب الصبي الشرير ، ولكي
يحصل على المزيد مضى يراقبهما . وأينما ذهب لابكين
وأنا سيميونوفنا كان يذهب . ولم يتركهما دقيقة واحدة .
وصر لابكين على اسنانه وقال :

— وغد ! ما أصغره ومع ذلك فياله من وغد كبير !
تري كيف سيصبح فيما بعد ؟ !

وطوال شهر يونيو نغص كوليا على العاشقين المسكينين
حياتهما . كان يهددهما بالوشاية ، ويراقبهما ويطلب بالهدايا .
ولم يكن يكفيه ما يحصل عليه ، وفي آخر الامر بدأ يتحدث
عن ساعة جيب . فماذا ؟ اضطرا الى ان يعدها بساعة .
وذات مرة ، اثناء الغداء ، عندما قدموا البسكوت
المحشو بالحلوى ، قهقه كوليا فجأة ، وغمز بعينه وسأل
لابكين :

— أقول ؟ هه ؟

واحمر لابكين بشدة ، وبدلا من البسكوت راح يمضغ الفوطه . وهبت آنا سيميونوفنا واقفة من امام المائدة وركضت الى غرفة اخرى .

وظل العاشقان فى هذا الوضع حتى آخر أغسطس ، حتى ذلك اليوم الذى طلب فيه لابكين اخيرا يد آنا سيميونوفنا . أوه ، كم كان يوما سعيدا ! فبعد ان تحدث لابكين مع والدى العروس وحصل على موافقتهما ، كان اول ما فعله ان انطلق الى الحديقة ومضى يبحث عن كوليا . وعندما وجدته كاد يعول من الفرحة وأمسك بهذا الولد الشرير من أذنه . وجاءت آنا سيميونوفنا ركضا ، فقد كانت هى الاخرى تبحث عن كوليا ، وأمسكت بأذنه الثانية . كان ينبغي ان تروا اية متعة ارتسمت على وجهى العاشقين عندما راح كوليا يبكى ويضرع اليهما :

— يا أحبائى ، يا اعزائى ، لن اعود الى ذلك . آى ، آى ، سامحانى .

وبعد ذلك اعترفا بأنهما لم يشعرا ابدا طوال فترة حبهما بمثل هذه السعادة ، بمثل هذه المتعة الغامرة ، التى أحسا بها عندما كانا يشدان أذنى هذا الولد الشرير .

جهاز العروس

رأيت فى حياتى بيوتا كثيرة ، كبيرة وصغيرة ، حجرية وخشبية ، قديمة وجديدة ، ولكن واحدا منها هو الذى انطبع فى ذاكرتى بصفة خاصة . كان منزلا صغيرا ، من طابق صغير واحد وثلاث نوافذ ، يشبه الى حد كبير عجوزا حذباء صغيرة بقلنسوة . كان مطليا بالجير الابيض ، بسطح قرميدى ومدخنة متساقطة الطلاء ، وكان غارقا كله فى خضرة اشجار التوت والاكاسيا والخور التى غرسها أسلاف واجداد اصحابه الحاليين . لم يكن يرى من وراء الخضرة . وعموما فلم تمنعه وفرة الخضرة هذه من ان يكون بيتا حضريا . ويقف فنائه الواسع فى صف واحد مع الافنية الاخرى ، الواسعة والخضراء ايضا ، ويدخل فى نطاق شارع موسكوفسكايا . وفى هذا الشارع لا تمر العربات ابدا ، ومن النادر ان يسير به احد .

وشيش النوافذ فى هذا البيت مغلق دائما ، فسكانه لا يحتاجون الى الضوء . انهم فى غنى عنه . والنوافذ لا تفتح ابدا ، لان سكان البيت لا يحبون الهواء المنعش . فالناس المقيمون دائما وسط اشجار التوت والاكاسيا واحراش الارقطيون لامبالون تجاه الطبيعة . المصطافون وحدهم هم

الذين حباهم الله القدرة على فهم جمال الطبيعة ، اما بقية البشرية فتغط في جهل عميق فيما يخص هذا الجمال . لا يقدر الناس ما لديهم من ثروة . ما نملكه لا نحافظ عليه ، بل والاكثر من ذلك ان ما تملكه اليد تزهد النفس . وحول المنزل جنة دنيوية : خضرة ، وطيور مغردة ، اما في المنزل فيا للأسف ! في الصيف يكون الجو فيه قائظا خانقا ، وفي الشتاء حارا كما في الحمام ، مكتوما ، ومملا ، مملا . . .

زرت هذا المنزل اول مرة منذ زمن بعيد ، زيارة واجب . . فقد جئت حاملا التحية من صاحب البيت العقيد تشيكماسوف الى زوجته وابنته . واذكر جيدا تلك الزيارة الاولى ، اذ يستحيل ان أنساها .

تصوروا امرأة صغيرة رخوة ، في حوالى الاربعين ، تنظر اليك برعب ودهشة وانت تدلف من المدخل الى الصالة . فأنت «غريب» ، ضيف ، «شاب» . . وفي هذا الكفاية لكى تثير الدهشة والرعب . وليس فى يدك هراوة او فأس او مسدس ، بل تبسم بود ، ولكنهم يلقونك بارتياح .

وتسألك بصوت متهدج امرأة كهلة ، فتعرف فيها صاحبة البيت تشيكماسوفا :

— من الذى يشرفنى ويسرنى ان أراه ؟

فتقول لها من انت ، وتشرح سبب مجيئك ، فتحل صيخة «آه» الفرحة المدوية واتساع العيون محل الرعب والدهشة . وتنتقل هذه «الآه» كالصدى من المدخل الى الصالة ، ومن الصالة الى غرفة الجلوس ، ومن غرفة الجلوس الى

المطبخ . . . وهكذا حتى القبو نفسه . وسرعان ما يمتلئ
البيت الصغير «بالآهات» الفرحة المتعددة النبرات . وبعد
حوالى خمس دقائق تجد نفسك جالسا فى غرفة الجلوس ،
على كنبه كبيرة وثيرة ساخنة ، وتسمع شارع موسكوفسكايا
وقد راح يتأوه كله .

فاحت رائحة مسحوق العثة وحذاء جديد من جلد
العنز كان ملفوفا فى منديل وموضوعا على مقعد بجوارى .
وعلى النوافذ نبات الجيرانيوم وستائر حقيرة من قماش الموسلين .
وعليها ذباب شبعان . وعلى الحائط صورة مطران مرسومة
بالزيت ومغطاة بزجاج احدى زواياه مكسورة . ومن المطران
يمتد عدد من الاجداد بوجوه غجرية صفراء ليمونية . وعلى
الطاولة كستبان وبكرة خيط وجورب حريمى لم تكتمل حياكته ،
وعلى الارض بترونات تفصيل وبلوزة سوداء بخيوط تسريح .
وفى الغرفة المجاورة امرأتان عجوزان بدا عليهما الاضطراب
والذهول وهما تلتقطان من الارض البترونات وقطع الاقمشة
القطنية . . .

وقالت تشيكماسوفا :

— عفوا ، عندنا فوضى فظيعة !

كانت تشيكماسوفا تتحدث معى وهى تتطلع شزرا
وبحرج الى الباب الذى كانوا لا يزالون خلفه يرفعون البترونات .
وكان الباب ايضا تارة ينفرج بحرج مقدار شبر ، وتارة
يوصد .

وقالت تشيكماسوفا مخاطبة الباب :

— حسنا ، وماذا تريدن ؟

فسأل صوت نسائى من وراء الباب :

— Où est mon cravatte, lequel mon père m'avait envoyé de Koursk? *

— Ah, est ce que, Marie, que... **

آه ، هل يمكن . . .

Nous avons donc chez nous un homme très peu connu par nous... ***

اسألى لوكيريا .

وقرأت فى عينى تشيكماسوفا المتضرجة من المتعة :
« انظر كيف نتحدث الفرنسية جيدا ! » .

وسرعان ما فتح الباب ، فرأيت فتاة طويلة نحيلة ،
فى حوالى التاسعة عشرة ، فى فستان طويل من الموسلين
وحزام مذهب ، اذكر انه كانت تتدلى منه مروحة صدفية .
دخلت الغرفة ، وجلست وتضرجت . فى البداية تضرج
أنفها الطويل المجذور قليلا ، ومن انفها انتقلت الحمرة
الى عينيها ، ومن عينيها الى صدغيها .

وقالت تشيكماسوفا بصوت منغم :

— ابنتى ! وهذا يا مانيتشكا هو الشاب الذى . . .

وتعرفت بها وأعربت عن دهشتى بصدد البتروناات
الكثيرة . وخفضت الام وابنتها بصرهما .

* أين ربطة عنقى التى أرسلها لى أبى من كورسك ؟

(بالفرنسية فى الأصل) . المغرب .

** آه ، هل يا ماريا . . . (بالفرنسية فى الأصل) . المغرب .

*** عندنا شخص لا نعرفه الا قليلا جدا . . . (بالفرنسية

فى الأصل) . المغرب .

وقالت الأم :

— فى عيد الصعود أقيمت هنا سوق . ونحن دائما نشترى من السوق قماشاً ، ونقضى السنة كلها فى خياطته حتى السوق التالية . اننا لا نخطط عند احد ابدا . فزوجى بيوتر سيميونتش لا يكسب كثيرا ، لذلك لا نسمح لانفسنا بالبذخ . نضطر الى الخياطة بأنفسنا .

— ولكن من لديكم يلبس كل هذه الثياب ؟ ألستما اثنتين فقط ؟

— آه . . وهل هذا يمكن لبسه ؟ هذا ليس للبس ! انه جهاز العروس !

فقالت الابنة وهى تتضرع :

— آه يا maman ماذا تقولين ؟ حضرته قد يظن بالفعل . . . لن أتزوج ابدا ! ابدا !
قالت ذلك ، بينما توقدت عيناها وهى تنطق كلمة «أتزوج» .

ثم جاءوا بالشاي والخبز المقدد والمربى والزبد ، وبعد ذلك أطعمونى توت العليق بالقشدة . وفى الساعة السابعة مساء قدموا العشاء من ستة أطباق . واثناء العشاء سمعت ثأؤبا عاليا . . ففى الغرفة المجاورة ثأب احد ما بصوت عال . ونظرت الى الباب بدهشة ، اذ لا يمكن أن يثأب هكذا الا رجل .

وأوضحت تشيكماسوبا وقد لاحظت دهشتى :

— هذا أخو بيوتر سيميونتش . . يجور سيميونتش . . انه يعيش معنا من العام الماضى . اعذره ، فهو لا يستطيع الخروج لمقابلتك . . انه خجول . . يتجنب الغرباء . . ينوى

الاعتزال فى دير . . اساءوا اليه فى الخدمة . . ولهذا قرر من
الأسى . . .

وبعد العشاء أرتنى تشيكما سوفيا وشاحا طرزه يجور سيميونتش
بنفسه ، لكنى يتبرع به للكنيسة . وطرحت مانيتشكا عنها
الخجل لحظة وأرتنى كيس تبغ طرزه لأبيها . وعندما تظاهرت
بأننى مبهور بمهارتها تضرجت وهمست فى أذن أمها بشيء
ما . فتهللت أسارير الأم وعرضت علي ان اذهب معها
الى غرفة المخزن . وهناك رأيت حوالى خمسة صناديق كبيرة
وكثرة من الصناديق الصغيرة والعلب .
وهمست لى الأم :

— انه . . . جهاز العروس ! خيطناه بأنفسنا .
وبعد ان تفرجت على هذه الصناديق الجهمة رحت
أودع اصحاب الدار الكرماء . واخذوا على عهدا . بأن أزورهم
مرة اخرى فى وقت ما .

وقد أوفيت بعهدى هذا بعد حوالى سبع سنوات من
زيارتى الاولى ، عندما أرسلت الى هذه المدينة كخبير قانونى
فى احدى القضايا . وعندما دلفت الى البيت المألوف سمعت
نفس الآهات . . . وعرفونى . . وكيف لا ! لقد كانت زيارتى
الاولى حدثا كبيرا فى حياتهم ، وحيث تكون الاحداث
قليلة تبقى فى الذاكرة طويلا . وعندما دخلت قاعة الجلوس
رأيت الام ، التى اصبحت اكثر بدانة وأبيض شعرها ،
ترحف على الارض وهى تفصل قماشاً أزرق ، وكانت الابنة
جالسة على الكنبه تطرز . نفس البترونات ، ونفس رائحة
مسحوق العثة ، ونفس اللوحة بزاويتها المكسورة . ومع ذلك
كان هناك بعض التغيير . فبحوار صورة المطران علق صورة

بيوتر سيميونتش ، وارتدت السيدات ثياب الحداد . لقد مات بيوتر سيميونتش بعد اسبوع من ترقيته الى رتبة جنرال . وبدأت الذكريات . . . وأجهشت زوجة الجنرال وهي تقول :

— حلت بنا فاجعة كبيرة ! بيوتر سيميونتش — هل تعلم ؟ — لم يعد على قيد الحياة . أصبحنا انا وهي يتامى ، وعلينا ان نعنى بشئوننا بأنفسنا . اما يجور سيميونتش فلا نستطيع ان نقول عنه أى شىء طيب . لم يقبلوه فى الدير بسبب . . . مشروباته القوية . والآن أصبح يشرب أكثر من جراء الحزن . اننى انوى الذهاب الى رئيس النبلاء للشكوى . تصور انه فتح الصناديق عدة مرات و . . . استولى على جهاز مانيتشكا وتبرع به للسائلين . بدد محتويات صندوقين ! واذا استمر الحال هكذا فستبقى ابنتى مانيتشكا بدون جهاز اطلاقا . . .

فقالت مانيتشكا وهي تشعر بالخجل :

— ماذا تقولين يا maman ! حضرته قد يتصور الله يعلم ماذا . . . انا لن اتزوج ابدا ، ابدا ! وتطلعت مانيتشكا الى السقف بالهام وأمل ، ويبدو انها لم تكن تؤمن بما تقوله . وفى المدخل مرق ظل لرجل صغير بصلعة كبيرة وفى سترة بنية ، ينتعل خفا بدلا من الحذاء ، وخشخش هناك كالفار .

وقلت لفسى : «لا بد انه يجور سيميونتش» . ونظرت الى الأم وابنتها معا . لقد هرمتا كلتاهما بشدة وهزلتا . وتموجت رأس الأم بلون فضى ، اما ابنتها فانطفأ

لونها وذهبت ، وبدا وكأن الأم لا تكبرها الا بخمس سنوات
لا أكثر .

— اننى أنوى الذهاب الى رئيس النبلاء — قالت العجوز
وقد نسيت انها تحدثت عن ذلك من قبل — أريد ان
اشتكى له ! يجوز سيميونتش يستولى منا على كل ما نخطه ،
ويتبرع به فى مكان ما للتكفير عن ذنوبه . ابنتى مانيتشكا
أصبحت بدون جهاز !

وتضرجت مانيتشكا ولكنها لم تنبس بكلمة .
— نضطر الى خياطة كل شىء من جديد ، ونحن
والله يعلم لسنا اغنياء . انا وهى يتامى !
وردت مانيتشكا :

— نحن يتامى !
فى العام الماضى القت بى المقادير مرة اخرى الى
البيت المعهود . وعندما دلفت الى غرفة الجلوس رأيت العجوز
تشيكما سوف . كانت جالسة على الكنبه تخط شيئا ما ،
وكانت ترتدى فستانا اسود بحواشى الحداد . وجلس بجوارها
رجل عجوز فى سترة بنية وخف بدلا من الحذاء . وعندما
رأى قفز واقفا وركض خارجا من الغرفة .
وابتسمت العجوز ردا على تحيتى وقالت :

— Je suis charmée de vous revoir, monsieur. *

وسألتها بعد قليل :
— ماذا تخطين ؟

* سعيدة جدا برؤيتكم ثانية يا سيدى (بالفرنسية فى الأصل) .
المعرب .

فقلت هامة :

— هذا قميص . سأخيطه واحمله الى أبينا لأخبئه
عنده ، والا أخذه يجور سيميونتش . أصبحت الآن اخبى
كل شيء عند أبينا . . .
ثم نظرت الى صورة ابنتها الموضوعة امامها على الطاولة ،
وتنهدت ثم قالت :
— اننا يتامى !

ولكن اين ابنتها ؟ اين مانيتشكا ؟ لم أسألها . لم
أشأ ان أسأل هذه العجوز المجللة بسواد الحداد . وطوال
مكوثي في البيت واثناء انصرافي لم تخرج مانيتشكا للقاءى ،
ولم أسمع لا صوتها ولا خطواتها الخافتة الوجلة . . . كان
كل شيء واضحا ، وتملكنى انقباض شديد .

ابنة ألبون

اقتربت من دار الاقطاعى جريابوف عربة رائعة ذات عجلات من المطاط وحوذى سمين ومقعد من المخمل .
وقفز من العربة رئيس نبلاء الناحية فيودور أندريتش أتسوف .
وفى المدخل استقبله خادم نعان .

وسأل رئيس النبلاء :

— السادة فى البيت ؟

— لا يا سيدى . السيدة ذهبت مع الاولاد فى زيارة ، اما السيد فذهب مع الموزموزيل المربية لصيد السمك .
منذ الصباح .

وقف أتسوف قليلا وفكر ، ثم توجه الى النهر لبحث عن جريابوف . ووجده على بعد فرسخين من البيت حين اقترب من النهر . وعندما تطلع أتسوف من الشاطئ المرتفع الى اسفل ورأى جريابوف ندت عنه ضحكة . . . فقد كان جريابوف ، وهو رجل ضخم ، ذو رأس كبير جدا ، جالسا على الرمل متربعا على الطريقة التركية ، يصطاد السمك .

* ألبون — اسم قديم لانجلترا . المغرب .

وكانت فبعته منزله على ففاه ، ومالت ربطة عنقه جابا .
وبجواره وقفت انجليزية طويلة نحيفة بعينين جاحظتين كعيني
سرطان البحر وانف كبير كمنقار الطيور ، يبدو اشبه بالشخص
منه بالانف . وكانت ترتدى فستانا أبيض من الموسلين بدت
من خلال نسيجه الشفاف بوضوح كتفاها الصفراوان النحيلتان .
ومن حزامها الذهبى تدلت ساعة ذهبية . وكانت هى ايضا
تصطاد . ومن حولهما خيم صمت كصمت القبور . كانا
كلاهما ساكنين كالنهر الذى طفت عليه عوامتا سنارتيهما .
وضحك أتسوف قائلا :

— الرغبة كبيرة والنتيجة مريرة . . مرحبا يا ايفان كوزميتش .
فقال جريابوف دون ان يحول عينيه عن الماء :
— آه . . أهو انت ؟ وصلت ؟

— كما ترى . . وانت ما زلت تزاول التفاهات !
لم تتخل عنها بعد ؟

— يا للشيطان . . . طول النهار أصيد ، منذ الصباح .
الصيد اليوم سيئ لا أدرى لماذا . لم اصطد شيئا لا
انا ولا هذه البعبع . نجلس ونجلس ولا نمسك حتى بشيطان
واحد . . كارثة !

— ابصق على ذلك ، هيا نشرب فودكا !
— انتظر . . ربما اصطدنا شيئا . قرب المساء يتحسن
الصيد . . اننى جالس هنا يا أخى منذ الصباح ! ملل
فطيع لا استطيع ان اصفه لك . يا للشيطان الذى جعلنى
اتعلق بهذا الصيد ! اننى أعرف انه هراء ، ومع ذلك اجلس !
اجلس مثل أحد الاوغاد ، مثل المحكوم بالاشغال الشاقة ،
وأحرق فى الماء كالأحمق ! ينبغى ان اذهب للمحصد

ولكنى اصيد السمك . بالامس فى خابونيفو أقام البطريق
قداسا ولم أذهب ، بل جلست هنا مع هذه الحفشة . .
مع هذه الشيطانة . . .

— ما هذا . . هل جنت ؟ — قال أتسوف بخجل
وهو ينظر ناحية الانجليزية . — تسب فى حضرة سيدة . .
بل وتسبها هى . . .

— فلتذهب الى الشيطان ! سيان ، فهى لا تفقه
حرفا بالروسية . سواء بالنسبة لها ان تمدحها ام تسبها !
انظر الى أنفها ! انه وحده يجعلك تسقط فاقد الوعي !
نجلس اياما طويلة معا فلا تتفوه بكلمة ! تقف كفزاعة
الطيور ، وتبخلق فى الماء بعيونها الجاحظة .
تثاءبت الانجليزية وغيرت الطعم ، ثم القت بالسنارة
فى الماء .

ومضى جريابوف يقول :

— اننى ادهش كثيرا يا أخى . تعيش فى روسيا منذ
عشر سنوات ولا تعرف كلمة واحدة بالروسية ! . . بينما يذهب
اى اقطاعى صغير من عندنا اليهم وعلى الفور يبدأ يرطن
بلغتهم . . اما هم فالشيطان يدري ما هذا ! انظر الى أنفها !
الى أنفها انظر !

— حسنا ، كفاك . . هذا محرج . . ماذا فعلت
هذه المرأة حتى تنهال عليها ؟

— انها ليست امرأة بل آنسة . . لا بد انها تحلم
بالعرسان هذه الدمية الملعونة . . وتفوح منها رائحة عطن . .
كم امقتها يا أخى ! لا استطيع ان انظر اليها دون انفعال !
ما ان تحديق فى بعينيهما الكبيرتين حتى ينتفض بدننى كله

كان مرفقى ارتطم بالدرابزين . انها ايضا تحب صيد السمك .
انظر : انها تصطاد وتتعبد ! وتنظر الى كل شىء باحتقار . . .
تقف هذه الماكرة وتحس نفسها انسانا ، اى سيد الطبيعة .
فهل تدرى ما اسمها ؟ ويلكا تشارلزوفنا تفايس ! تفو . .
لا يمكن نطقه !

وعندما سمعت الانجليزية اسمها حولت أنفها ببطء
صوب جريابوف وقاسته بنظرة احتقار . ورفعت عينيها عن
جريابوف الى أتسوف وغمرته بالاحتقار ايضا . وجرى كل
ذلك فى صمت وعظمة وبطء .
فقال جريابوف وهو يقهقه :

— هل رأيت ؟ كأنها تقول : ها كم ! آه أيتها
البيع ! اننى لا أبقي على هذه الدودة الا من اجل الاطفال .
ولولا هم لما سمحت لها بالاقتراب من ضيعتى لعشرة فراسخ . .
أنفها بالضبط كمنقار الصقر . . وخصرها ؟ هذه الدمية تذكرنى
بمسمار طويل . أود لو أمسكتها ودققتها فى الارض . مهلا . .
يبدو ان سنارتى تغمز . . .

وقفز جريابوف وشد السنارة . وتوتر الخيط . . . وشدها
جريابوف مرة اخرى فلم يخرج الشص .
فقال وهو يتأفف :

— يا للشيطان ! اشتبكت ! يبدو اشتبكت بحجر . . .
وارتسمت المعاناة على وجه جريابوف . وراح يزفر
ويتحرك بقلق وهو يدمدم باللعنات ويشد الخيط . ولكن
الشد لم يعد بنتيجة . وامتقع جريابوف ، وقال :
— يا للأسف ! ينبغى ان انزل الى الماء .
— دعك من هذا !



— لا يمكن . . . قرب المساء يتحسن الصيد . . . يا لها من مهزلة ، فليسامحنى الله . سأضطر الى نزول الماء ، سأضطر ! وآه لو تعلم كم اننى لا أود نزع ثيابى ! يجب ان نطرد الانجليزية . . . من المحرج ان أخلع ملابسى امامها . فهى مع ذلك سيدة !

ونزع جريابوف القبعة وربطة العنق . وقال مخاطبا الانجليزية :

— يا ميس ، — — — يا ميس تفـايس . . . جى فو برى * . . . كيف أوضح لها ؟ كيف أقول لك لكى تفهمى ؟ اسمعى . . . الى هناك ! اذهبى الى هناك ! أتسمعين ؟

وغمرت ميس تفـايس جريابوف بالاحتقار وصدر عنها صوت أنفى .

— ماذا ؟ لا تفهمين ؟ أقول لك امشى من هنا ! أريد ان اخلع ملابسى ايتها المصيبة ! امشى الى هناك ! الى هناك !

وشد جريابوف الميس من ذراعها وأشار لها الى الخمائل وجلس ، يريد بذلك ان يقول لها : اذهبى الى الخمائل واختبئى هناك . . . ولعبت الانجليزية حاجبيها بحيوية وقالت بسرعة جملة انجليزية طويلة . وانفجر الاقطاعيان ضاحكين .

— هذه اول مرة فى حياتى اسمع صوتها . . . يا له من صوت ! انها لا تفهم ! ماذا أفعل معها ؟

* من الفرنسية : Je vous pris — ارجوك . . . المعرب .

— دعك منها ! هيا بنا نشرب فودكا !
— لا يمكن . . . الصيد الآن سيكون أحسن . . . في
المساء . . . ولكن ما العمل ؟ يالها من مهزلة ! سأضطر
ان اخلع ملابسى فى حضورها . . .
والقى جريابوف بالسترة والصدىرى ، وجلس على الرمل
ليخلع حذاءه .
فقال رئيس النبلاء وهو يكتم ضحكته فى قبضته :
— اسمع يا ايفان كوزميتش ، ان هذا يا صديقى
تهكم ، امتهان .
— لم يطلب منها أحد الا تفهم . فليكن درسا
لهم ، لهؤلاء الأجانب !
نزع جريابوف حذاءه ، وتجرد من ملابسه الداخلية
وأصبح كما ولدته أمه . وأمسك أتسوف ببطنه واحمر من
الضحك والخبجل . ولعبت الانجليزية حاجبيها وطرفت
عينها . . . وعلى وجهها الاصفر طافت ابتسامة احتقار متعالية .
وقال جريابوف وهو يربت على فخذه :
— ينبغي ان أبرد جسمى قليلا . قل لى يا فيودور
أندريتش من فضلك ، لماذا يظهر الطفح على صدرى كل
صيف ؟
— اسرع بالنزول يا حيوان ، او استر نفسك بشيء !
فقال جريابوف وهو ينزل الى الماء راسما علامة الصليب :
— لو انها تخجل هذه الفاجرة ! . . . برر . . . الماء
بارد . . . انظر كيف تلعب حاجبيها ! ولا تبتعد . . . تتعالى
على الغوغاء ! هى-هى-هى . . . لا تعتبرنا بشرا !
وعندما غاص فى الماء الى ركبتيه ، شد قامته الهائلة

وغمز بعينه قائلاً :

— دعها تعلم يا أخى اننا لسنا فى انجلترا !
وغيرت ميس تفاميس الطعم ببرود ، وتشاءبت ، والقى
بالسنارة . وحول أأسوف نظره . وفك جريابوف الشص المشتبك
وغطس فى الماء ، ثم خرج وهو يشهق ، وبعد دقيقتين
كان جالسا على الرمل يصطاد من جديد .

البدين والنحيف

فى محطة سكة حديد نيقولاى التقى صاحبان :
احدهما بدين والآخر نحيف . كان البدين قد تغدى لتوه
فى المحطة ولمعت شفاته من الدهن كما تلمع ثمار الكرز
الناضجة . وفاحت منه رائحة النيذ والحلويات المعطرة .
أما النحيل فكان خارجا لتوه من عربة القطار محملا بالحقائب
والصرر وعلب الكرتون . وفاحت منه رائحة لحم الخنزير
والقهوة الرخيصة . ولاحت من وراء ظهره امرأة نحيفة طويلة
الذقن . . زوجته ، وتلميذ طويل بعين مزرورة . . ابنه .
وهتف البدين عندما رأى النحيف :

— بورفيرى ! أهو أنت ؟ يا عزيزى ! كم مر من
أعوام لم أرك !

ودهش النحيف :

— يا سلام ! ميشا ! يا صديق الطفولة ! من

أين جئت ؟

وتبادل الصاحبان القبلات ثلاثا ، وحقق كل منهما
فى الآخر بعينين مغرورقتين بالدموع . وكانا كلاهما فى حالة
من الدهول اللذيد .

وقال النحيف بعد القبلات :

— يا عزيزى ! لم اتوقع ابدا ! يالها من مفاجاة !
هلا نظرت اليّ جيدا ! جميل كما كنت ! حبوب وغندور
كما كنت ! آه يا الهى ! كيف أحوالك ؟ أصبحت غنيا ؟
تزوجت ؟ انا تزوجت كما ترى . . وهذه زوجتى ، لويزا . .
من عائلة فانسناخ . . . بروتستانتية . . اما هذا فابنى ،
نفانائيل ، تلميذ بالصف الثالث . يا نفانيا ، هذا صديق
طفولتى ! درسنا معا فى المدرسة .

وفكر نفانائيل قليلا ثم نزع قبعته .
ومضى النحيف يقول :

— درسنا معا فى المدرسة ! اذكر كيف كانوا يغيظونك ؟
بلقب هيروستراتوس لأنك احرق بالسيجارة كتاب عهدة ،
وكانوا يغيظوننى بلقب افيالتوس لأننى كنت أحب النميمة .
ها — ها . . كم كنا صغارا ! لا تخف يا نفانيا . . . اقترب
منه . . . وهذه زوجتى ، من عائلة فانسناخ . . . بروتستانتية .
وفكر نفانائيل قليلا ، ثم اختبأ خلف ظهر أبيه .
وسأل البدين وهو ينظر باعجاب الى صديقه :
— كيف حالك يا صديقى ؟ أين تخدم ؟ وماذا
بلغت فى الخدمة ؟

— اخدم يا عزيزى ! بلغت محكم هيئة * منذ
سنة واحمل وسام ستانسلاف . الراتب سيئ . . فليكن !
زوجتى تعطى دروسا فى الموسيقى ، وأنا أصنع علب سجائر
من الخشب . علب ممتازة ! ابيعها الواحدة بروبل . ومن

* رتبة مدنية من الدرجة الثامنة فى روسيا القيصرية . المغرب .



يشترى عشر علب او أكثر اقدم له خصما . ندبر امورنا
كيفما كان . اتدري ، كنت أخدم في الادارة ، وقد نقلت
الى هنا الآن كرئيس قسم تبع نفس الوزارة . . . سوف أخدم
هنا . وانت ، كيف ؟ اظنك بلغت مستشار دولة ؟ هه ؟
فقال البدين :

— لا يا عزيزي ، بل أعلى . . لقد بلغت المستشار
السري * . . أحمل نجمتين .

وفجأة أمتقع النحيف ، وتجمد ، ولكن سرعان ما
التوى فمه فى جميع الاتجاهات ليصنع ابتسامة عريضة
للغاية . وبدا وكأن الشرار قد تطاير من وجهه وعينيه .
اما هو فانكمش وتحذب وضاق . وانكمشت حقايبه وصرره
وعلبه وتجعدت . . . واستطال ذقن زوجته الطويل . وشد
نفائيل قامته وزرر جميع ازرار سترته . . .

— اننى يا صاحب السعادة . . . مسرور جدا ! صديق
الطفولة ، يعنى ، واذا به يصبح من السادة الأكابر !
هىء — هىء .

فامتعض البدين وقال :

— دعك من هذا ! ما هذه النبوة ؟ اننا اصدقاء
الطفولة ، فما معنى عبادة الألقاب هذه !
فضحك النحيف ضحكة صفراء وازداد انكماشا :
— العفو . . ماذا تقولون . . ان اهتمام سعادتكم

* رتبة مدنية عالية فى روسيا القيصرية تعادل رتبة اللواء .

المعرب .

الكريم . . . هو كالبلسم الشافي . . . هذا هو ابني نفانائيل
يا صاحب السعادة . . . وزوجتي لوزا ، بروتستانتية الى درجة
ما . . .

واراد البدين أن يعارض بشيء ما ، ولكن وجه النحيف
كان يطفح بالتبجيل والتعبير المعسول والخنوع الى درجة اثارت
الغثيان في نفس المستشار السرى . فأشاح بوجهه عن النحيف
ومد له يده مودعا .

وصافح النحيف ثلاث أصابع وانحنى بجسده كله
وضحك كالصيني : «هيء — هيء — هيء» . وابتسمت
الزوجة . ومسح نفانائيل الأرض بقدمه وسقطت منه القبعة .
وكانوا ثلاثتهم في حالة من الدهول اللذيذ .

دموع لا يراها العالم

— آه يا سادة يا كرام لو نتعشى الآن . . .
قال القائد العسكرى المقدم ريبروتيسوف ، وهو رجل
طويل نحيف كعمود البرق ، وكان خارجا من النادى مع
جماعة من أصحابه ذات ليلة مظلمة من شهر أغسطس .
ومضى يقول :

— فى المدن المحترمة ، مثل ساراتوف ، يمكنك
دائما أن تتعشى فى النادى ، أما هنا ، فى مدينتنا العفنة
تشيرفيانسك ، فبخلاف الفودكا والشاى بالذباب لا تحصل
على شىء . ليس هناك ما هو اسوأ من أن تشرب ولا تجد
ما تمر به !

— نعم ، لا بأس الآن بشىء ما ، هكذا يعنى . . . — أمّن
مفتش المعهد الدينى ايفان ايفانيتش دفويتوتشيف وهو يلتف
بمعطفه الأصفر اتقاء للريح — الساعة الآن الثانية ، والحانات
مغلقة ، آه لو يعنى فسيخة مملحة . . أو فطر مخلل . .
أو يعنى شىء ما هكذا . . .

وحرك المفتش اصابعه فى الهواء ، ورسم على وجهه
أكلة ، يبدو أنها شهية جدا ، لأن كل من نظروا الى وجهه
لعقوا شفاههم . وتوقفت الجماعة عن السير وأخذت تفكر .

وفكرت طويلا ، ولكن تفكيرها لم يفتق عن شيء يؤكل .
واضطرت الى الاكتفاء بالأحلام فقط .

وتنهذ نائب مأمور المركز بروجينا — بروجينسكى وقال :
— يا له من ديك رومى عظيم ذلك الذى أكلته
بالأمس عند جولوبيسوف . . . بالمناسبة يا سادة ، ألم يزر
أحد منكم وارسو ؟ هناك يفعلون هكذا . . يأخذون سمك
الشبوط العادى ، وهو حي . . يتلوى ، ويلقون به فى اللبن . . .
ويظل هذا الوغد يعم فى اللبن يوما ، وبعد ذلك يغمسونه
فى القشدة ويقلونه فى مقلاة تطشطش . . وعند ذلك لا
حاجة يا أخى لأناسك ! أى والله . . خاصة اذا شربت
كأسا أو كأسين . . تأكل ولا تحس . كأنك فى غيبوبة . . .
الرائحة وحدها تجنن ! . .

فأردف ريبروتيسوف بنبرة مشاركة قلبية :

— فاذا اضفت اليه خيارا مملحا . . . عندما كنا
معسكرين فى بولندا كان يحدث أن تحشر فى جوفك حوالى
المائتين من البيلمينى مرة واحدة . . . تملأ بها طبقا كاملا ،
وترش عليها الفلفل والشبت والبقدونس و . . . لا أستطيع
ان أعبر لكم !

وتوقف ريبروتيسوف فجأة واستغرق فى التفكير . تذكر
حساء السمك الذى أكله عام ١٨٥٦ فى دير الثالوث الأقدس .
وكانت ذكرى هذا الحساء لذيدة الى درجة ان القائد العسكرى
شم فجأة رائحة السمك وحرك فكيه لا اراديا ولم يلحظ
تسرب الوحل الى خف حذائه .

وقال :

— كلا ، لا أستطيع ، لا أستطيع أن أصبر أكثر !

سأذهب إلى البيت وأمنع نفسي . . . اسمعوا يا سادة ، فلما نزل
معي ! أي والله ! لنشرب كأسا ، ونمزمز بما رزقنا به الله .
خيار ، مرتدلة . . . ونشعل السماور . . . هه ؟ لنمزمز ، ونتحدث
عن الكوليرا ، ونتذكر ما مضى . . . زوجتي نائمة الآن ،
لن نوقظها . . . سنجلس في هدوء . . . هيا بنا !
ولا حاجة لوصف الاعجاب الذي قوبل به هذا العرض .
يكفى فقط أن أقول أنه لم يكن لدى ريبورتوسوف في أي
وقت مضى مثل هذه الكثرة من الخيرين كما كان لديه
في هذه الليلة .

— سأقطع أذنيك . . . — قال القائد العسكري لجندى
المراسلة وهو يدخل بالضيوف إلى غرفة الجلوس المظلمة —
قلت لك ألف مرة يا حيوان أن تشعل البخور عندما تنام في
المدخل . اذهب يا غبي واشعل السماور ، وقل لآيرينا
أن تحضر الـ . . . أن تحضر من القبو خيارا وفجلا . . . ونظف
بعض الفسيخ . . . وقطّع بصلا أخضر ورش عليه شبتا هكذا . . .
يعنى . . . وقطّع البطاطس دوائر . . . والبنجر أيضا . . . وكل هذا
صب عليه الخل والزيت ، يعنى ، والمسطردة أيضا . . .
ورش الفلفل فوقه . . . باختصار طبق مزة . . . مفهوم ؟
وحرك ريبورتوسوف أصابعه مصورا الخلطة ، وأضاف
إلى المزة بتعابير وجهه ما لم يستطع أن يضيفه بالكلمات . . .
ونخلع الضيوف أخفافهم ودلفوا إلى القاعة المظلمة . وأشعل
صاحب البيت عود ثقاب ففاحت رائحة الكبريت ، وأضاء
الجدران المزينة بهدايا مجلة «نيفا» ومناظر البندقية وصورتين
للكاتب لاجيتشنيكوف وجنرال ما بعينين مدهوشتين للغاية .
— حالا ، حالا . . . — همس رب الدار وهو يوسع

المنضدة بهدوء . — ساعد المائدة ثم نجلس . . . ماشا زوجتى
مريضة اليوم . . . ارجو المعذرة اذن . . . عندها مرض نسائى
ما . . . الدكتور جوسين يقول ان ذلك بسبب أكل الصيام . .
جائز جدا ! ولكنى أقول لها : «يا روجي ، ليست المسألة
فى الأكل ! ليست المسألة فيما يدخل الفم بل فيما يخرج
من الفم . . . فأنت تأكلين أكل الصيام ، ولكنك عصبية
كما كنت . . . وبدلا من أن تتعبى جسدك ، الأفضل ألا
تغضبى ، وألا تتفوهى بكلمات . . . » ولكنها لا تريد حتى
أن تسمع ! تقول : «لقد تعودنا على ذلك منذ الصغر» .
ودخل جندي المراسلة ، ومد عنقه ، وأسر بشيء ما
فى أذن رب الدار . . . ولعب ريبروتىوسوف حاجبيه . . .
ودمدم بصوت كالخوار :

— هم . . . نعم . . . هم . . . هكذا . . . عموما بسيطة . .
حالا سأعود . . . دقيقة واحدة . . . ماشا أوصدت القبو والخزائن
فى وجه الخدم واخذت المفاتيح . . . ينبغى أن اذهب
لاحضارها . . .

وصعد ريبروتىوسوف على اطراف أصابعه ، وفتح الباب
بهدوء ، ودخل على زوجته . . . كانت نائمة .
وقال وهو يقترب بحذر من السرير :

— يا ماشا ! استيقظى دقيقة واحدة يا ماشا !

— من ؟ أهو أنت ؟ ماذا تريد ؟

— أنا يا ماشنكا بخصوص الـ . . . اعطينى يا ملاكى

المفاتيح ولا تقلقى . . . نامى مطمئنة . . . أنا سأهتم بهم . .
سأعطى كلا منهم خيارا ، ولن أبدد أكثر من ذلك شيئا . .
اقسم لك . . . هناك دفويتوتشيف ، اتدرين ، وبروجينا —

بروجينسكى واخرون . . . كلهم اشخاص رائعون . . . محترمون
فى المجتمع . . . أتدرين بروجينسكى يحمل وسام فلاديمير
من الطبقة الرابعة . . . أوه ، كم يحترمك . . .
— أين سكرت الى هذا الحد ؟

— ها أنت تغضبين . . . يا سلام عليك . . . سأعطى
كلا منهم خياراً ، وهذا كل شىء . . . وسينصرفون . . . أنا
سأهتم بهم ولن نزعجك ابداً . . . نامى يا لعبتى . . . هه ،
وكيف صحتك ؟ هل جاء جوسين فى غيابى ؟ انظرى ،
ها انذا أقبل يدك . . . والضيوف كلهم ، كم يحترمونك . . .
دفويتوتشيف رجل متدين ، أتدرين . . . وبروجينا ، والصراف
أيضاً . . . كلهم يكونون لك أطيب المشاعر . . . يقولون :
«ماريا بتروفنا ليست امرأة بل شىء عسير على الفهم . . .
انها كوكب اقليمنا» .

— ارقد ! كفاك هدرا ! يسكر هناك فى النادى مع
صعاليكه ثم يروح يغلى طول الليل ! الا تخجل ! عندك
أولاد !

— أنا . . . عندى أولاد ، ولكن أرجوك الا تغضبى
يا ماشا . . . لا تحزننى . . . اننى اقدرك وأحبك . . . والأولاد
ان شاء الله سادبر أمورهم . . . ميتيا سأدخله المدرسة . . . لا
استطيع أن اطردهم . . . لا يليق . . . جاءوا ورائى وطلبوا
أن يتعشوا . قالوا : «نريد أن نأكل ، اطعمنا» . . . دفويتوتشيف
وبروجينا — بروجينسكى . . . ناس ظرفاء جدا . . . كم يقدرونك
ويعطفون عليك . . . فلنعط كلا منهم خياراً ، وكأساً ، وليمضوا
فى سبيلهم . . . أنا سأتكفل بهم . . .
— اللعنة ! ماذا ، هل جنت ؟ أى ضيوف فى

هذه الساعة ؟ الا يخلجون ، هؤلاء الشياطين المتسولون ،
يزرعجون الناس فى الليالى ! من سمع بضیوف یأتون فى
اللیل ؟ هل یظنون بیتنا حانة ؟ سأكون حمقاء لو أعطیتك
المفاتیح ! فلیفیعوا ولیعودوا غدا !

— هم . . . هلا قلت هذا من البداية . . . اذن لما
تذلت أمامك . . . اذن فأنت لست بشریكة العمر ، لست
سلوی زوجك كما جاء فى الكتاب ، بل . . . من العیب
أن أقول . . . كنت أفعی وظللت أفعی . . .

— آه . . . وتشتم أيضا یا وغد ؟
ونهضت الزوجة و . . . حكَّ القائد العسکرى خده ،
ومضى یقول :

— میرسى . . . صحیح ما قرأته فى احدى المجلات :
« بین الناس قدیس ، ومع زوجها إبلیس » . . . عین الحقیقة . . .
كنت إبلیس ، وظللت إبلیس . . .
— خذ ، خذ !

— اضربى ، اضربى . . . اضربى زوجك الوحید !
ولكنی أرجوك ، أتوسل الیک . . . یا ماشا . . . سامحینى !
اعطینى المفاتیح ! ماشا ، یا ملاکى ! یا معذبتى الشریره ،
لا تفضحینى أمام الناس ! ایتها المتوحشة ، الى متى
ستعذبینى ؟ اضربى . . . اضربى . . . أرجوك . . . بل اتوسل
الیک !

واستمر حدیث الزوجین بهذه الصورة طویلا . . . رقع
ریبروتیوسوف علی ركبته ، وبكى مرتین ، وسب وهو یحك
خده بین الحین والحین . . . وانتهى الأمر بأن نهضت زوجته
وبصقت وقالت :

— يبدو أن تكون نهاية لعذابى . أعطى فسائى
من على المقعد أيتها الكافر !
وقدم لها ريبورتوسوف الفستان بحرص ، وسوى شعره ،
وذهب الى ضيوفه . كان الضيوف واقفين امام صورة الجنرال
يتطلعون الى عينيه المندهشتين وهم يقررون مسألة : من
الاكبر ، الجنرال أم الكاتب لاجيتشنيكوف ؟ وكان دفويتوتشيف
فى صف لاجيتشنيكوف ، مشددا على الخلود . أما بروجينسكى
فقد قال :

— بالطبع هو كاتب جيد ، لا شك فى هذا . . .
ويكتب فيشير الضحك والشفقة ، ولكن لو ارسلته الى الجبهة
فلن يستطيع قيادة حتى سرية ، أما الجنرال فلتعطه ولو
فيلقا كاملا ، لن يهमे . . .
وقال رب الدار وهو يدخل مقاطعا :

— زوجتى ماشا ستأتى الآن . . . حالا . . .
— لقد ازعجناكم حقا . . . يا فيودور اكيमितش ،
ماذا حدث لخدك ؟ يا إلهى ، وتحت عينك كدمة !
أين حصلت على هذا ؟
فقال رب الدار محرجا :

— خدى ؟ أين خدى ؟ آه ، نعم . . . لقد ذهبت
الآن الى ماشا متسللا ، اردت أن أخيفها ، واذا بى
اصطدم فى الظلام بالسريير ! ها—ها . . . ها هى ماشا . . .
أوه كم أنت مشعثة يا عزيزتى ! مثل لويزا ميشيل تماما !
دخلت ماريا بتروفنا الى القاعة ، مشعثة الشعر ، نعسانة ،
ولكنها متهللة ومرحة . وقالت :

— هذا لطيف منكم اذ جئتم الينا ! اذا كنتم لا

تأتون إلينا فى النهار فشكرا لزوجى الذى جاء بكم ولو ليلا .
كنت نائمة ، واذا بى أسمع اصواتا . . فقلت لنفسى :
«يا ترى من هؤلاء ؟» . . . لقد أمرنى فيديا ان ارقد والا
اخرج ، ولكنى لم أطق . . .

وهرولت الزوجة الى المطبخ ، وبدأ العشاء . . .
وعندما خرجوا بعد ساعة من دار القائد العسكرى قال
بروجينا — بروجينسكى وهو يتنهد :

— ما أطيب أن تكون متزوجا ! تأكل عندما تريد ،
وتشرب وقتما تشاء . . . وتعلم ان هناك مخلوقا يحبك . . .
ويلعب لك على البيانو شيئا ما ، هكذا . . . ما أسعد
ريبروتيسوف !

اما دفويتوتشيف فلزم الصمت . كان يتنهد ويفكر .
وعندما وصل الى البيت وراح يخلع ملابسه ، تنهد بصوت
عال حتى أنه أيقظ زوجته .

— لا تدق بحذائك ايها الرحى ! — قالت زوجته . —
تمنعنى من النوم . يشرب حتى السكر فى النادى ثم يثير
الضجة ، هذا المسخ !

فتنهد المفتش قائلا :

— لا تعرفين سوى السباب ! لو انك رأيت كيف
يعيش آل ريبروتيسوف ! ما أروع حياتهم ! عندما ينظر
المرء اليهم يود لو يبكى من التأثر . أنا وحدى التعيس اذ
بليت بشمطاء مثلك . افسحى !

وتغطى المفتش بالبطانية ، ونام وهو يشكو فى سره
حظه البائس .

الحرباء

عبر ميدان السوق يسير مفتش الشرطة اتشوميلوف فى معطف جديد ويحمل فى يده لفافة . ومن خلفه يسير شرطى احمر الشعر ومعه غربال مملوء لحافته بشمار عنب الثعلب المصادرة . والسكون مخيم . . . ولا احد فى السوق . . . وتطل ابواب المتاجر والحانات المفتوحة على العالم بنظرة كابية كالاشداق الجائعة . ولا يوجد بجوارها حتى الشحاذون . وفجأة يسمع اتشوميلوف صوتا يقول :
— آه ، اذن فأنت تعض ايها الملعون . . امسكوه يا أولاد ! العض الآن ممنوع ! امسك ! . . آه ! . .
ويتردد عويل كلب . ويلتفت اتشوميلوف فىرى كلبا يركض من مخزن الحطب التابع للتاجر بتشوجين وهو يقفز على ثلاث ارجل ويتلفت . ويطارده شخص فى قميص من الشيت المنشى وصديرى مفتوح . يركض وراء الكلب ثم يسقط على الارض مادا جذعه الى الامام ويقبض على ساقى الكلب الخلفيتين . ويتردد من جديد عويل الكلب وصيحة : «امسكوه» . وتطل من المتاجر سحن ناعسة ، وسرعان ما يتجمع الناس بالقرب من مخزن الحطب وكأن الارض انشقت عنهم .

ويقول الشرطى :

— يبدو هنا اضطراب يا صاحب المعالى !
ويستدير اتشوميلوف نصف دورة الى اليسار متجها الى
الجمع . ويرى بجوار بوابة المخزن مباشرة الشخص المذكور
فى الصدىرى المفتوح وهو يرفع يده اليمنى ليرى الجمع
اصبعه المدماة . وكأنما كتب على سحنه الثملة : «سوف
أريك ايها الملعون» ، واصبعه نفسها تشبه علامة النصر .
ويتعرف اتشوميلوف فى هذا الرجل على الصائع خريوكين .
وفى وسط الجمع يجلس المتسبب فى هذه الضجة — جرو
صيد ابيض ذو انف حاد وبقعة صفراء على ظهره ، ماذا
ساقه الاماميتين ، وجسده كله يرتعش . وفى عينيه الدامعتين
نظرة حزن ورعب .

ويسأل اتشوميلوف وهو يقتحم الحشد :

— بأية مناسبة انتم هنا ؟ لماذا هنا ؟ وانت لماذا

اصبعك ؟ . . من الذى صاح ؟

ويشرع خريوكين فى الكلام وهو يتنحى فى

قبضته :

— كنت سائرا يا صاحب المعالى لا امس احدا . .

بخصوص الخطب مع ميتري ميتريتش . . . وفجأة اذا بهذا

الوغد ، ودون اى سبب ينهش اصبعى . . . ارجو المعذرة ،

فانا رجل ، يعنى ، من العاملين . . . وعملى دقيق . . .

فليدفعوا لى ، لانى ربما لا استطيع ان احرك هذه الاصبع

اسبوعا . . . ولا يوجد فى القانون يا صاحب المعالى ما ينص

على ان يتحمل الانسان هذه المخلوقات . . . فلو ان كل

واحد اخذ بعض ، فالأفضل الا يعيش الانسان على ظهر
الارض
فيقول اتشوميلوف بصرامة وهو يسعل ويحـرك
حاجبيه :

— هم ! حسنا . . . حسنا . . . كلب من هذا ؟
انا لن ادع ذلك هكذا ! سأريكم كيف تطلقون كلابكم !
آن أن نتبه الى اولئك السادة الذين لا يريدون ان يمثّلوا
للقوانين ! عندما يدفع الغرامة هذا الوغد سيعرف ما معنى
الكلاب وغيرها من الدواب الضالة ! سأريه العفاريت الزرق ! —
ويخاطب الشرطى — يلديرين ، اعرف كلب من هذا واكتب
محضرًا ! اما الكلب فينبغى اعدامه . فورًا ! لا بد أنه
مسعور . . . اننى اسألكم كلب من هذا ؟
ويقول شخص من الجمع :

— يبدو انه كلب الجنرال جيجالوف !

— الجنرال جيجالوف ؟ هم ! انزع عنى المعطف
يا يلديرين . . . اف ، يا للحر ! يبدو ان المطر سيسقط . . .
شيء واحد لا افهمه ، كيف استطاع ان يعضك — يقول
مخاطبا خريوكين — امن المعقول انه يطال اصبعك ؟ انه
صغير اما انت فانظر ما طولك ! يبدو انك جرحت اصبعك
بمسمار ، وخطرت لك فكرة ان تحصل على تعويض . . .
انتم هكذا . . . اعرفكم ايها الشياطين !

— يا صاحب المعالى ، كان يلسعه بالسيجارة فى
وجهه ليضحك عليه ، فلم يكذب الكلب خبـرا
وعضه . . . انه شخص مشاكس يا صاحب
المعالى !



— كذاب يا اخوان ! انت لم تر سينما فلما اذا تكذب !
ان معاليه سيد ذكى ويعرف من الكذاب ومن الشريف النقى
الضمير امام الله . . . واذا كنت اكذب فليحكم القاضى . . .
فلديه مكتوب فى القوانين . . . الجميع الآن سواسية . . .
وانا لى اخ فى الدرك ، اذا اردت ان تعلم . . .

— ممنوع الكلام !

ويقول الشرطى بنبرة تأمل عميق :
— كلا ، هذا ليس كلب الجنرال . ليس لدى
الجنرال كلاب كهذه . . . كلابه اكثرها سلوقية . . .
— هل انت متأكد ؟

— متأكد يا صاحب المعالى . . .
— انا نفسى اعرف ذلك . كلاب الجنرال غالية ،
أصيلة ، اما هذا . . . فالشيطان يعلم ما هو ! لا شعر
ولا هيئة . . . مجرد حقارة لا غير . أهذا كلب يقتنى ؟ !
اين عقولكم ؟ لو ان كلبا كهذا ظهر فى بطرسبرج او
موسكو ، اتعلمون ماذا كان يحدث ؟ ما كان احد ليلتفت
الى القانون ، بل على الفور ولا كلمة ! هس ! انت يا
خربوكين قد تضررت ولا تدع الامر يمر هكذا . . . ينبغى
ان نؤدبهم . . . آن الاوان !

ويقول الشرطى وهو يفكر بصوت مسموع :
— وربما كان كلب الجنرال . . . فليس مكتوبا
على سحته . . . رأيت من مدة كلبا مثله فى فناء
منزله .

ويقول صوت من الحشد :
— واضح ، كلب الجنرال !

— هم ! البسنى المعطف يا يلديرين . . . يبدو ان
النسيم يهب . . . لقد بردت . . . احمله الى الجنرال واسأل
هناك . قل لهم اننى وجدته وارسلته . . . وقل لهم ايضا
الا يخرجوه الى الشارع . . . فهو كلب ربما غال ، واذا
اخذ كل خنزير يلسعه بالسيجارة فى وجهه فمن السهل اتلافه . .
الكلب حيوان مهم . . . وانت ايها الغبى انزل ذراعك !
كفاك ابرازا لاصبعك الحمقاء ! انت المذنب ! . .
— ها هو طباخ الجنرال قادم ، فلنسأله . . . إى ،
يا بروخور . . . تعال هنا يا عزيزى . . . انظر الى هذا الكلب . . .
اهو كلبكم ؟

— يا سلام ! لم يكن لدينا ابدا كلاب مثله !
فيقول اتشوميلوف :
— ليس هناك داع للسؤال . . . هذا كلب ضال !
لا داع للكلام الكثير . . . اذا قلت انه ضال فهو ضال . . .
ينبغى اعدامه وكفى .
واستطرد الطباخ :

— ليس كلبنا ، انه كلب شقيق الجنرال الذى وصل
من مدة . جنرالنا لا يحب كلاب الصيد . اما اخوه فيحبها .
ويسأل اتشوميلوف ويفيض وجهه بابتسامة تأثر :
— احقا وصل شقيق الجنرال ؟ فلاديمير ايفانتش ؟
آه يا ربى ! وانا لا اعلم ! هل جاء للزيارة ؟
— للزيارة . . .

— آه يا ربى . . . اوحشه شقيقه . . . وانا لا اعلم ؟
اذن فهذا كلبه ؟ سعيد جدا . . . خذه . . . ياله من كلب !
شقى . . . هبش هذا من اصبعه . . . ها—ها—ها . . .

مالك ترتعش ؟ . . . اوه انه عاصب هذا الماكر . . . يالك
من صغير . . .

ويدعو بروخور الكلب ويمضى معه مبتعدا عن مخزن
الحطب . . . ويقهقه الجمع سخرية بخريوكين .
ويقول له اتشوميلوف متوعدا :

— مهلا ، سوف افرغ لك !
ويمضى فى طريقه عبر ميدان السوق متدثرا بالمعطف .

القناع

اقيم في نادى «س» الاجتماعى حفل تنكرى لغرض خيرى .

كانت الساعة الثانية عشرة ليلا . وجلس المثقفون غير الراقصين — وكانوا خمسة — فى قاعة المطالعة الى طاولة كبيرة ودسوا انوفهم ولحاهم فى الجرائد وراحوا يقرأون وينعسون ، و«يفكرون» على حد تعبير المراسل المحلى لجرائد العاصمة ، وهو سيد ليبرالى جدا .

وتناهت من الصالة العامة انغام رقصة «فيوشكى» . ومن حين لآخر كان الخدم يهرولون بجوار الباب وهم يدقون عاليا باقدامهم ويشيرون رنين الاوانى . بينما كان الصمت العميق يسود قاعة المطالعة .

وفجأة تردد صوت غليظ مكتوم بدا وكأنه صادر من المدفأة .

— يبدو ان المكان هنا سيكون مناسباً . تعالوا هنا يا أولاد ! تعالوا ، تعالوا !

وفتح الباب ، ودخل قاعة المطالعة رجل عريض ، ربعة ، يرتدى حلة حوذى وقبعة بريش طاووس وقناعاً . وتبعته سيدتان مقنعتان وخادم يحمل صينية . وكان على

الصينية زجاجة ليكير منبعجة وثلاث زجاجات نبيذ احمر
وبضعة اكواب .
وقال الرجل :
— تعالوا ! الجو هنا ابرد . . . ضع الصينية على
الطاولة . . . اجلسن يا موزمزيلات ! جى فو برى * ، اما
انتم يا سادة فلتفسحوا . . . هيا من هنا !
وتمايل الرجل وازاح بيده عدة مجلات من على الطاولة .
— ضع هنا ! اما انتم ايها السادة القراء . فلتفسحوا .
لا وقت هنا لقراءة الجرائد والسياسة . . . دعوا عنكم هذا !
فقال احد المثقفين وهو ينظر الى صاحب القناع من
خلال نظارته :
— الزم الهدوء من فضلك . هذه قاعة مطالعة وليس
بوفيه . . . ليس هذا مكانا للشرب .
— ولماذا ليس مكانا ؟ هل الطاولة تتأرجح ام ربما
السقف يتساقط ؟ شىء عجيب ! حسنا . . . لا وقت عندى
للحديث ! اتركوا الجرائد . . . يكفيكم ما قرأتم . . . انتم
هكذا اذكياء اكثر من اللازم ، كما انكم تتلفون ابصاركم .
واهم ما فى الامر اننى لا اريد . انتهينا .
ووضع الخادم الصينية على الطاولة ، وطوى الفوطه على
ذراعه ووقف بجوار الباب . وشرعت السيدتان فورا فى تناول
النبيذ الاحمر .

* جى فو برى (Je vous pris) — ارجوكم ، من فضلكم
(بالفرنسية) . المعرب .

وقال الرجل ذو ريش الطاووس وهو يصب لنفسه ليكيرا :
— كيف يوجد اناس اذكاء يعتبرون الجرائد افضل
من هذه المشروبات . اما انا فأرى ايها السادة المحترمون
انكم تحبون الجرائد لانكم لا تملكون ما تشربون به ،
ليس كذلك ؟ ها—ها ! . . انهم يقرأون ! حسنا وما
هو المكتوب هناك ؟ ايها السيد ذو النظارة ، اية وقائع تقرأ ؟
ها—ها ! دعك من ذلك ! كفاك تمنا . اشرب افضل .
ونفض الرجل ذو ريش الطاووس وانتزع الجريدة من
يدي السيد ذي النظارة ، فامتقع هذا ، ثم تضرع ونظر
بدهشة الى بقية المثقفين ، ونظر هؤلاء اليه .
وانفجر قائلا :

— انك تتجاوز حدودك يا سيدى المحترم . انك
تحول قاعة المطالعة الى حانة . . . انك تسمح لنفسك بالعريضة
واختطاف الجرائد من الايدي ! لن اسمح لك ! انت
لا تعرف مع من تتحدث يا حضرة المحترم ! انا جيستياكوف ،
مدير البنك !

— طظ ، فلتكن جيستياكوف ! اما جريدتك فهي
هي قيمتها . . .

ورفع الرجل الجريدة ومزقها قطعاً .
ودمدم جيستياكوف مصعوقاً :

— ما هذا يا سادة ؟ هذا شيء غريب . . . هذا . . .
هذا غير معقول . . .

فضحك الرجل قائلا :

— سيادته زعلان ! آى ، آى ، اخفثنى ! اقدامى
ترتعش ، اسمعوا ايها السادة المحترمون ! كفى مزاحا . . .

انا لا ارغب فى الحديث معكم . . ولما كنت اريد ان ابقى هنا مع المزموزيلات على انفراد واريد ان امتع نفسى ، لذلك ارجوكم الا تحزنوا ولتخرجوا . . . تفضلوا من هنا ! يا سيد بيليوخين اخرج من هنا فى ألف داهية ! ما لك تقلب سحتك ؟ اقول لك اخرج يعنى تخرج ! هيا عجلّ والا اهويت على قفاك !

فتساءل بيليوخين صراف المحكمة وهو يحمر ويهز كتفيه : — كيف ! ما معنى هذا ؟ ! انا حتى لا افهم . . . شخص وقح يقتحم علينا المكان . . . وفجأة يتفوه بهذه الاشياء !

فصاح الرجل ذو ريش الطاووس غاضبا ، ودق بقبضته على المائدة حتى تراقصت الاكواب على الصينية : — ماذا تقول ؟ وقح ؟ لمن تقولها ؟ اتظن اننى ما دمت فى القناع فبوسعك ان توجه لى مختلف الكلمات ؟ يالك من مشاغب ! اخرج من هنا اقول لك ! يا مدير البنك ، انكشح من هنا بالمعروف ! اخرجوا جميعا . اياكم ان يبقى منكم لثيم هنا ! غوروا فى الف داهية ! فقال جيستياكوف الذى غامت نظارته من شدة الانفعال : — حسنا ، سنرى الآن ! سأريك ! ايه ، استدع الشاويش المناوب !

وبعد دقيقة دخل شاويش صغير احمر الشعر بشريط ازرق على ياقة سترته وهو يلهث من الرقص ، وقال : — تفضلوا بالخروج . ليس هذا مكانا للشرب ! تفضلوا فى البوفيه !

وسأل الرجل ذو القناع :



— من اين جئت انت ؟ هل انا دعوتك ؟
— ارجو ان تخاطبني باحترام ، وتفضل بالخروج !
— اسمع يا عزيزى . . . سأمهلك دقيقة . . . وطالما
انت شاوئش وشخصية مهمة ، فلتسحب هؤلاء الممثلين
من ايديهم . زموزيلاتى لا يعجبهن وجود غرباء هنا . . .
يشعرن بالخجل ، وانا اريد مقابل نقودى ان يَكُنَّ فى حالتهم
الطبيعية .

وصاح جيستياكوف :

— يبدو ان هذا المأفون لا يفهم انه ليس فى حظيرة .
استدعوا يفسترات سبيريدونتش !
وترددت فى النادى :
— يفسترات سبيريدونتش ! اين يفسترات سبيريدونتش ؟
وسرعان ما ظهر يفسترات سبيريدونتش ، وهو عجوز
يرتدى حلة شرطى . وصاح بصوت مبحوح وهو يبخلق بعينه
المرعبتين ويحرك شواربه المصبوغة :

— تفضل بالخروج من هنا !

فقال الرجل وهو يقهقه من المتعة :

— آه ، لقد اربعبتنى ! اى والله اربعبتنى ! اقسم
لكم اننى لم أر شيئا رهيبا كهذا ! شواربه كشوارب القط ،
وعيناه جاحظتان . . . ها—ها—ها ! ها—ها—ها !
فصاح يفسترات سبيريدونتش بكل قوته واهتر بدنه :
— ممنوع الكلام ! اخرج من هنا ! سآمر بطردك !
وارتفع فى قاعة المطالعة صخب لا مثيل له . كان
يفسترات سبيريدونتش يصرخ ويدق بقدميه وقد احمر كسرطان
البحر . وكان جيستياكوف يصرخ . وكان بيليوخين يصرخ . كان

جميع المثقفين يصرحون ، ولكن عطى على اصواتهم جميعا صوت الرجل ذى القناع ، الغليظ الاجش . وبسبب الهرج العام توقف الرقص ، وتقاطر الناس من الصالة الى قاعة المطالعة . ولكى يظهر يفسترات سبيريدونتش هيئته استدعى جميع رجال الشرطة الموجودين فى النادى ، وجلس ليكتب محضرا . فقال ذو القناع وهو يدس اصبعه تحت القلم :

— اكتب ، اكتب . يالى من مسكين ، ترى ماذا سيحدث لى الآن ؟ يالحظى البائس ! حرام عليكم ما تفعلونه بيتيم مثلى ! ها—ها—ها ! حسنا ، ماذا ؟ هل محضرك جاهز ؟ هل وقع الجميع ؟ فلتنظروا الآن اذن ! . . . واحد . . . اثنان . . . ثلاثة ! . . .

ونفض الرجل ومد قامته بطولها ونزع القناع عن وجهه . وبعد ان كشف وجهه الثمل وطاف بنظره على الجميع مستمتعا بما احده من تأثير ، تهاوى على الكرسي وقهقه بفرح . وبالفعل كان التأثير الذى احده غير عادى . تبادل المثقفون النظرات فى ارتباك وامتقعت وجوههم ، وحك بعضهم قفاه . وتحشرج يفسترات سبيريدونتش كالشخص الذى ارتكب عفوا حماقة كبيرة .

لقد عرف الجميع فى هذا الرجل الهائج المليونير المحلى صاحب المصانع والمواطن العريق المحترم بيتيجوروف ، المعروف بفضائحه وبأعماله الخيرية ، وكما ذكرت الجريدة المحلية غير مرة ، بحبه للمعرفة .

وبعد دقيقة من الصمت سأل بيتيجوروف :

— حسنا هل ستنصرفون ام لا ؟

وخرج المثقفون من غرفة المطالعة على اطراف اصابعهم

فى صمت ، دون ان يتفوهوا بكلمة ، فأوصد بيتيجوروف الباب خلفهم .

وبعد دقيقة كان يفسترات سبيريدونتش يفح هامسا وهو يهز كتف الخادم الذى حمل الخمر الى قاعة المطالعة :
— لقد كنت تعلم انه بيتيجوروف ، لماذا سكت ؟
— امرنى الا اقول !

— امره الا يقول . . . سأسجنك ايها الملعون شهرا
وعندئذ ستعرف ما معنى «امرنى الا اقول» ، اخرج ! . . .
وقال مخاطبا المثقفين — وانتم ايضا يا سادة ما احلاكم . . .
اعلنوا العصيان ! لم يكن فى استطاعتكم ان تخرجوا من
قاعة المطالعة لعشر دقائق ! حسنا ، تحملوا اذن مسئولية
ما صنعتم ! آه يا سادة ، يا سادة . . . غير سليم . . .
وسار المثقفون فى النادى مقهورين ، ضائعين ، مذنبين
يتهامسون ويتوقعون شرا . . . وعندما عرفت زوجاتهم وبناتهم
بالحادث اخلدن الى السكون وتفرقن عائدات الى بيوتهن .
وتوقف الرقص .

وفى الساعة الثانية خرج بيتيجوروف من قاعة المطالعة ،
كان ثملا يترنح . وعندما دخل الصالة جلس بقرب الاوركسترا
ونعس على انغام الموسيقى . ثم امال رأسه بحزن وعلا شخيره .
واشاح الشاويشية بايديهم للعازفين :

— لا تعزفوا ! هس ! . . . يجور نيليتش نائم .
وسأل بيليونخين وهو ينحنى على اذن المليونير :
— هل تأمرون بتوصيلكم الى البيت يا يجور نيليتش ؟
وندت عن شفتى بيتيجوروف حركة وكأنه يريد ان
ينفخ ذبابة عن خده .

وعاد بيليوخين يسأل :
— هل تأمرون بتوصيلكم الى البيت ؟ ام باستدعاء
العربة ؟

— هه ؟ من ؟ انت . . . ماذا تريد ؟
— اريد ان اوصلكم . . . حان وقت النوم . . .
— اريد ان اذهب . . . اوصلنى !
وتهلل بيليوخين من الرضا وشرع ينهض بيتيجوروف .
واسرع اليه بقية المثقفين ، وأنهضوا المواطن الاصيل المحترم
وهم يتسمون بسرور ، وساروا به بحذر الى العربة .
وقال جيستياكوف بمرح وهو يجلسه :

— لا يستطيع ان يضحك على جماعة كاملة الا
ممثلى موهوب . انا مأخوذ حقا يا يجور نيليتش ! حتى
الآن ما زلت اضحك . . . ها—ها . . . كنا نغلى ونتلمظ !
ها—ها ! هل تصدقون ؟ لم اضحك ابدا فى المسرح
مثلا ضحكت اليوم . فكاهة بلا حدود ! سأظل طول
عمرى اذكر هذه الامسية التى لا تنسى !
وبعد أن أوصل المثقفون بيتيجوروف عاودهم المرح
والاطمئنان .

وقال جيستياكوف وهو سعيد جدا :
— لقد مد لى يده عند الوداع . اذن فليس غاضبا .
فتنهذ يفسترات سبيريدونتش :
— يسمع منك ربنا ! انه رجل وغد ، حقير ،
ولكنه محسن ! . . . لا يصح ! . . .

حلة النقيب

عبست الشمس الصاعدة فوق المدينة الاقليمية ،
وبدأت الديوك تتمطى لتوها ، بينما كان الزبائن جالسين
فى حانة العم ريلكين . كانوا ثلاثة : الخياط ميركولوف ،
والشرطى جراتفا وساعى الخزينة سميخونوف . وكانوا ثلاثتهم
سكارى .

وقال ميركولوف وهو يمسك بأحد ازرار سترة الشرطى :
— لا تقل ذلك ، لا تقل ذلك ! المرتبة فى
المؤسسات المدنية ، اذا أخذنا العليا منها ، تفوق رتبة
الجنرال من ناحية الخياطة . خذ مثلاً وصيف البلاط . .
من هو هذا الشخص ؟ من أية رتبة ؟ لكن خذ احسب . .
أربعة اذرع من اعلى انواع الجوخ ، انتاج فابريقة برونديل
وابنائيه ، وأزرار ، وياقة ذهبية ، وسراويل بيضاء بأشرطة
ذهبية ، والصدر كله بالذهب ، القبة والاكمام والعراوى . .
كله يلمع ! لو أنك الآن خيطةت حلالاً لسادة كبار من
مدراء المراسم ورجال البلاط ومختلف الوزراء . . كيف تظن ؟
اذكر اننا خيطنا لواحد من هؤلاء السادة ، الكونت اندريه
سيميونيتش فونلياريفسكى . حلة لا تقترب منها ! اذا امسكتها
بين يديك وجدت النبض فى عروقك ينفض تسبك ! تسبك !

السادة الحفصيون عندما تحيط لهم أياك أن تزعجهم .
خذ المقاس وخيط على طول ، أما أن تتردد عليهم لعمل
بروفات وضبط التفصيل فهذا مستحيل . ان كنت خياطا
قديرا فحيط بعد اخذ المقاس على طول . . . اقفز من أعلى
البرج بشرط أن تدخل بقدميك في الحذاء مباشرة ، رأيت !
وكانت بجوارنا يا أخى كما اذكر الآن ثكنة شرطة . . . فكان
رئيسنا أوسيب ياكليتش يختار من رجال الشرطة الرجال الذين
تتفق اجسامهم مع اجسام الزبائن لكي تعمل البروفات عليهم .
وبعدين ، يعنى . . . اخترنا يا أخى شرطيا مناسبا لحلة
الكونت . استدعيناه . . . هيا البس يا أحرق وتبختر ! ولبس
هذه الـ . . . الحلة . . . ويا له من منظر مضحك ! ما أن
نظر الى صدره حتى ارتعش ، أتعرف ، سقط مغشيا عليه . . .
واستفهم سميخونوف :

— وهل فصلتم لمأمورى المراكز ؟

— وهل هؤلاء شخصيات ؟ فى بطرسبرج هؤلاء المأمورون

كالكلاب الضالة . . . هنا يتزعون امامهم القبعات وينحنون ،
أما هنالك فيقولون لهم : «افسح الطريق ، لا تراحم !» .
كنا نفصل الحلل للسادة العسكريين وللشخصيات من المراتب
الأربع الأولى . وكل شخصية تختلف عن الأخرى . . .
فاذا كنت مثلا من الرتبة الخامسة فأنت تافه . . . تعال بعد
أسبوع وتكون البدلة جاهزة ، لأنه ليس هناك ما تفعله غير
الياقة والأساور . . . اما اذا كنت من الرتبة الرابعة أو الثالثة ،
أو مثلا الثانية ، عندئذ ينهال علينا صاحب المحل ، ونسرع
الى ثكنة الشرطة . فى مرة فصلنا يا أخى بدلة للقنصل
الفارسى . وطرزنا له على الصدر والظهر قسبا ذهبيا بألف

وخمسمائة روبل . وظننا أنه لن يدفع ، ولكن لا ! لقد دفع . . . فى بطرسبرج حتى الترتجدهم نبلاء الطباع . وظل ميركولوف يتحدث طويلا . وفى الساعة التاسعة ، وتحت تأثير الذكريات ، بكى وراح يشكو بحرقه حظه الذى رماه فى هذه المدينة الصغيرة المليئة بالتجار والبرجوازيين فقط . وكان الشرطى فى هذه الفترة قد ساق اثنين الى قسم البوليس ، وذهب الساعى مرتين الى البريد والخزينة وعاد ، بينما كان ميركولوف لا يزال يشكو . وفى الظهر وقف أمام الشماس واخذ يضرب صدره بقبضته ويتذمر : — لا أريد أن أفصل للأوغاد ! أنا أرفض ! فى بطرسبرج فصلت بنفسى للبارون شبوتسيل وللسادة الضباط ! ابتعد عني يا قفطان ولائم الموتى ، اياك أن تراك عيناي ! ابتعد !

فأكد الشماس للخياط :

— انك تضع نفسك فى مكانة عالية يا تريفون بانتليتش . صحيح انت فنان فى عملك ، ولكن لا يجوز أن تنسى الله والدين . آرى أيضا وضع نفسه عاليا ، مثلك ، ولكنه مات من الاسهال . أوه ، وانت أيضا ستموت ! — سأموت ! الأفضل أن أموت من أن أفصل معاطف فلاحية .

— هل شيطانى هنا ؟ — تردد فجأة صوت نسائى خلف الباب ، ودخلت الحانة اكسينيا زوجة ميركولوف ، وهى امرأة كهلة ، مشمرة الاكمام ، ومحزومة البطن — أين هو هذا الصنم ؟ — وطافت على الرواد بنظرة غاضبة . — اذهب الى البيت ، ان شاء الله تخطفك مصيبة . هناك

فدهش ميركولوف :

— أى ضابط ؟

— وما أدرانى ! يقول انه جاء ليفصل بدلة .

حك ميركولوف انفه الكبير براحته كلها ، وهو ما كان يفعله دائما عندما يريد أن يعبر عن دهشته البالغة ، ودمدم :

— هذه المرأة اصابتها لوثة . . . منذ خمسة عشر عاما

لم أر وجهها نبلا ، وفجأة يأتى الآن ، وفى يوم الصيام ، ضابط ليفصل بدلة ! هم ! . . . فلاذهب لأرى . . .

وخرج ميركولوف من الحانة ومضى الى البيت وهو

يترنح . . . ولم تكذب عليه زوجته . فقد رأى أمام عتبة

داره النقيب أورتشايف ، سكرتير قائد الحامية المحلية .

وقال له النقيب :

— أين كنت تتسكع ؟ انتظرك منذ ساعة . . . هل

تستطيع أن تفصل لى بدلة ؟

— يا صاحب المعالي . . . يا إلهى ! — دمددم ميركولوف

وهو يتحشرج ، ونزع من على رأسه القبعة مع خصلة شعر . —

يا صاحب المعالى ! وهل هذا جديد علي ؟ أه يا إلهى !

فصلت للبارون شبتوسيل . . ادوارد كارليتش . . والسيد الملازم

زيمبولاتوف مدين لى حتى الآن بعشرة روبلات . . آه !

يا امرأة ، هاتى لصاحب المعالى كرسيًا ، آه يا ربي . . .

هل تأمرون بأخذ مقاسكم أم تسمحون ان أفصل بمجرد

النظر ؟

— طيب . . . القماش من عندك ، وتكون جاهزة

بعد أسبوع . . كم تريد ؟

— العفو يا صاحب المعالى . . ماذا تقولون . — وضحك
ميركولوف ضحكة ساخرة قصيرة . — وهل أنا تاجر ؟ أنا
نعرف كيف نتعامل مع السادة . . . حتى عندما فصلنا
للقنصل الفارسى فصلنا بدون كلام . . .
وبعد أن أخذ ميركولوف مقاييس النقيب وودعه ،
ظل واقفا ساعة كاملة فى وسط الغرفة وهو يحدق فى زوجته
ببلاهة . لم يكن يصدق . . .
وأخيرا تمتم :

— يا لها من مفاجأة ، يا سلام ! من أين أحصل
على النقود للقماش ؟ يا أكسينيا ، اقترضينى ، يا أختى ،
ذلك المبلغ الذى حصلت عليه من بيع البقرة .
أخرجت له أكسينيا لسانها ثم بصقت . وبعد فترة
وجيزة بدأت تتعامل مع زوجها بالبشكور وتكسر على رأسه
الصحاف الفخارية وتسحبه من لحيته ، وتخرج الى الشارع
وتصيح : « انظروا يا عباد الله ! قتلنى ! . . » . ولكن
هذه الاحتجاجات لم تأت بنتيجة . وفى اليوم التالى رقدت
فى الفراش وهى تخفى عن صبيان الخياط الكدمات الزرقاء ،
بينما كان ميركولوف يطوف بالدكاكين ويتشاجر مع التجار
وهو ينتقى الجوخ المناسب .

وحل عهد جديد بالنسبة للخياط . فبعد أن يستيقظ
ويطوف بنظراته الغائمة على عالمه الصغير لم يعد يبصق
بحقد . . . أما أغرب شيء فهو أنه كف عن الذهاب الى
الحانة وانهمك فى العمل . وبعد أن يصلى بصوت خافت ،
يضع النظارة الحديدية الكبيرة ويقطب جبينه ، ويفرش القماش
على الطاولة بخشوع .

وبعد أسبوع كانت الحلة جاهزة . . وبعد أن كواها
ميركولوف ، خرج الى الشارع وعلقها على السور المجدول
من الاغصان وراح ينظفها . . . ينزع منها وبرة ، ثم يبتعد
لمسافة ذراع ، ويحرق في الحلة طويلا بعينين مزورتين ،
ثم يعود فينزع وبرة اخرى ، وهكذا لمدة ساعتين .
وكان يقول للمارة :

— ما أشق العمل مع هؤلاء السادة ! لم أعد أطيق ،
خارت قواى ! قوم مثقفون ، مهذبون ، فلتحاول ان تنال
رضاهم !

وفى اليوم التالى ، وبعد أن نظف ميركولوف الحلة ،
دهن رأسه بالزيت وصفف شعره ، ولف البدلة فى قطعة
من قماش شيت جديد ، وتوجه الى النقيب .
وكان يستوقف كل من يقابله قائلا :

— لا وقت عندى للكلام معك أيها الأحمق . ألا
ترى اننى احمل البدلة للنقيب ؟
وبعد نصف ساعة عاد من عند النقيب .
واستقبلته أكسينيا وهى تبسم ابتسامة عريضة ، وقالت
بخجل :

— مبروك المكسب يا تريفون بانتليفتش .
فأجابها زوجها :

— يا لك من حمقاء . أتظنين السادة الحقيقيين
يدفعون فورا ؟ ليسوا كالتجار الذين ما أن تعطيتهم حتى يدفعوا
فورا . . . يا لك من حمقاء ! . . .

رقد ميركولوف يومين على الفرن ولم يشرب أو يأكل
واستسلم لمشاعر الرضا عن النفس ، تماما مثل هرقل بعد

أن انتهى من تحقيق كل بطولاته . وفى اليوم الثالث ذهب
ليحصل على النقود .
وقال هامسا لجندى المراسلة وهو يتسلل زاحفا الى
المدخل :

— هل استيقظ صاحب المعالى ؟
وعندما تلقى الاجابة بالنفى وقف كالعمود بجوار الباب
وراح ينتظر .

— اطرده من هنا ! قل له يوم السبت . . — سمع
ميركولوف بعد انتظار طويل صوت النقيب الأبح .
وسمع نفس الشيء يوم السبت ، وفى السبت الذى
تلاه ، وفى السبت الثالث . . . شهرا كاملا قضاه فى التردد
على النقيب ، والانتظار فى المدخل ساعات طويلة ، وبدلا
من النقود كان يحصل على دعوة بالذهاب الى الشيطان
والمجىء يوم السبت . ولكنه لم ييأس ولم يتـذمر ،
بالعكس . . . لقد سمن . أعجبه الانتظار الطويل فى المدخل
وكانت «اطرده من هنا» تنساب فى أذنيه كاللحن العذب .
وعندما يعود الى البيت من عند النقيب كان يقول
باعتجاب :

— هذا هو السيد النبيل ! عندنا فى بىتر* كانوا
كلهم كذلك . . .
وكان ميركولوف مستعدا حتى آخر أيام عمره أن يتردد
على النقيب وينتظر فى المدخل لولا أكسينيا التى كانت

* الاسم الدارج لمدينة بطرسبرج . المغرب .

تطالبه باعادة النقود ، ثمن البقرة .

كانت تلقاه كل مرة بالسؤال :

— هل جئت بالنقود ؟ كلا ؟ ما الذى تفعله بى

أيها الوحش الكاسر ؟ هه ؟ . . . يا ميتكا ، أين البشكور ؟

وذات مساء كان ميركولوف عائدا من السوق ، حاملا

على ظهره جوال فحم . ومن خلفه سارت أكسينيا بعجلة .

كانت تدمدم وهى تفكر فى النقود ثمن البقرة :

— مهلا ! سوف أريك عندما نصل الى البيت !

وفجأة توقف ميركولوف وتسمر فى مكانه وصاح بفرح .

فمن حانة «المرح» التى كانا يمران بجوارها ، انطلق مندفا

سيد ما فى قبعة اسطوانية ، بوجه أحمر وعينين ثملتين .

وجرى خلفه النقيب أورتشايف بلا قبعة ، مشعث الشعر

والثياب وفى يده عصا البلياردو . وكانت حلتة الجديدة

ملوثة بالطباشير ، واحدى الكتافيات قد مالت جانبا .

وصاح النقيب وهو يلوح بجنون بالعصا ويمسح العرق

من جبينه :

— سأرغمك على اللعب أيها المحتال ! سأعلمك

أيها الغشاش كيف تلعب مع الشرفاء !

وهمس ميركولوف لزوجته وهو يلکزها فى كوعها ويهاهىء :

— انظرى يا حمقاء ! هذا هو السيد النبيل . فالتاجر

إذا فصل لسحته الفلاحية بدلة فانها لا تبلى ، يلبسها

عشر سنين ، أما هذا فانظرى كيف جعل البدلة خرقة !

ليس غريبا لو احتاج لواحدة جديدة !

فقالت أكسينيا :

— اذهب واطلب منه النقود .

— ماذا تقولين يا حمقاء ! فى الشارع ؟ لا يمكن

ابدا . . .

ورغم مقاومة ميركولوف فقد ارغمته زوجته على الذهاب الى النقيب الهائج ومفاتحته فى أمر النقود .
فأجابه النقيب :

— امش من هنا ! أضجرتنى !

— أنا فاهم يا صاحب المعالى . . فاهم . . . أنا لا أريد . . لكن زوجتى . . حمقاء لا تفهم . . حضرتكم تعرفون أى عقل يمكن ان يكون فى رأس هؤلاء النسوة . . . فزار النقيب وهو يحملق فيه بعينين ثملتين زائغتين :

— قلت لك أضجرتنى ! امش من هنا !

— مفهوم يا صاحب المعالى ! ولكنى بخصوص زوجتى . . لأن النقود ، اذا أردتم سيادتكم أن تعرفوا ، هى نقود البقرة . . . بعنا البقرة للأب يهوذا . . .

— آه . . . وتجسر على الكلام أيها الحشرة !

وطوح النقيب ذراعه و . . طراخ ! وتساقط الفحم من على ظهر ميركولوف ، ومن عينيه تطاير الشرار ، ومن يديه سقطت القبعة . . . وتملك الدهول أكسينيا . ووقفت متصلة حوالى دقيقة ، مثل زوجة لوط عندما تحولت الى عمود ملح ، ثم خطت الى الأمام ونظرت بوجل الى وجه زوجها . . . ولدهشتها البالغة كان وجه ميركولوف يتهلل بابتسامة غبطة ، بينما اغرورقت عيناه الضاحكتان بالدموع . . .

ودمدم :

— هؤلاء هم السادة الحقيقيون ! أناس مهذبون ، مثقفون . . . بالضبط كما حدث . . وفى نفس المكان . .

عندما حملت المعطف الى البارون شبوتسييل ، ادوارد
كارليتش . . . طوح يده و . . طراخ ! والسيد الملازم زيمبولاتوف
أيضا . . . جئت اليه فهب واقفا وبكل قوته . . . أوه راح
ذلك الزمن يا زوجتي ! انت لا تفهمين شيئا ! راح زمني !
وأشاح ميركولوف بيده ، ثم جمع الفحم ، ومضى
الى البيت .

عند زوجة رئيس النبلاء

فى أول فبراير من كل عام ، وفى عيد القديس تريفون ، تدب حركة غير عادية فى ضيعة أرملة رئيس نبلاء الاقليم السابق تريفون لفوفتش زافرياتوف . ففى هذا اليوم تقيم أرملة رئيس النبلاء لوبوف بتروفنا قداسا على روح المرحوم ، وبعد القداس صلاة شكر للسيد الرب . ويأتى الاقليم كله لحضور القداس . فهنا ترى رئيس النبلاء الحالى خروموف ، ورئيس مجلس الاقليم مارفوتكين وعضو المجلس الدائم بوتراشكوف ، ومفتشى لجنة الاقليم ، ومأمور المركز كرينولينوف ، وشرطى نقطتى الشرطة ، وطبيب المجلس المحلى دفورنياجين الذى تفوح منه رائحة اليودفورم ، وكل الاقطاعيين ، كبارهم وصغارهم ، وغيرهم . وكان عدد الحاضرين يصل الى حوالى خمسين شخصا .

وفى تمام الساعة الثانية عشرة ظهرا يتقاطر الضيوف بوجوه مستطيلة من جميع الغرف الى الصلاة . والأرض مغطاة بالسجاد فلا يسمع وقع الخطوات ، ولكن جلال الموقف يجعلهم يشبون لاراديا على اطراف أصابعهم ويحفظون توازنهم بأيديهم اثناء المشى . كل شىء جاهز فى الصلاة . ويقوم الأب يفمينى ، ذلك العجوز الصغير ، ذو الطاقة العالية

الباهتة ، بارتداء بدلة القديس السوداء . اما الشماس
كونكورديف فيقف أحمر كسرطان البحر المسلوق ، مرتديا حلته ،
ويقلب صفحات كتاب الصلوات دون صوت واضعا بين
الصفحات قصاصات ورق . وعند الباب المفضى الى المدخل
ينفخ القندلفت لوقا فى المبخرة وقد انتفخ خداه العريضان
وجحظت عيناه . وتمتلئ الصلاة تدريجيا بدخان البخور الأزرق
الشفاف ورائحته . اما المدرس الأهل جيليكونسكى ، وهو
رجل شاب ، يرتدى حلة جديدة مهدلة ، وعلى وجهه
المذعور بثور كبيرة ، فيوزع الشموع على صينية معدنية .
وتقف ربة الدار لوبوف بتروفا فى المقدمة بجوار مائدة
عليها طبق «الكوتيا» * ، وتقرب المنديل من عينها سلفا .
والهدوء يعم المكان ولا تتخلله الا زفرات متفرقة . ووجوه
الجميع مشدودة ، مهيبة . . .

ويبدأ القديس . من المبخرة يتدفق دخان أزرق متموجا
فى اشعة الشمس المائلة ، والشموع المشتعلة تطقطع بوهن .
ويبدأ الغناء حادا مجلجلا ، ثم سرعان ما يصبح هادئا
منتظما عندما يتكيف المغنون شيئا فشيئا مع الظروف الصوتية
للمكان . . . والألحان كلها حزينة ، مكتئبة . . . وشيئا فشيئا
ينسجم الضيوف مع المزاج الانطوائى ويستغرقون فى التفكير
وتتسرب الى اذهانهم أفكار عن قصر الحياة والفناء وبهرج
الدنيا الزائل . ويتذكرون المرحوم زافرياتوف ، المليء الجسم

* طبق من الأرز او القمح والزبيب يقدم فى ولائم التأبين .
المعرب .

الأحمر الخدين ، الذى كان يشرب زجاجة الشمبانيا دفعة واحدة ويحطم المرايا بجبهته . وعندما يغنون «مع القديسين الرحمة» وتُسمع شهقات ربة الدار ، يتململ الضيوف فى وقتهم بكآبة . أما ذوو المشاعر المرهفة منهم فيحسنون بحك فى حلوقهم وحول جفونهم . ويحاول رئيس مجلس الاقليم مارفوتكين ان يكبت هذا الاحساس الكريه فيميل على اذن مأمور المركز هامسا :

— بالأمس كنت عند ايفان فيودورفتش احزرت أنا وبيوتر بتروفتش فوزا ساحقا بدون أوراق رابحة اى والله وثارت أولجا أندرييفنا لدرجة ان سقطت من فمها سن صناعية .

وها هو نشيد «الذكرى الخالدة» . وها هو جيليكونسكى يستعيد الشموع باحترام ، وينتهى القداس . وتتلو ذلك دقيقة هرج وتبديل حلة القداس استعدادا للصلاة . وبعد انتهاء الصلاة ، وبينما الأب يفمينى يخلع لباس القداس ، يفرك الضيوف ايديهم ويسعلون ، بينما تتحدث ربة الدار عن طيبة المرحوم تريفون لفوفتش .

وتنهى حديثها قائلة وهى تنهد :

— تفضلوا الى المائدة يا سادة .

ويسرع الضيوف الى غرفة الطعام وهم يحاولون الا يتزاحموا أو يدوسوا على اقدام بعضهم البعض وهناك ينتظرهم الافطار . وهذا الافطار فاخر الى درجة ان الشماس كونكوردييف يرى من واجبه كل عام ، عندما يراه ، أن يشيح بذراعيه ، ويهز رأسه من الدهشة ويقول :

— شىء خرافى ! ان هذا يا أبانا يفمينى لا يشبه

طعام البشر بقدر ما يشبه القرابين المقدمة للالهة .
والافطار بالفعل غير عادى . فعلى المائدة يوجد كل
ما يمكن أن يهبه عالما النبات والحيوان . أما الخرافى فيه
فربما كان شيئا واحدا : وهو ان المائدة تحوى كل شىء
إلا . . . المشروبات الكحولية . فقد نذرت لوبوف بترفنا
على نفسها ألا تحتفظ فى بيتها بأوراق اللعب والمشروبات
الكحولية ، أى بالشيشين اللذين قضيا على زوجها . ومن
ثم فليس على المائدة الا زجاجات الخل والزيت ، وكأنها
نكاية وسخرية بالطاعمين الذين هم عن بكرة أبيهم من
السكارى والمدمنين .

وتدعو زوجة رئيس النبلاء الضيوف :
— كلوا يا سادة . لكن اعذرونى فليس لدى فودكا . . .
لا احتفظ بها فى البيت . . .
ويقترّب الضيوف من المائدة ويشرعون فى تناول الكعكة
بتردد . ولكن الوليمة لا تسير كما يرام . ويبدو فى غرز
الشوك والتقطيع والمضغ تراخ ما وخمول . . . يبدو ان شيئا
ما ينقصهم . . .

ويهمس أحد مفتشى لجنة الاقليم لزميله :
— أشعر وكأننى فقدت شيئا ما . مثل هذا الاحساس
راودنى عندما هربت زوجتى مع المهندس . . لا أستطيع
أن آكل !

وقبل أن يشرع مارفوتكين فى الأكل يفتش طويلا فى
جيوبه بحثا عن منديله . ثم يقول متذكرا بصوت عال :
— آه ، المنديل فى المعطف ! وأنا ابحث عنه .
ويمضى الى المدخل حيث علقت المعاطف .

ويعود من المدخل بعينين لامعتين ، وينهال على الكعكة فوراً بشهية .

ويهمس للأب يفمينى :

— ماذا ، الأكل على الناشف كريحه ؟ اذهب يا أبتاه

الى المدخل ، هناك زجاجة فى جيب معطفى . . لكن حاذر ، اياك ان تقرقع بالزجاجة !

ويتذكر الأب يفمينى ان عليه ان يأمر لوقا بشيء ما ،

ويسرع بخطوات قصيرة نحو المدخل .

ويلحق به دفورنياجين صائحا :

— ياأبانا . . اريدك فى كلمتين ، سرا !

ويقول خروموف مباهيا :

— يا له من معطف اشتريته يا سادة بالصدقة .

يساوى ألفا ، ولكنى دفعت . . لن تصدقوا . . مائتين وخمسين ! فقط !

وما كان الضيوف ليعيروا انتباها لذلك الخبر فى وقت

آخر ، أما الآن فقد اعربوا عن دهشتهم وعدم تصديقهم .

ومن ثم مضوا جميعا الى المدخل ليشاهدوا المعطف ،

وظلوا يشاهدونه الى أن حمل خادم الطبيب من المدخل

سرا خمس زجاجات فارغة . . . وعندما أتى الخدم بطبق

السماك المسلوق تذكر مارفوتكين انه نسى علبة سجائره فى

العربة ، وذهب الى الاصطبل . ولكى لا يشعر بالملل

وحده أخذ معه الشماس ، الذى اتضح أنه ينبغى عليه

ايضا أن يتفقد حصانه . . .

وفى مساء ذلك اليوم جلست لوبوف بتروفنا فى غرفة

مكتبها لتكتب رسالة الى احدى صديقاتها القديمات فى

بطرسبرج . وكان من بين ما كتبت :
«اليوم ، كما في السنوات السابقة ، أقمت قداسا
على روح المرحوم . وحضر القداس كل جيراني . انهم أناس
أفذاظ ، بسطاء ، ولكن ما أرق قلوبهم ! أقمت لهم
وليمة فاخرة ، ولكن لم تكن هناك بالطبع ، كما في
الاعوام السابقة ، قطرة شراب مسكر . فمئذ أن مات زوجي
بسبب الافراط أقسمت أن أنشر في اقليمنا الصحو وبذلك
اكفر عن ذنوبه . وقد بدأت الموعظة من بيتي . وقد أبدى
الأب يفميني اعجابه بمشروعي ويساعدني بالقول والفعل .
أوه يا * ma chère ، لو تعرفين كم يحبني ديتي هؤلاء !
بعد الافطار أخذ رئيس مجلس الاقليم مارفوتكين يقبل يدي
وظل طويلا يضعها على شفتيه وهو يهز رأسه بصورة مضحكة ،
وبكى من فيض المشاعر وعجز الكلمات ! أما الأب يفميني ،
هذا العجوز الرائع ، فقد جلس الى جوارى ، وحقق
في بعينين دامعتين وظل يتمم طويلا كالطفل . ولم أفهم
ما قاله ، ولكنني استطيت ان أفهم المشاعر الصادقة . أما
المأمور ، ذلك الرجل الجميل الذي كتبت لك عنه ، فقد
ركع أمامي على ركبتيه ، وأراد ان يقرأ اشعارا من تأليفه
(فهو شاعر عندنا) ولكنه . . . لم يتمالك قواه . . . فترنح
ووقع . . . لقد اصابنا هذا العملاق نوبة هستيريا . . . هل
تتصورين مدى اعجابي ! بالطبع لم يخل الأمر من بعض
المنغصات . فرئيس مؤتمر الاقليم أليكين المسكين ،

* عزيزتي (بالفرنسية في الأصل) . المعرب .

وهو رجل بدين مصاب بالسكتة ، ساءت حالته ، ووقد
على الكنية ساعتين فاقد الوعي . واضطررنا لصب الماء
عليه . . . شكرا للدكتور دفورنياجين ، اذ أحضر من صيدليته
زجاجة كونياك وبلل له صدغيه ، فسرعان ما عاد الى وعيه
ثم حملوه . . . » .

تواريخ حية

غرفة الجلوس فى دار مستشار الدولة شاراميكين مغلقة بظلمة خفيفة لطيفة . والمصباح البرونزى الكبير ذو الاباجورة الخضراء يلون الجدران والأثاث والوجوه بلون اخضر على طريقة «ليل اوكرانيا» . . . ومن حين لحين تتوهج جمرة حطب فى الموقد الموشك على الانطفاء ، فيغمر الوجوه للحظة لون لهب الحرائق : ولكن ذلك لا يفسد هارمونى الألوان العام . فـ«التون» العام ، كما يقول المصورون ، محافظ عليه هنا .

وعلى مقعد امام الموقد يجلس شاراميكين نفسه ، فى وضع رجل تغدى لتوه . وهو سيد كهل ، بسوالف موظفين بيضاء ، وعينين زرقاوين مستكيتين . وتنساب الرقة على وجهه ، وشفته مطبقتان على ابتسامة حزينة . وعند قدميه يجلس على اريكة ، مادا ساقيه فى كسل وهو يتمطى ، نائب المحافظ لوبنيف ، وهو رجل نشيط ، فى حوالى الاربعين من عمره . وبجوار المعزف يلهو أولاد شاراميكين : نينا وكوليا وناديا وفانيا . ومن الباب الموارب المفضى الى غرفة مكتب مدام شاراميكينا يتسلل ضوء خجول . فهناك خلف الباب تجلس الى مكتبها زوجة شاراميكين آنا بافلوفنا ،

رئيسه لجنة النساء المحلية ، وهي سيدة بادية الحيوية ،
مشيرة ، تخطت الثلاثين بقليل . وتجرى عيناها السوداوان
النشطتان عبر العوينات على صفحات رواية فرنسية . وتحت
الرواية يرقد تقرير مجعد الصفحات عن نشاط اللجنة في
العام الماضي .

ويقول شاراميكين وهو يزر عينيه المستكيتين ناظرا الى
جمرات الحطب :

— كانت مدينتنا من قبل محظوظة أكثر من هذه
الناحية . لم يمر شتاء واحد الا وزارنا نجم ما . كان يأتينا
مشاهير الممثلين والمطربين ، اما الآن . . . فالشيطان وحده
يعلم ما هذا . . . لا احد يأتي سوى الحواة والمتسولين من
عازفي الارغن اليدوى فى الشوارع . ليس هناك اية متعة
جمالية . . . نعيش كأنما فى غابة . نعم . . . أتذكر يا صاحب
السعادة ذلك الممثل التراجيدى الايطالى . . . ما اسمه ؟
ذلك الأسمر . . . الطويل . . . ليهبنى الله الذاكرة . . . آه ، نعم !
لويجى ارنتو دى روجيرو . . . يا له من موهبة رائعة . . .
يا للقوة ! كان يكفى ان يتفوه بكلمة واحدة حتى تهتز
قلوب النظارة . لقد شاركت زوجتى أنيوتا بحماس كبير فى
تشجيع موهبته . حجزت له المسرح وباعت له التذاكر لعشر
حفلات . . . ومكافأة لها على ذلك علمها الالقاء والحركات .
ما أنبل روحه ! لقد حضر الى هنا منذ . . . أرجو الا اخطئ . . .
منذ حوالى اثنتى عشرة سنة . . . كلا . . . اخطأت . . . بل أقل . . .
منذ حوالى عشر سنوات . . . أنيوتا ، كم عمر ابنتنا نينا ؟
فتصبح أنا بتروفنا من غرفة مكتبها :

— فى العاشرة ! وماذا ؟

— لا شيء يا ماما ، هكذا . . . وكان يزورنا ايضا
مطربون جيدون . . هل تذكر بريلييتشين ، ذلك الصوت
الـ * grazia tenore di ؟ ما أنبل روحه ! يا لهيئته !
أشقر . ووجهه معبر ، وحركاته باريسية . . وما أروع صوته
يا صاحب السعادة ! كان يعنيه شيء واحد . . كان يغنى
بعض النوتات من بطنه و«ري» بطبقة عالية ، وفيما عدا
ذلك فكان مجيدا . قال انه درس على يدى تامبرلك . .
دبرت له أنا وأنيوتا قاعة فى النادى الاجتماعى . وشكرا
منه لنا على ذلك كان احيانا يغنى لنا اياما وليالى بأكملها . .
وعلم أنيوتا الغناء . . لقد جاء الينا ، كما اذكر جيدا ،
فى الصوم الكبير . . منذ . . منذ حوالى اثنتى عشرة سنة .
كلا ، بل أكثر . . يا للذاكرة ، استغفر الله ! أنيوتا ،
كم عمر ابنتنا ناديا ؟

— اثنتا عشرة !

— اثنتا عشرة . . . فاذا اصفنا اليها عشرة أشهر . .
نعم بالضبط . . ثلاث عشرة ! . . كانت مدينتنا قبلا أكثر
حيوية . . خذ مثلا الحفلات الخيرية . ما أروع الحفلات
التي كانت تقام فى السابق . . يا للسحر ! غناء ، وعزف ،
والقاء . . . وبعد الحرب ** اذكر ، عندما كان الأسرى الأتراك يقيمون
هنا ، أقامت أنيوتا حفلا لصالح الجرحى . جمعنا ألف

* التينور العاطفى (بالايطالية فى الأصل) . المغرب .

** المقصود هنا الحرب الروسية التركية عامى ١٨٧٧ — ١٨٧٨

والتي انتهت بعقد صلح سان — ستيفانو . المغرب .

ومائة روبل . . . اذكر ان الضباط الأتراك كانوا مفتونين بصوت
أنبوتا ، وكانوا طوال الوقت يقبلون يدها . هـ . . رغم أنهم
آسيويون الا أنهم أمة تقدر الجميل . وكانت الحفلة موفقة
الى درجة اننى ، أتصدق ، كتبت عنها فى يومياتى .
كان ذلك كما أذكر الآن فى . . . سنة ستة وسبعين . . .
كلا ! فى سبعة وسبعين . . . كلا ! مهلا ، متى أقام
الأتراك عندنا ؟ أنبوتا ، كم عمر ابنا كوليا ؟

— عمري سبع سنوات يا بابا ! — يقول كوليا ،
ذلك الصبى الأسمر الوجه وذو الشعر الأسود الفاحم .
ويقول لوبنيف موافقا وهو يتنهد :

— نعم ، هرما ولم تعد لدينا تلك الطاقة ! هذا
هو السبب . . الشيخوخة يا أخى ! ليس هناك مبادرون جدد ،
اما القدامى فقد هرموا . . لم تعد لدينا تلك الشعلة . أنا ،
عندما كنت أصغر ، لم أكن أحب أن يشعر المجتمع
بالممل . . كنت المساعد الأول لزوجتكم أنا بافلوفنا . فاذا
كانت هناك حاجة لاقامة حفل خيرى ، او يانصيب ،
او لمساعدة نجم مشهور وصل ، كنت أترك كل شىء وأشرع
فى السعى . واذكر اننى ذات شتاء انهمكت فى الجرى
والسعى الى درجة اننى مرضت . . لن أنسى ابدا ذلك الشتاء !
أتذكر اية مسرحية ألفتها أنا وزوجتكم أنا بافلوفنا لصالح
منكوبى الحريق ؟

— فى أية سنة كان ذلك ؟

— منذ فترة ليست بعيدة . . فى تسعة وسبعين . . .

كلا ، فى سنة ثمانين على ما أظن ! مهلا ، كم عمر
ابنكم فانيا ؟

— خمسة ! — تصيح آنا بافلوفنا من غرفة المكتب .
— اذن فذلك كان منذ ست سنوات . . . نعم يا
أخى ، يا لها من اعمال كانت ! لم يعد الحال كما كان !
راحت تلك الشعلة !
ويستغرق لوبنيف وشاراميكين فى التفكير . وتتوهج الجمرة
المحترقة للمرة الاخيرة ثم يكسوها الرماد .

الدبلوماسى

(مشهد)

لفظت زوجة المستشار الاسمى * آنا لفوفنا كوفالدينا
انفاسها . وراح الاقارب والمعارف يتشاورون :
— وما العمل الآن ؟ ينبغى ان نخطر زوجها . فرغم
انه فارقها الا انه كان يحب المرحومة . بل لقد جاءها
منذ فترة وركع امامها على ركبتيه ضارعا : «متى تغفرين
لى يا آنا هوى لحظة ؟» وغير ذلك من هذا القبيل .
ينبغى ان نخطره . . .

وقالت عمتها الباكية مخاطبة العقيد بسكاريوف الذى
كان يشترك فى المشاورة العائلية :
— يا أريستارخ ايفانيتش ، ! انت صديق ميخائيل
بتروفيتش . اصنع معروفا واذهب اليه فى الادارة وابلغه بهذه
المصيبة ! لكن أرجوك يا عزيزى لا تصدمه دفعة واحدة ،
والا فقد يحدث له شىء . انه رجل مريض . مهد للخبر
فى البداية ، وبعد ذلك . . .

* من الرتب المدنية الدنيا فى روسيا القيصرية وتعادل رتبة
النقيب العسكرية . المعرب .

ارتدى العقيد بسكاريوف العمرة وتوجه الى ادارة السكك الحديدية حيث كان يعمل الأرمل الحديث العهد . ووجدته يعد الميزانية .

— تحياتى لميخائيل بتروفتش ، — قال وهو يجلس الى طاولة كوفالدين ويمسح عرقه . — مرحبا يا عزيزى . يا للغبار فى الشوارع ، اعوذ بالله ! اكتب ، اكتب . . . لن أعطلك . . . سأجلس قليلا ثم انصرف . . . كنت مارا من هنا فقلت لنفسى : ان ميشا يعمل هنا ! فلأمر عليه ! وبالمناسبة . . . انا بحاجة اليك فى مسألة . . .

— اجلس هنا يا أريستارخ ايفانيتش . . . انتظرنى قليلا . . . سأفرغ بعد ربع ساعة ، وعندئذ نتحدث . . . — اكتب ، اكتب . . . أنا جئت هكذا . . . مرورا عابرا . . . سأقول لك كلمتين . . . ووداعا !

وضع كوفالدين الريشة جانبا واستعد للانصات . وحك العقيد رقبته خلف الياقة واستطرد :

— الجو خائق لديكم هنا ، اما فى الشارع فجنة حقيقية . . . الشمس ، والنسيم اللطيف ، أتدرى . والطيور . . . انه الربيع ! كنت سائرا الى سبيلى فى البوليفار . . . أتدرى ، وكان مزاجى رائعا ! فانا رجل حر ، أرمل . . . أينما أريد أذهب . . . اذا اردت ذهبت الى الحانة ، واذا أردت ركبت ترام الخيل جيئة وذهابا . . . ولا أحد يجرو على ايقافى ، ولا أحد يعول ورائى فى المنزل . . . كلا يا أخى ، ليس هناك أحسن من حياة العازب . . . حرية ! انطلاق ! تتنفس وتشعر أنك تتنفس ! سأعود الآن الى البيت . . . فلا شىء . . . لا أحد يجرو ان يسألنى أين كنت . . . أنا سيد نفسى . . .

الكثيرون يا اخى يمتدحون الحياة الزوجية ، ولكنى اعتقد انها اسوأ من الاشغال الشاقة . . هذه الاحاديث عن الموضة والكورسيهات والقيل والقال ، والزعيق . . وبين لحظة واخرى الضيوف . . والأولاد يقفزون خارجين الى الدنيا الواحد تلو الآخر . . والنفقات . . . اخص !

قدمم كوفالدين وهو يتناول الريشة :

— سأفرغ حالا . . .

— اكتب ، اكتب . . . حسنا لو وفقت الى زوجة ليست

شيطانا ، ولكن ماذا لو انها ابليس فى تنورة ؟ ماذا لو كانت من اولئك اللواتى لا يتوقفن عن الازير والطين ليل نهار ؟ . . اذن ستصرخ مستنجدا ! انظر ، انت على سبيل المثال . . عندما كنت عازبا كنت انسانا مثل البشر ، وما أن تزوجت من زوجتك حتى تدهورت ، وأصبحت منطويا . . . لقد فضحتك فى المدينة كلها . . وطردتك من البيت . . . فأى خير فى هذا ؟ ان زوجة مثلها لا تستحق حتى الشفقة . . . فقال كوفالدين متنهدا :

— كنت انا المذنب فى انفصالنا لا هى .

— دعك من ذلك أرجوك ! اننى اعرفها جيدا !

امراة شريرة ، متغطسة ، خبيثة ! كل كلمة سم زعاف ، كل نظرة خنجر حاد . . أما اللؤم الذى كان فى المرحومة فشئ لا يمكن وصفه !

فاتسعت عينا كوفالدين وهو يسأل :

— ماذا تعنى بالمرحومة ؟

فاستدرك بسكاريوف محمرا :

— وهل قلت المرحومة ؟ ابدا ، أنا لم أقل ذلك . .

ماذا دهاك يا اخي . . اتق الله . . ما لك شحبت ! هىء ،
هىء ، اسمع بأذنك ولا تسمع ببطنك !
— هل كنت عند أنيوتا اليوم ؟

— نعم ، زرتها فى الصباح . . كانت راقدة . . تصرخ
فى الخدم . . تارة لم يقدموا لها هذا الشىء كما يجب ،
وتارة ذاك . . امرأة لا تطاق ! لا أفهم ما الذى جعلك
تحبها . . لو أن الله يهديها فتطلق سراحك ايها المسكين . .
اذن لعشت حرا وتمتعت . . ولتزوجت غيرها . . طيب ،
طيب سأسكت ! لا تعبس ! انا لا أقصد . . مجرد كلام
عواجيز . . أنت تعرف رأى . . اذا شئت أحب ، واذا
لم تشأ لا تحب . . أنا لا ارجو لك الا الخير . انها لا
تعيش معك ، ولا تريد أن تعرفك . . أية زوجة هذه ؟
قبيحة ، هزيلة ، سيئة الطباع . . لا تستحق الشفقة . .
فليكن . . .

فقال كوفالدين متنهدا :
— من السهل عليك أن تتحدث يا أريستارخ يفانيتش !
الحب ليس شعرة ، لا يمكن انتزاعه ببساطة .
— وهل فيها ما يُحَب ! انك لم تر منها غير اللؤم .
لا تؤاخذ عجوزا مثلى ، فأنا لم أحبها . . لم اكن أطيق
رؤيتها ! عندما أمر بجوار بيتها أغمض عيني حتى لا أراها . .
نهايته ! رحمها الله وأسكنها فسيح جناته . . لم أكن أحبها
فليغفر لى الله ذنبى !

فقال كوفالدين ممتقعا :
— اسمع يا أريستارخ ايفانيتش هذه ثانى مرة يزل
فيها لسانك . قل لى . . هل ماتت ؟

— كيف ماتت ؟ لم يمت أحد . . . كل ما فى الأمر
أننى لم اكن أحب المرحومة . . . اخص ! اعنى ليس
المرحومة . . . بل زوجتك ، أنا . . .
— ماذا حدث لها ، هل ماتت ؟ لا تعذبى يا
أريستارخ ايفانيتش ! انك تبدو منفعلا بصورة غريبة ،
تتخبط فى الكلام . . . وتمتدح حياة العزوبية . . . هل ماتت ؟
نعم ؟

فتمتم بسكاريوف وهو يسعل :
— هكذا ، مرة واحدة ماتت ! يا لك من متسرع
يا أخى . . . ولنفرض أنها ماتت ! كلنا سنموت ، وهى
أيضا مصيرها الى الموت . . . وأنت ستموت ، وأنا . . .
احمرت عينا كوفالدين وامتلأتا بالدموع ، وسأل بصوت
خافت :

— فى أية ساعة ؟
— ليس فى أية ساعة . . . ما أسرع دموعك ! . . .
لم تمت ! من الذى قال لك انها ماتت ؟
— أريستارخ ايفانيتش . . . أرجوك . . . لا تشفق علىّ !
— لا يا أخى ، انت لا يمكن الكلام معك ،
كأنك طفل . هل قلت لك أنها ماتت ؟ هل قلت لك ؟
تسترسل فى البكاء ؟ اذهب وافرح بها . . . سالمة غانمة !
عندما زرتها كانت تتشاجر مع عمتها . . . كان الأب ماتفى
يقيم قداس الجناز بينما صياحها يملأ البيت كله .
— أى قداس ؟ ولماذا يقام ؟

— القداس ؟ أبدا ، هكذا . . . يعنى بدلا من الصلاة .
اقصد . . . لم يكن هناك أى قداس ، بل شىء ما هكذا . . .

لم يكن هناك شيء .
ارتبك أريستارخ ايفانيتش ، فنهض ، واستدار الى
النافذة وراح يسعل .
— عندى سعال يا أخى . . لا أدرى اين أصبت
بالبرد . .

ونهض كوفالدين ايضا وأخذ يروح ويجىء بعصية
بجوار الطاولة .

وقال وهو يعث بلحيته بيدى مرتعشتين :
— انك تلف وتدور . . الآن فهمت . . فهمت كل
شء . . ولا أدرى لم كل هذه الدبلوماسية ! لماذا لا تقول
مباشرة ؟ ماتت ، أليس كذلك ؟
فهز بسكاريوف كتفيه :

— هم . . . كيف أقول لك ؟ ليس تماما ماتت
وانما هكذا . . أوه ، ها انت تبكى ! ألسنا كلنا سنموت !
ليس الموت مكتوبا عليها وحدها ، كلنا سنرحل الى الدار
الآخرة ! وبدلا من البكاء أمام الناس . . هلا ذكرت روحها
بالرحمة ! هلا رسمت الصليب !

ظل كوفالدين يحدق فى بسكاريوف ببلاهة حوالى
نصف دقيقة ، ثم امتقع بشدة ، وسقط فى مقعده وانفجر
فى بكاء هستيرى . . . وقفز زملاؤه الموظفون من خلف مكاتبهم
وأسرعوا لنجدته وحك بسكاريوف قفاه وعبس .

ودمدم ماذا يديه :
— التعامل مع هؤلاء السادة مصيبة . . اى والله ! . .
يعول . . فلماذا يعول ؟ ميشا ، ماذا دهاك ؟ ميشا ! —
وأخذ يهز كوفالدين . — انها لم تمت بعد ! من قال لك

انها ماتت ؟ بالعكس ، يقول الاطباء انه ما زال هناك
أمل . . . ميشا ! يا ميشا ! أقول لك انها لم تمت !
أتريد ان نذهب اليها سويا ؟ هيا وعندئذ سنلحق قداس
الجنائز . . . ماذا أقول ؟ لا اقصد القداس بل الغداء .
ميشا ، اؤكد لك انها ما زالت حية ! فليعاقبنى الله ان
كنت كاذبا ! فليحرمنى نعمة البصر ! ألا تصدقنى ؟ اذن
فهيما نذهب اليها . . . وعندئذ اعتبرنى ما شئت اذا لم . . .
من أين جاء بهذا ، لا أفهم ! أنا اليوم كنت بنفسى
عند المرحومة ، اقصد ليس المرحومة انما . . . اخص !
واشاح العقيد بيده وبصق وخرج من الادارة . وعندما
وصل الى شقة المرحومة تهالك على الكنبه وشد شعره .
وصاح فى أسى :

— اذهبوا اليه أنتم ! مهّدوا انتم للنبا واعفونى من
ذلك ! انا لا أريد ! لم أقل له سوى كلمتين . . . مجرد
تلميح . . . فانظروا ماذا جرى له ! انه يموت ! فقد وعيه !
لن أقبل أبدا فى المرة القادمة . . . اذهبوا أنتم ! . . .

المتمارضون

فى أحد أيام الثلاثاء من شهر مايو كانت زوجة الجنرال مارفا بتروفنا بتشونكيئا ، التى تمارس العلاج الهوميوباتى منذ عشر سنوات ، تستقبل المرضى فى غرفة مكتبها . وعلى الطاولة أمامها كان صندوق صيدلية الادوية الهوميوباتية وكتاب وصفات العلاج وفواتير الصيدلية . وعلى الجدران علقت تحت الزجاج فى اطر مذهبة رسائل طبيب هوميوباتى ما من بطرسبرج كان مشهورا جدا فى رأى مارفا بتروفنا ، بل وعظيما ، وصورة الأب أريستارخ الذى تدين له زوجة الجنرال بخلاصها ، أى بالكف عن العلاج المألوف وادراك الحقيقة . وفى الردهة ينتظر المرضى جالسين ، ومعظمهم من الفلاحين . وجميعهم ما عدا اثنين أو ثلاثة ، حفاة ، لأن زوجة الجنرال تأمرهم بأن يتركوا احذيتهم النتنه فى الفناء . كانت مارفا بتروفنا قد استقبلت عشرة اشخاص ، وها هى تستدعى الحادى عشر :

— جافريلا جرورد !

ويفتح الباب ، وبدلا من جافريلا جرورد ، يدخل الغرفة زاموخريشين ، جار زوجة الجنرال ، من الاقطاعيين المفلسين ، عجوز ضئيل الجسم ، ذو عينين كابيتين ،

ونحت أبطة قبعة البلاء . . . ويضع العصا في الركن ويقترب
من زوجة الجنرال ، وفي صمت يركع على إحدى ركبتيه
أمامها .

فتفزع زوجة الجنرال وتتضرع حمرة :
— ما هذا ! ما هذا يا كوزما كوزميتش ! أرجوك لا
داعي !

فيقول زاموخريشين مقبلا يدها :
— لن أنهض ما دمت حيا ! فليراني الناس كلهم
راكعا أمامك ، يا ملائكة الحارس ، يا راعية جنس بني
البشر ! ليروني ! الساحرة الخيرة التي وهبتني الحياة ، وارشدتني
إلى السبيل القويم ، وأنارت ظلمات يأسى ، هذه الساحرة
مستعد أن أقف أمامها لا على ركبتى بل وفي النار أيضا ،
يا شافية جراحنا الرائعة ، يا أم اليتامى والأرامل ! لقد
شفيت ! بعثت حيا أيتها الساحرة !

فتقدم زوجة الجنرال وهي تتضرع من السرور :
— أنا . . . أنا سعيدة جدا . . . ما أطيب أن أسمع
هذا . . . اجلس من فضلك ! ولكنك في الثلاثاء الماضي
كنت مريضا جدا !

فيقول زاموخريشين :
— أوه كم كنت مريضا ! مجرد التذكر شيء مرعب !
كان الروماتيزم ممسكا بكل أطرافي وأعضائي . ثمانى سنوات
أتعذب ، لم أذق للراحة طعما . . . لا ليلا ولا نهارا يا
ربة نعمتى ! ترددت على الأطباء ، وسافرت إلى البروفيسورات
في كازان ، وتعالجت بمختلف أنواع الطين ، وشربت
المياه المعدنية . لم أترك شيئا إلا تجربته ! وضيعت ثروتى

عليّ العلاج يا سيدتي الجميلة . هؤلاء الأطباء لم يعودوا
عليّ بشيء الا بالضرر . حبسوا الداء في جسمي . . صحيح
أنهم حبسوه . . ولكن علومهم ليست قادرة على اخراجه . .
هؤلاء اللصوص لا يحبون الا الاستيلاء على النقود ، أما
آلام الانسان فلا تحرك شيئا في نفوسهم . يصف لك الدجال
منهم شيئا ما ، وعليك أن تشربه . باختصار هم قتلة !
ولولاك يا ملائكتنا ، لكنت الآن في القبر ! عدت من
عندك يوم الثلاثاء الماضي ، ونظرت الى الحبات التي اعطيتنيها
يومها وقلت لنفسى : «أى فائدة منها ؟ أمن المعقول أن
هذه الحبيبات التي لا تكاد ترى يمكن أن تشفيني من
مرضى الهائل القديم ؟» . ورحت ابتسم وأنا أفكر ، يالئ
من ضعيف الايمان ، وما أن تناولت حبة حتى ظهر الأثر
فورا ! كأنما لم أكن مريضا ، كأنما يد مسحت الداء
عني . وحدثت زوجتي في بعينين جاحظتين وهي لا تصدق :
«اهذا انت يا كوليا حقا ؟» فقلت لها : «نعم أنا» . وركعنا
معا أمام الايقونة ورحنا نصلى لملائكتنا : «فلتعطها يا رب
كل ما نتمناه لها في نفوسنا !» .

ويمسح زاموخريشين عينيه براحته ، وينهض من على
المقعد ، ويبدو أنه ينوى الركوع مرة اخرى على احدى ركبتيه ،
ولكن زوجة الجنرال تستوقفه وتجلسه .

— لا توجه الشكر اليّ . . — قالت وهي تتخرج بحمرة
الانفعال وتنظر باعجاب الى صورة الأب أريستارخ . — ما
أنا الا أداة طيعة . . . يا لها من معجزات ! روماتيزم قديم ،
من ثماني سنوات ويزول من حبة واحدة !
— لقد تكرمت واعطيتني ثلاث حبات . أخذت حبة

في العناء ، ، وفورا ران ! والثانية أحدثها في المساء ،
والثالثة في اليوم التالى . . . ومن ساعتها لم أشعر بشيء !
ولا حتى بوخزة ! مع أنى كنت استعد لملاقاة الموت ،
حتى أنى كتبت لابنى فى موسكو أن يأتى ! ألهمك الله
يا شافية الجراح ! ها أنذا أسير وكأنى فى الجنة . . . فى
ذلك الثلاثاء عندما كنت عندك كنت أعرج ، أما الآن
فعلى استعداد ولو لمطاردة أرنب . . . مائة سنة أخرى أستطيع
ان اعيش ! شيء واحد يؤرقنى : قلة الموارد . ها أنذا
صحيح الجسم ، فما جدوى الصحة اذا كنت لا تجد
ما تعيش به ؟ العوز أرهقنى أكثر من المرض . . . إليك مثلاً
على ذلك هذا الأمر . . . الآن أوان بذر الجودار ، فكيف
تبذره وليس لديك بذور ؟ ينبغي ان أشتري ، ولكن النقود . .
أى نقود لدينا . . .

— سأعطيك جوداراً يا كوزما كوزميتش . . . اجلس ،
اجلس . كم أذهلتنى ، وأية سعادة منحتنى ، انا التى
يجب أن اشكرك لا أنت !

— أنت سعادتنا ! كيف خلق الرب كل هذه الطيبة !
فلتفرحى يا سيدتى وانت تنظرين الى اعمالك الطيبة !
أما نحن المساكين فليس لدينا ما يفرحنا . . . نحن قوم
صغار ، فقراء الروح ، لا نفع منا . . . تافهون . . . نحن
نبلاء اسما فقط ، أما ماديا فنحن كهؤلاء الفلاحين ،
بل اسوأ . . . نعيش فى بيوت حجرية ولكن ذلك فى الحقيقة
سراب . . . لأن السقف مثقوب تتسرب منه المياه . . . وليس
لدينا ما نشتري به الخشب .

— سأعطيك خشباً يا كوزما كوزميتش .

ويحصل زاموخريشين كذلك على بقرة ، وخطاب توصية لابنته التي يعترم الحاقها بمعهد و . . . ويغلبه التأثر من كرم زوجة الجنرال فيشهق باكيا ويتقلص فمه ، ويدس يده في جيبه ليخرج المنديل . . . وترى زوجة الجنرال ورقة حمراء تخرج من جيبه مع المنديل وتسقط على الأرض دون صوت . ويتمتم زاموخريشين :

— لن أنسى أبد الدهر . . . وسأوصي أولادى وأحفادى ان يذكروا . . . وكل الأجيال . . . ها هي يا أولادى تلك التي انقذتني من القبر ، تلك التي . . .

وبعد أن تودع زوجة الجنرال مريضها تقف دقيقة تحديق في الأب اريستارخ بعينين مغرورقتين بالدموع ، ثم تطوف بنظرة رقيقة ممتنة على الصيدلية ، وكتب العلاج ، والفواتير ، والكرسى الذى كان يجلس فيه منذ قليل الرجل الذى انقذته من الموت ، ويقع بصرها على الورقة التي سقطت من جيب المريض . وترفع زوجة الجنرال الورقة وتفحصها ، فترى فيها ثلاث حبات ، تلك الحبات نفسها التي اعطتها لزاموخريشين في الثلاثاء الماضى .
وتقول مستغربة :

— انها هي نفسها . . . حتى الورقة هي بعينها . . . انه حتى لم يفحصها ! ما الذى تناوله اذن ؟ غريبة . . . لا يمكن أن يكون قد خدعنى !

ولأول مرة خلال عشر سنوات من الممارسة يتسرب الشك الى نفس زوجة الجنرال . . . وتستدعى بقية المرضى ، وتلاحظ وهي تتحدث معهم عن أمراضهم ما كان يغيب عن سمعها من قبل . فجميع المرضى بلا استثناء ، وكأنما

اتفقوا على ذلك ، يمجّدونها في البداية على شفائهم المدهش ،
ويبدون اعجابهم بحصافتها الطبية ، ويسبون الأطباء العاديين ،
وبعد ذلك ، وعندما يتضرع وجهها من شدة الانفعال ،
يبدأون في شرح مطالبهم . فأحدهم يسألها قطعة أرض
ليزرعها ، والآخر قليلا من الحطب ، والثالث يرجوها ان
تسمح له بالصيد في غاباتها . . . الخ . وتتطلع زوجة الجنرال
الى وجه الأب اريستارخ العريض السمح الذي هداها الى
الحقيقة ، وتأخذ حقيقة أخرى في تعذيب روحها . . حقيقة
كريهة ، ثقيلة . . .
ما أخبث الانسان !

البربوط *

صباح صيفى . والجو ساكن ، الا من أزيز جندب
على الشاطئ ، وفى مكان ما يزقزق عصفور صغير بوجل .
وفى السماء تقف سحب زغبية جامدة ، تشبه ندف الثلج
المبعثر وبجوار حمام يجرى بناؤه ، وتحت اغصان
الصفصاف الخضراء يتخبط فى الماء النجار جيراسيم ، وهو
فلاح طويل نحيف ، بشعر أحمر مجعد ، ووجه مغطى
بالشعر . ويزحر ويزفر ، ويغمز بعينه بشدة ، وهو يحاول
أن يستخرج شيئاً ما من تحت جذور الصفصاف . ووجهه
مغطى بالعرق . وعلى بعد ذراع من جيراسيم يقف غائصا
فى الماء حتى زوره النجار لوبيم ، وهو فلاح شاب أحذب ،
بوجه مثلث وعينين ضيقتين صينيتين . وكل من جيراسيم
ولوبيم يقفان بالقمصان والسراويل . وكلاهما ازرقّ جلده من
البرد لأنهما يقفان فى الماء منذ أكثر من ساعة
ويصيح لوبيم الأحذب وهو يرتعش كالمحموم :
— ما لك تتحسس بيدك كالأعمى ؟ شغل مخك !

* البربوط — سمك نهري من فصيلة القد . المغرب .

امسكه ، امسكه والا أفلت هذا الملعون ، امسكه قلت لك !
فيقول جيراسيم بصوت أبح مكتوم صادر لا من حلقه
بل من أعماق بطنه :

— لن يفلت . . الى أين يذهب ؟ انحشر تحت
الجذر . . يا له من أملس ، هذا الشيطان ، لا تعرف
من أين تمسكه .

— امسكه من خشمه ، من خشمه !
— خياشيمه لا تظهر . . مهلا . . امسكته من موضع . .
من شفته امسكته . . انه يعض ، هذا الشيطان !
— لا تشده من شفته ، لا تشده والا أفلت !
امسكه من خشمه ، من خشمه امسكه ! عدت تتحسس
بيدك كالاعمى ! أما فلاح غبى ، رحمتك يا رب ! امسكه !
فيقلده جيراسيم مشاكسا :

— «امسكه» . . . حضرته عامل رئيس . . تعال امسكه
انت ، ايها الشيطان الأحذب . . ما لك واقف ؟
— لو كنت اقدر لأمسكته . . وهل استطيع بجسمي
هذا أن انزل تحت الشاطئ ؟ المياه عميقة هناك !
— لا يهم انها عميقة . . اسبح . .

ويضرب الأحذب بذراعيه ويسبح حتى يبلغ جيراسيم ،
ويتشبث بالأغصان . وما أن يحاول الوقوف على قدميه حتى
يغوص في الماء ويبقبق .

ويقول وحدقتا عينيه تدوران بغضب :
— ألم اقل لك عميقة ! أجلس على رقبتك يعنى ؟
— ضع قدميك على جذر . . الجذور هنا كثيرة —
كدرجات السلم . .

ويتحسس الأحذب بكعبه حتى يعثر على جذر ،
فيفق عليه بعد أن يتشبث بعدة غصون معا . . . ويحفظ
توازنه ، وبعد أن يتمركز فى الموقع الجديد ينحنى محاولا
الا يدخل الماء فمه ، ويروح يفتش بيده اليمنى بين الجذور .
وتشتبك يده بالأعشاب المائية ، وتنزلق على الطحلب
الذى يغطى الجذور ، ثم تصطدم بمخالب سرطان
حادة . . .

— لم يكن ينقصنا سواك ايها الشيطان ! — يقول
لوبيم ويلقى السرطان بغضب الى الشاطئ .
وأخيرا تعثر يده على يد جيراسيم ، فتهبط معها حتى
تصل الى شئ أملس بارد .
ويبتسم لوبيم قائلا :

— ها هو ! كبير هذا الشيطان . . افتح اصابعك سوف
امسكه . . من خشمه . . حاسب ، لا تدفع بكوعك . .
حالا . . سأمسكه . . انتظر حتى اقبض عليه . . لقد انحسر
هذا الشيطان تحت الجذر بعيدا . . لا أصل الى رأسه . .
ليس هناك الا بطن . . اقتل البعوضة على رقبتى . . آه تلسعنى !
سأمسكه . . حالا . . من خشمه . . تعال من الجنب ،
ادفعه ، ادفعه ! انغزه باصبعك !

نفخ الأحذب شذقيه ، وكنم أنفاسه ، وحملت عيناه ،
وبدا وكأنه يوشك على دس اصابعه «تحت خشمه» ، الا
ان الأغصان التى كان متشبثا بها بيده اليسرى تتكسر فجأة ،
فيفقد توازنه و . . يهوى فى الماء ! وتنطلق دوائر متموجة ،
مبتعدة عن الشاطئ وكأنها مذعورة ، وتتصاعد من موضع
السقوط الفقاقيع . ويطفو الأحذب وهو يزفر ويتشبث بالأغصان .

ويدمدم جيراسيم بصوته الأبح :
— المصيبة أن تفرق وأصبح انا المسئول ! . . اخرج
الى الشيطان من هنا ! أنا سأسحبه !
وينشب السباب . . . والشمس تحمى وتحمى ، وتصبح
الظلال أقصر وتنكمش على نفسها كقرون القوقعة . . وتتصاعد
من الاعشاب الطويلة التى سختها الشمس رائحة عسلية
قوية . وعما قريب ينتصف النهار بينما لا يزال جيراسيم
ولوبيم يتخبطان فى الماء تحت الصفصاف . ولا يكف
الصوت «الباص» الأبح ، و«التينور» الرفيع المقرر عن تعكير
سكون النهار الصيفى .

— اسحبه من خشمه ، اسحبه ! انتظر سأدفعه !
أين تدس كل هذه القبضة ؟ باصبعك لا بقبضتك يا بهيم !
تعال من الجنب ! من الشمال ادخل ، من الشمال ،
فى اليمين حفرة ، حاسب والا تعشى بك عفريت الماء !
اسحبه من شفته !

وتسمع فرقة سوط . . . وعلى الشاطئ المنبسط يسير
قطيع نحو المورد فى كسل ، يسوقه الراعى يفيم . يسير
الراعى ، هذا العجوز المتهالك ذو العين الواحدة والقم الملتوى ،
مطأطأ الرأس ينظر تحت اقدامه . وتصل الى النهر الشياه
أولا ، ثم تتبعها الخيول ، ومن خلفها البقر .

ويسمع الراعى صوت لوبيم :
— ادفعه من تحت ! مرر اصبعك ! هل أنت أطرش ؟

اخص ! — فيصيح يفيم :

— ماذا تطاردون يا اخوان ؟
— بربوطا ! لا نستطيع اخراجه . انحشر تحت الجذر !



ادخل من الجنب ! ادخل ، ادخل !
وينزر يفيم عينه الواحدة محدقا فى الصيادين لحظة ،
ثم يخلع حذاءه «اللابتى» * ، ويلقى بالكيس عن كتفه ،
وينزع قميصه . ولا يستطيع أن يصبر حتى يخلع سرواله
فيتزل به الى الماء وهو يرسم علامة الصليب ويحافظ على
توازنه بيديه النحيلتين السمرائين . . . ويسير حوالى خمسين
خطوة على القاع الطينى ، ثم يمضى سابحا .
ويصبح :

— انتظروا يا فتيان ! انتظروا ! لا تتعجلوا باخراجه
والا أفلت . . لا بد من المهارة !
وينضم يفيم الى النجارين ، ويروح ثلاثتهم يتزاحمون
فى مكان واحد وهم يدفعون بعضهم بعضا بالمرافق والركب
ويزحرون ويسبون . . . ويشرق لوبيم الأحذب بالماء فيجلجل
فى الجو سعال حاد متقلص .
ويسمع صياح من الشاطئ :

— أين الراعى ؟ يفيم ! يا راع ! أين انت ؟
القطيع دخل البستان ! اطرده ، اطرده من البستان !
اطرده ! أين هذا الشقى العجوز ؟

وتسمع أصوات رجال ، ثم صوت امرأة . . ويخرج
من وراء سياج بستان السادة الاقطاعى اندريه أندريتش مرتديا
روبا من الحرير الفارسى وممسكا بجريدة فى يده . . . وينظر

* حذاء كان يصنع من لحاء الاشجار ويتعله فقراء الفلاحين
فيما مضى فى روسيا . المغرب .

مستفهما نحو الأصوات الآتية من النهر ، ثم يسرع الخطى
نحو الحمام . . .

— ماذا هنا ؟ من يصيح ؟ — يسأل بصرامة وهو
يرى من خلال اغصان الصفصاف رؤوس الصيادين الثلاثة
المبللة — عمّ تبحثون هنا ؟
ويتمتم يفيم دون أن يرفع رأسه :
— سم — كة . . . نصطاد . . .

— سأريك كيف تصطاد ! القطيع دخل البستان
وهو يصطاد السمك ! متى تنتهون من بناء الحمام ايها
الشياطين ؟ منذ يومين تعملان ، فأين النتيجة ؟
فيزحر جيراسيم :

— سيكو — ن جاهزا . . . الصيف طويل ، ستمكن
من الاستحمام يا صاحب السعادة . . . بررر ، لا نستطيع
اخراج البربوط من هنا . . . دخل تحت الجذر وكأنما في
جحر ، لا وراء ولا قدام . . .
— بربوط ؟ — يسأل السيد وعيناه تبرقان — اذن هيا
اخرجه بسرعة !

— فلتعطنا نصف روبل . . . ونتركه لك . . . بربوط كبير . .
سمين كزوجة التاجر . . . يساوى نصف روبل يا صاحب السعادة . .
جزاء على تعبنا . . . لا تعصره يا لوبيم لا تعصره والا هلك !
ارفعه من تحت ! ارفع الجذر الى أعلى يا رجل انت . .
ما اسمك ؟ الى أعلى لا الى اسفل ايها الشيطان ! لا
تخطا بأرجلكما !

وتمضى خمس دقائق ، ثم عشر . . . ولا يستطيع
السيد أن يصبر أكثر ، فيصيح ملتفتا نحو الدار :

— يا فاسيلي ! يا فاسكا ! نادوا فاسيلي .
ويأتى الحوذى فاسيلي ركضا . يمضغ شيئا ما ويتنفس
بصعوبة .

فيأمره السيد :

— انزل الى الماء . . . ساعدهم فى اخراج البربوط . . .
لا يستطيعون اخراج بربوط !
ويتزع فاسيلي ملابسه بسرعة وينزل الى الماء .
ويتتمم :

— حالا ، حالا . . . أين البربوط ؟ حالا . . . فى
لمح البصر ! اذهب انت يا يفيم ! لا مكان لعجوز مثلك
هنا ، لا تتدخل فى أمر لا يخصك ! أين هنا البربوط ؟
أنا حالا . . . ها هو ! ارفعوا أيديكم !
— شاطر صحيح . . . بدونك نعرف . . . ارفعوا ايديكم
قال . . . طيب هيا اخرجه !
— وهل يمكن اخراجه هكذا ؟ لا بد من شدة من
رأسه !

— ورأسه تحت الجذر ! يا لك من غبى !

— كفى نباحا والا أريتك ! يا وغد !

فيتتمم يفيم :

— فى حضرة السيد تسب بهذه الكلمات . . . لن
تخرجه يا جماعة ! انحشر هناك بمهارة !
— انتظروا ، أنا قادم . . . — يقول السيد ويبدأ فى
نزع ملابسه على عجل . — اربعة حمقى ولا يستطيعون اخراج
بربوط !

وبعد أن يتزع أندريه أندريتش ملابسه ، يقف قليلا

ليبرد جسمه ، ثم ينزل الى الماء . ولكن تدخله لا يفيد
بشيء .

وأخيرا يقول لوبيم :

— لا بد من قطع الجذر ! اذهب يا جيراسيم وأحضر
الفأس ! هاتوا الفأس !
ويقول السيد عندما تتردد تحت الماء ضربات الفأس
على الجذر :

— لا تقطع أصابعك ! امش يا يفيم من هنا !
انتظروا ، انا الذى سأخرج البربوط ! . . . أنتم لستم . . .
وها هو الجذر قد اجتث الى نصفه . ويكسرونه قليلا ،
ويشعر اندريه اندريتش ، بسرور بالغ ان اصابعه تدخل
فى خياشيم البربوط .

— اننى اشدّه يا جماعة ! لا تتزاحموا . . . قفوا . . .
أنا اسحبه !

ويظهر فوق صفحة الماء رأس بربوط كبير ، ثم جسمه
الأسود بطول ذراع . ويحرك البربوط ذيله بصعوبة محاولا
ان يتملص .

— دعك من هذا يا أخى . . . لا يمكن ان تفلت !
وقعت ؟ هكذا !

وترتسم على الوجوه كلها ابتسامة عسلية . وتمر دقيقة
فى تأمل صامت .

ويتمتم يفيم وهو يحك صدره :

— بربوط عظيم ! حوالى عشرة أرتال . . .

فيقول السيد موافقا :

— نعم . . . انظر الى كبده كم هى ممتلئة . . . تكاد

تقفز من داخله . . . آه !

وفجأة يأتى البربوط بحركة حادة مباغطة بذيله الى أعلى ،
ويسمع الصيادون صوت ارتطام شديد بالماء . . ويمد الجميع
أيديهم ، ولكن بعد فوات الأوان . . . اذ لم يعد للبربوط
أثر .

الصيد

قيلولة قائظة خانقة . ولا سحابة فى السماء . . . والعشب الذى احرقته الشمس يبدو كثيبا بائسا : فحتى لو سقط المطر فلن تعود اليه الخضرة . . . والغابة تقف بأشجارها صامته ، جامدة ، وكأنما تحقق ذؤاباتها فى نقطة ما ، أو تنتظر حدوث شىء .

وعلى حافة الغابة يسير رجل طويل القامة ، ضيق المنكبين ، فى حوالى الاربعين من عمره ، فى قميص أحمر وبنطال مرقع من بناطيل سيده ، وحذاء طويل كبير . يسير على الطريق فى كسل وبخطوة مترخية . وعن يمينه تلوح الغابة الخضراء ، وعن يساره وحتى الأفق يمتد بحر ذهبى من الحنطة الناضجة . . . والرجل أحمر الوجه ، عرقان . وعلى قفاه الأشقر الجميل تستقر عمرة بيضاء بمقدمة مستطيلة كمقدمات عمرات الجوكية ، والظاهر أنها هدية من أحد السادة أهداها له فى لحظة كرم حاتمى . ومن كتفه يتدلى كيس صيد يرقد فيه محشورا ديك برى . ويمسك الرجل فى يديه ببندقية بماسورتين مرفوعة الزناد ، ويزر عينيه محدقا فى كلبه العجوز الهزيل الذى يركض أمامه ويتشمم الأحراش . والسكون من حوله مطبق ، لا يعكره صوت . . . لقد اختبأ من الحر كل ما هو حي .

وفجأة يسمع الصياد صوتا خافتا :

— يجور فلاسيتش !

فيستفض ، ويلتفت خلفه ، ثم يقطب حاجبيه .
وبجواره ، وكأنما انشقت عنها الأرض ، تقف امرأة شاحبة
الوجه ، فى حوالى الثلاثين ، ممسكة بمنجل فى يدها .
وتحاول أن تحدد فى وجهه ، وتبتسم بخجل .
فيقول الصياد متوقفا وهو ينزل الزناد ببطء :

— آه ، أهو أنت يا بيلاجيا ! هم ! . . كيف جئت
الى هنا ؟

— هنا تعمل نساء من قريتنا ، وأنا معهن . . عاملات
يا يجور فلاسيتش .

— طيب . . . — يهمهم يجور فلاسيتش ، ثم يواصل
سيره ببطء .

وتتبعه بيلاجيا . يسيران فى صمت حوالى عشرين
خطوة .

— لم أرك من مدة طويلة يا يجور فلاسيتش . . . —
تقول بيلاجيا وهى تتطلع بحنان الى كتفى الصياد المتحركتين
وظهره . — من يوم أن دخلت البيت فى عيد الفصح لتشرب
ماء ، من يومها لم نرك . فى عيد الفصح جئنا لدقيقة . .
وفوق ذلك كنت فى . . . حالة سكر . . . شتمتنى وضربتني
وانصرفت . . . وما أكثر ما انتظرتك ! . . كل بصرى من
النظر وأنا انتظرك . ايه يا يجور فلاسيتش ! ظل على ولو
مرة !

— وما الذى أفعله عندك ؟

— صحيح ليس هناك ما تفعله . . عندك حق . .

ومع ذلك فهناك البيت وأموره . . . تعال انظر . . . فأنت السيد . . .
آه ، اصطدت ديكاً . يا يجور فلاسيثش ! ألا تجلس
لتستريح قليلاً . . .

تقول بيلاجيا ذلك وهى تضحك كالبلهاء وتتطلع الى
اعلى ، الى وجه يجور . . . وينضح وجهها بالسعادة . . .
— أجلس ؟ ممكن . . . — يقول يجور بنبرة لامبالية ،
ويختار موضعاً بين شجرتى شوح . — ما لك واقفة ؟ اجلسي
أنت ايضاً !

وتجلس بيلاجيا على مسافة منه تحت الشمس اللافتحة
وتخفى بيدها فمها المبتسم وهى تخجل من فرحتها . وتمر
دقيقتان من الصمت .

ثم تقول بيلاجيا بصوت خافت :
— ظل علينا ولو مرة !

فيتنهد يجور وينزع عمرته ، ويمسح بكمه جبينه الأحمر
ويقول :

— وما الداعى ؟ لا حاجة الى ذلك البتة . اذا جئت
لساعة أو ساعتين فهذا تعب لا طائل منه . . . سأثيرك فقط . . .
أما الإقامة الدائمة فى القرية فلا تطيقها روحى . . . انت تعرفين
اننى رجل مدلل . . . يلزمنى ان انام على سرير ، واتناول شاياً
جيداً ، وبحاجة الى أحاديث مهذبة . . . انا بحاجة الى
كل وسائل الرفاهية . . . فماذا لديك فى قريرتك غير الفقر
والهباب . . . لن اتحمل يوماً واحداً . ولو صدر اليّ ، مثلاً ،
أمر يحتم علىّ العيش عندك لأحرق الدار أو انتحرت .
أنا مدلل من صغرى ، ولا حيلة لى فى الأمر .
— وأين تعيش الآن ؟

— عند السيد ديمترى ايفانيتش ، أعمل صيادا .
أقدم الطيور البرية لمائدته . . ولكنه عموما يستبقينى للمتعة . . .
— هذا العمل لا يليق بمقامك يا يجور فلاسيتش . .
الناس تنظر اليه كلهو ، بينما تعتبره أنت حرفة . . تراه عملا
حقيقيا . . .

فيقول يجور وهو يتطلع الى السماء حالما :
— انت لا تفهمين ذلك يا غبية . لم تفهمى ولن
تفهمى ابدا أى رجل أنا . . أنا فى رأيك رجل طائش ،
ضال ، أما الذين يفهمون فأنا بالنسبة لهم أحسن قناص
فى الناحية . السادة يدركون ذلك ، بل وكتبت عنى احدى
المجلات . لا يوجد ند لى فى مجال الصيد . . أما كونى
احتقر مهنتكم الفلاحية فليس ذلك لأنى مدلل أو متكبر .
انك تعرفين ، اننى منذ صغرى لم اعرف عملا غير البندقية
والكلاب . ولو اخذوا منى البندقية لأمسكت بالسنارة ،
ولو اخذوا السنارة فسأصطاد بيدي . وكنت اكسب أيضا من
الخيول ، كنت أطوف بالأسواق عندما يكون معى نقود .
وانت تعرفين ان الفلاح اذا ما وهب نفسه للصيد أو للخيول
فعلى المحراث السلام . واذا تقمصت الانسان روح الحرية
فلن يستطيع احد اخراجها منه . وأيضا اذا وهب أحد السادة
نفسه للتمثيل أو أى نوع آخر من الفنون ، فلن يصبح أبدا
موظفا أو اقطاعيا . انت يا امرأة لا تفهمين ، وهذا شئ
يتطلب الفهم .

— أنا فاهمة يا يجور فلاسيتش .
— معنى ذلك انك لا تفهمين طالما تشرعين فى
البكاء . . .



— انا . . . انا لا أبكى . . . — تقول بيلاجيا مستديرة عنه بوجهها . — حرام يا يجور فلاسيتش ! ابق ولو يوما واحدا معي انا التعيسة . اثنتا عشرة سنة مرت منذ ان تزوجتك و . . ولم يكن بيننا حب ولا مرة واحدة ! انا . . . انا لا أبكى ! . . . ويدمدم يجور وهو يحك ذراعه :

— حب . . . لا يمكن ان يكون بيننا أى حب . انا وانت متزوجان بالاسم فقط ، فهل فعلا نحن كذلك ؟ انا بالنسبة لك رجل متوحش ، وانت بالنسبة لى امرأة بسيطة لا تفهم . هل نحن زوج ؟ انا رجل حر ، مدلل ، جوال ، وأنت كادحة ، فلاحه ، تعيشين فى القذارة ، محنية الظهر دائما . انا اعتبر نفسى فى الصيد أول الجميع ، أما أنت فتنظرين الىّ باشفاق . . فهل نحن زوج ؟ فتقول بيلاجيا وهى تشهق بالبكاء :

— ولكننا متزوجان يا يجور فلاسيتش ! — متزوجان بالاكراه . . هل نسيت ؟ اشكرى الكونت سرجى بافليتش على ذلك و . . نفسك . فبسبب الغيرة من انى أرمى أحسن منه ظل الكونت يسقيني الخمر شهرا كاملا ليسكرنى ، ومن الممكن دفع السكران لا الى الزواج فحسب بل والى اعتناق دين آخر . وهكذا اراد ان ينتقم منى فزوجنى منك وأنا سكران . . زوج الصياد المحترف براعية ماشية ! كنت تعرفين اننى سكران فلماذا قبلت ؟ انت لست عبدة ، وكنت تستطيعين ان ترفضى ! طبعا زواج مربية الماشية بصياد محترف شىء مشرف ، ولكن كان ينبغى أن يكون لديك نظر . حسنا ، تعذبى الآن وابكى . الكونت يضحك وأنت تبكين . . اضربى الحائط برأسك . . .

وتحل لحظة صمت . وتطير فوق طرف الغابة ثلاث
بطات برية . ويتطلع يجور اليها ويتابعها بنظره الى أن تصبح
ثلاث نقاط لا تكاد ترى وتهبط بعيدا وراء الغابة .
ثم يحول نظره عن البطات الى بيلاجيا ويسألها :
— وبم تعيشين ؟

— الآن اخرج للعمل ، أما فى الشتاء فأخذ طفلا من
الملجأ واطعمه بالبرازة . ويعطوننى روبلا ونصف فى الشهر .
— هكذا . . .

ويعود الصمت من جديد . وتتناهى من الشريط المحصود
اغنية تنقطع فى بدايتها . فالحر لا يدع مجالا للغناء . . .
ثم تقول بيلاجيا :
— يقولون أنك بنيت لأكولينا بيتا جديدا .
ويصمت يجور .

— اذن فقلبك يميل اليها . . .
فيقول الصياد وهو يتمطى :
— هذا هو حظك ، وتلك سعادتك ! اصبرى يا
يتيمة . طيب ، وداعا ، أطلت فى الكلام . . . ينبغي أن
أكون مساء فى بولتوفو . . .
وينهض يجور ، ويتمطى ، ويتقلد البندقية . وتنهض
بيلاجيا .

وتسأل بصوت خافت :
— ومتى ستأتى الى القرية ؟
— لا داعى . لن آتى ابدا وأنا مفيق ، أما وأنا
سكران فلا فائدة منى لك . عندما أكون سكران أصبح
غضوبا . وداعا !

— وداعاً يا يجور فلاسيتش . . .

ويضع يجور العمرة على مؤخرة رأسه ويدعو الكلب بمصّة
من شفّيته ويواصل طريقه . وتقف بيلاجيا في مكانها تشيعة
بنظراتها . . . وترى عظام ظهره المتحركة وقفاه الفتى وخطوته
البطيئة اللامبالية فتمتلئ عيناها بالحزن والرقّة الحانية . . . وتنظف
نظرتها بقوام زوجها النحيل الطويل وتلاطفه وتهدهده . . .
وكأنما يحس هو بهذه النظرة فيتوقف ويلتفت . . . يقف
صامتاً ، ولكن بيلاجيا تشعر من وجهه وكتفيه المرتفعتين انه
يريد ان يقول لها شيئاً ما . فتقترب منه بوجل وتحقق
فيه بعينين ضارعتين .

فيقول لها وهو يستدير :

— اخذى !

ويمد لها روبلا مجدداً وينصرف بسرعة .

وتأخذ منه الروبل آلياً وهي تقول :

— الوداع يا يجور فلاسيتش !

ويسير في طريق طويل مستقيم كالحزام المشدود . . .
وتقف هي شاحبة جامدة كالتمثال ، وتلتهم بعينها كل خطوة
من خطواته . ها هو لون قميصه الأحمر يندمج بلون سرواله
الغامق ، ولا تبين خطواته ، ولا تميز الكلب عن حذائه .
لا ترى سوى العمرة فقط ، ولكن . . . ينعطف يجور فجأة
يمينا الى الغابة فتختفى العمرة في الخضرة .

— الوداع يا يجور فلاسيتش !

تهمس بيلاجيا وتشب على اطراف أصابعها كي ترى
ولو مرة أخرى العمرة البيضاء .

مع سبق الاصرار

أمام المحقق يقف فلاح صغير ، نحيف للغاية ،
فى قميص مقلم وسروال مرقع . ويبدو على وجهه الذى غطاه
الشعر وأكله النمش ، وعينه اللتين لا تكادان تظهران من
تحت حاجبيه الكثيفين المتهدلين ، تعبير صرامة عابسة .
وعلى رأسه كومة من الشعر الملبد الذى لم يمشط منذ زمن
طويل ، مما يضيف عليه مزيدا من الصرامة العنكبوتية .
وهو حافى القدمين .
ويبدأ المحقق :

— دينيس جريجوريف ! اقرب وأجب على اسئلتى .
فى السابع من يوليو الجارى كان حارس السكة الحديدية
ايفان سيميونوف اكينفوف يقوم بالتفتيش صباحا على الخط ،
فوجدك عند الكيلو ١٤١ متلبسا بفك صامولة من الصواميل
التي تثبت بها القضبان على الفلنكات . وها هى الصامولة !
وقد قبض عليك ومعك هذه الصامولة . هل هذا هو ما
حدث ؟

— أه ؟

— هل حدث هذا كما ذكر أكينفوف ؟

— معلوم ، حصل .

— طيب ، ولأى غرض فككت الصامولة ؟

— أه ؟

— دعك من «أهلك» هذه وأجب على السؤال :

لأى غرض فككت الصامولة ؟

يقول دينيس بصوت أبح وهو يتطلع الى السقف :

— لو لم اكن بحاجة اليها ما فككتها .

— وما حاجتك الى الصامولة ؟

— الصامولة ؟ نحن نصنع منها ثقالات السنانير . . .

— ومن هؤلاء «نحن» ؟

— نحن ، الناس . . . فلاحو الناحية يعنى .

— اسمع يا أخانا ، لا تتظاهر بالغباء وتكلم بصراحة .

كفاك كذبا بخصوص الثقالات !

فيدمدم دينيس وهو يطرف بعينه :

— أنا عمري ما كذبت ، فلماذا اكذب الآن . . .

وهل يمكن يا صاحب السعادة ان تصيد بدون ثقالة ؟

لو وضعت حشرة أو دودة فى السنارة فهل يمكن ان تغوص

الى القاع بدون ثقالة ؟ — ويضحك دينيس ضحكة قصيرة . —

اكذب قال . . . وأى فائدة من الطعم اذا بقى طافيا على

سطح الماء ؟ الفرخ والكراكى والبربوط دائما تعوم قرب القاع ،

واذا عام شىء عند السطح فليس الا الشيليشبيور وحتى هذا

نادر . . . الشيليشبيور لا يعيش فى نهرا . . . هذه السمكة

تحب الوسع . .

— ولماذا تحدثنى عن الشيليشبيور ؟

— أه ؟ طيب ، أصل حضرتك سألتنى ! السادة

أيضا عندنا يصطادون بهذه الطريقة . حتى أصغر عيل لن



يصطاد بدون ثقالة . طبعاً الذى لا يفهم هو الذى سيصطاد
بدون ثقالة . العبيط لا عتب عليه . . .
— اذن انت تعترف بأنك فككت هذه الصامولة
لكى تصنع منها ثقالة ؟

— مضبوط ! وهل لألعب بها !
— ولكنك تستطيع أن تستخدم للثقالة الرصاص ،
أو الرش . . أو أى مسمار . .
— الرصاص لن تجده ملقى على الطريق ، لازم
تشتريه ، والمسمار لا ينفع . ليس هناك أحسن ممن
الصامولة . . . فهى ثقيلة وبها خرم .
— كيف يتظاهر بالغباء ! كأنه ولد بالأمس أو هبط
من السماء . ألا تفهم أيها الأحق الى أى شىء يؤدى
فك الصواميل ؟ لو لم يكتشف الحارس ذلك لكان من
الممكن أن يخرج القطار عن القضبان ولمات الناس ! كنت
ستسبب فى قتل الناس !

— اعوذ بالله يا صاحب السعادة ! لماذا اقتلهم ؟
وهل نحن لا نعرف ربنا أم اننا اشرار ؟ الحمد لله يا صاحب
السعادة ، أنا عشت حياتى ولم اقتل احدا ولم أفكر حتى
فى ذلك . . يا ساتر يا رب ارحمنا . . كيف تقول ذلك !
— وما رأيك ، لماذا تقع حوادث انقلاب القطارات ؟
إذا فككت صامولتين أو ثلاثا وقع الحادث !

ويضحك دينيس ضحكة سخرية قصيرة ويزر عينيه
محدقا فى المحقق بارتياح .

— لا ! من سنين وكل أهل القرية يفكون الصواميل ،
وربنا سترها ، وحضرتك تقول : انقلاب القطارات ! . .

قتل الناس . . . لو أنى خلعت القضيب ، أو وضعت مثلاً
جذع شجرة بعرض القضبان فيمكن ساعته ينقلب القطار . . .
ولكن هذه مجرد صامولة ! شيء بسيط !
— الا تفهم ان الصواميل تثبت بها القضبان فى
الفلنكات !

— نحن نفهم هذا . . . اننا لا نفك كل الصواميل . .
نأخذ البعض ونترك الباقي . . . عندنا نظر . . فاهمين طبعاً . . .
ويتشاءب دينيس ويرسم علامة الصليب على فمه .
ويقول المحقق :
— فى العام الماضى خرج قطار عن القضبان هنا . . .
مفهوم الآن لماذا . . .

— ماذا تقول حضرتك ؟
— أقول مفهوم الآن لماذا خرج قطار عن القضبان
فى العام الماضى . . الآن فهمت أنا السبب !
— سعادتك من أهل العلم ولذلك تفهمون . . ربنا
أعلم لمن يعطى المفهومية . . أهو حضرتك عرفت وقدرت ،
لكن الحارس مثله مثل الفلاح ، ليس عنده أى مفهومية ،
يمسك الواحد من قفاه ويشده . . طيب الأول اعرف وبعدين
شد ! الفلاح فلاح ، ومخه فلاحى . . . اكتب أيضاً يا
صاحب السعادة ، انه ضربنى مرتين فى وجهى وفى صدرى .
— عند اجراء التفتيش وجد عندك صامولة أخرى . . .
فأين ومتى فككت هذه الصامولة ؟
— حضرتك تقصد الصامولة التى كانت تحت الصندوق
الأحمر ؟

— لا أعرف اين كانت هذه الصامولة ، لكنهم وجدوها

لديك . متى فككتها ؟

— أنا لم افككتها . اعطاني اياها ايجناشكا ، ابن سيميون الاعور . أنا اقصد الصامولة التى تحت الصندوق ، اما تلك التى فى الزحافة ، فى الحوش ، ففككتها أنا ومتروفان .
— أى متروفان ؟

— متروفان بتروف . . . ألم تسمع عنه ؟ انه يصنع الشباك ويبيعها للسادة . وهو يحتاج الى صواميل كثيرة مثل هذه . كل شبكة تحتاج الى حوالى عشر صواميل . . .
— اسمع . . . المادة ١٠٨١ من قانون العقوبات تنص على ان كل تخريب متعمد للسكك الحديدية يكون من شأنه تعريض سلامة وسيلة النقل المارة بها للخطر ، وفى حالة معرفة الجانى بالعواقب الوخيمة التى سيؤدى اليها فعله . . فاهم ؟ ولا بد أنك تعرف الى اى شىء يؤدى فك الصواميل . . يعاقب مرتكبه بالنفى والأشغال الشاقة .
— طبعا حضرتك أدرى . . نحن ناس جهلة . . وهل

نحن نفهم ؟

— انت فاهم كل شىء ! لكنك تكذب ، وتظاهر

بالغباء !

— ولماذا اكذب ؟ اسأل أهل القرية ان كنت لا تصدقنى . . بدون الثقاله لا يصطاد الا السمك الأبيض ، وهل هناك اسوأ من القويون ، ومع ذلك فلا يمكن صيده بدون الثقاله .

فيتسم المحقق قائلا :

— أظنك ستحدثنى الآن عن الشيليشبيور .

— الشيليشبيور لا يعيش فى نواحيها . . نرمى الخيط

بدون ثقالة على سطح الماء ، والطعم فراشه ، وبصطاد الشبوط ، وحتى هذا نادر . .

— طيب ، اسكت . . .

ويسود الصمت . يقف دينيس متمللا ، ويحديق في الطاولة ذات المفرش من الجوخ الأخضر ويطرف بشدة وكأنه لا يرى أمامه جوخا بل شمساً . والمحقق يدون بسرعة . وبعد فترة صمت يسأل دينيس :

— هل انصرف ؟

— لا ، ينبغي أن ارسلك تحت الحراسة الى السجن .

يكف دينيس عن الطرف ، ويرفع حاجبيه الكثيفين ، وينظر الى المحقق متسائلا :

— كيف الى السجن ؟ يا صاحب السعادة ! أنا

مستعجل ، لازم أروح للسوق . ولى عند يجور ثلاثة روبلات ثمن الشحم لازم استلمها .

— اسكت ، لا تشوش عليّ .

— الى السجن . . . لو كنت فعلت ما يستحق السجن

لذهبت ، ولكن هكذا . . بدون ذنب . . ماذا فعلت ؟

لم أسرق ، وأظن لم اتعارك . . أما اذا كنت تشك فيّ

بخصوص الدين ، فلا تصدق العمدة يا صاحب السعادة . . .

ارجوك اسأل السيد عضو اللجنة . . . العمدة لا يعرف ربنا . . .

— اسكت !

فيدمدم دينيس :

— انا ساكت . . طيب انا مستعد احلف اليمين ان

العمدة يغالط في الحساب . . نحن ثلاثة أخوة : كوزما

جريجورييف ، وبعدين يجور جريجورييف ، وأنا دينيس

— انت تشوش على . . . — ويصيح المحقق : — ياسيميون !

خذه !

ويدمدم دينيس بينما يقتاده جنديان قويان خارج غرفة

التحقيق :

— نحن ثلاثة أخوة . . والأخ لا يحاسب على ذنب

أخيه . . . كوزما لا يدفع وأنا المسئول ! يا لكم من قضاة !

مات السيد الجنرال ، عليه الرحمة ، والا لأراكم الويل ،

ايها القضاة . . اذا حكمتكم فلتحكموا بالعدل ، بالمفهومية . .

وليس هكذا بلا ذنب . . حتى لو حكمتكم بالجلد فليكن . .

المهم بالحق ، بالأمانة . . .

الصول بريشيبيف

— الصول بريشيبيف ! أنت متهم بأنك فى الثالث من سبتمبر الجارى أهنت بالقول والفعل الدركى جيغين وشيخ الناحية أليابوف وشيخ الخقراء يفيموف ، والشاهدين ايفانوف وجافريلوف ، وستة آخرين من الفلاحين ، علما بأنك اعتديت على الثلاثة الأول اثناء قيامهم بأداء مهامهم الرسمية . مذنب ام غير مذنب ؟

يقف الصول بريشيبيف ، وهو رجل مكرمش ، بوجه شائك ، شادا يديه الى جنبه فى وقفة انتباه ، ويجب بصوت أبح مخنوق ، مشددا على كل كلمة وكأنما يصدر الأوامر :

— يا صاحب السعادة ، يا سيادة قاضى الناحية ! معلوم أن القانون فى جميع مواده ينظر فى تكييفه للحوادث انطلاقا من حجج الطرفين . لست انا المذنب بل هم جميعا . وكل ذلك حدث بسبب تلك الجثة الميتة ، عليها الرحمة . كنت سائرا فى الثالث من الشهر مع زوجتى أنفيسا فى هدوء ووقار واذا بى أرى مجموعة من مختلف الناس متجمهرة على الشاطئ . فتساءلت : بأى حق اجتمع الناس هنا ؟ لأى غرض ؟ وهل ينص القانون على ان يسير الناس

كالقطيع ؟ وصحت : تفرقوا ! وأخذت أدفع الناس لكى
ينصرفوا الى بيوتهم ، وأمرت شيخ الخفراء أن يفرقهم بالقوة . . .
— عفوا ، ولكنك لست الدركى ولا العمدة . . فهل
من شأنك تفريق الناس ؟

وتتردد اصوات من شتى انحاء القاعة :
— ليس شأنه ! ليس شأنه ! سمم علينا حياتنا
يا صاحب السعادة ! خمس عشرة سنة ونحن نتحمله !
من يوم أن جاء من الخدمة والحياة لا تطاق ! عذب
الجميع !

ويقول الشاهد العمدة :

— صحيح يا صاحب السعادة ، كل الناس يشكون
منه . الحياة معه مستحيلة ! سواء فى الأعياد الدينية ،
أم فى الأعراس ، أم عندما يحدث حادث ما ، تجده
دائما يصيح ويزمجر ويفرض علينا نظامه . ويشد
الأولاد من آذانهم ، ويتلصص على النساء خشية ان يحدث
شئ وكأنه حمو كل زوجة . . . منذ فترة قريبة طاف بالبيوت
وأمرنا بألا نغنى الاغانى أو نشعل الضوء . ويقول انه لا
يوجد قانون ينص على غناء الاغانى .

فيقول قاضى الناحية :

— انتظر ، سيأتى دورك فى الشهادة ، اما الآن

فليكمل بريشبييف . اكمل يا بريشبييف !

فيقول الصول بصوته الأبح :

— حاضر يا افندم ! حضرتك تقول انه ليس من

شأنى تفريق الناس . . . طيب . . . واذا حدث اضطراب ؟
هل من المعقول أن نسمح للناس بالعبث ؟ أين هو القانون



الذى ينص على اطلاق ايدي الناس ؟ انا لا استطيع ان
أسمح بذلك . واذا لم أقم أنا بتفريقهم وتغريمهم فمن
الذى سيفعل ذلك ؟ لا أحد يعرف النظام المضبوط .
أنا وحدى فى القرية كلها يا صاحب السعادة الذى يعرف
كيف يتعامل مع الناس البسطاء ، أنا وحدى استطيع ان
أفهم كل الأمور يا صاحب السعادة . أنا لست فلاحا ،
أنا صف ضابط ، صول متقاعد ، كنت أخدم فى وارسو ،
فى هيئة الأركان ، وبعد ذلك ، لما أحالونى الى التقاعد ،
عملت فى المطافىء ، ثم عملت بوابا لمدة سنتين فى
مدرسة ثانوية للبنين . . . أنا اعرف كل النظم . أما الفلاح
فشخص بسيط ، لا يفهم شيئا وينبغى أن يطيعنى ، لأن
ذلك من مصلحته . خذ مثلا هذه القضية . . . كنت أفرق
الناس ، وعلى الشاطئ ، على الرمال ، جثة غريق ميت .
انى أتساءل بأى حق ترقد هذه الجثة هنا ؟ وهل هذا يتفق
والنظام ؟ لماذا لم يتحرك الدركى ؟ قلت له : لماذا لم
تخطر الرؤساء ؟ ربما كان المرحوم الغريق غريقا ، وربما
تفوح فى الجو رائحة سييريا . ربما كانت هذه جريمة
قتل . . . ولكن الدركى جيغين لا يبالى أبدا ، بل يدخن
فقط . ويقول : «مَنْ هذا الأمر عندكم ؟ من أين جئتم
به ؟ أم أننا بدونه لا نعرف كيف نؤدى عملنا ؟» فقلت
له : اذن فأنت لاتعرف أيها الأحمق طالما تقف هكذا
ولا تبالى . فقال : «منذ أمس أخطرت رئيس الشرطة
المحلية» . فسألته : ولماذا اخطرت رئيس الشرطة المحلية ؟
حسب اية مادة فى القوانين ؟ ألا تعرف انه فى مثل هذه
الأحوال ، فى حالة الغرق أو الخنق وغيرها من الأحوال

لا يستطيع رئيس الشرطة المحلية أن يتصرف ؟ القضية هنا جريمة . . . قانون مدنى . . . القضية هنا تستدعى اخطار السيد وكيل النيابة والقضاة . وقبل كل شيء عليك أن تكتب محضرا وترسله الى السيد قاضى الناحية . ولكنه أخذ يسمع ويضحك . والفلاحون أيضا . كلهم ضحكوا يا صاحب السعادة . أقسم على ذلك . هذا ضحك أيضا ، وذلك الواقف هناك ، وجيغين ضحك . فقلت لهم : ما لكم تسخرون ؟ فقال الدركى : «قاضى الناحية لا يفصل فى هذه القضايا» . هذه الكلمات جعلتنى ارتعش كالمحموم . — وقال الصول مخاطبا الدركى : ألم تقل ذلك ؟ — قلت .

— الجميع سمعك وانت تقول أمام العامة : «قاضى الناحية لا يفصل فى هذه القضايا» . سمعك الجميع وانت تقولها . . . ارتعشت كالمحموم يا صاحب السعادة ، بل انى تجمدت رعبا . قلت له : اعد ايها الوغد ما قلت ! فأعاد هذه الكلمات نفسها . . . فاقتربت منه وقلت له : كيف تجرؤ على قول هذا عن حضرة قاضى الناحية ؟ انت دركى شرطة وتقف ضد السلطة ؟ هه ؟ الا تعرف أن سيادة قاضى الناحية اذا شاء يستطيع أن يحيلك الى ادارة شرطة المحافظة جزاء على هذه الكلمات وبسبب عدم ولائك ؟ ألا تعرف الى أين يستطيع سيادة قاضى الناحية ان يرسل بك جزاء على مثل هذا الكلام السياسى ؟ فاذا العمدة يقول : «قاضى الناحية لا يستطيع ان يتجاوز حدوده . هو يفصل فى القضايا الصغيرة فقط» . هكذا قال ، وقد سمعته الجميع . . . فقلت له : كيف تجرؤ على تحقير السلطة ؟

اياك أن تمزح معي والا كانت عاقبتك سيئة . فأيام كنت
أخدم في وارسو ، وأيضا عندما كنت بوابا في مدرسة البنين
الثانوية ، كنت ما أن أسمع كلمات غير مناسبة حتى اتطلع
الى الشارع بحثا عن شرطى ثم ادعوه : «تعال هنا يا فارس» ،
وأخبره بكل شيء . أما هنا في القرية فمن الذى تقول
له ؟ . . . استبد بى الغضب . احقنى أن ناس هذه الأيام
تمادوا في التصرف على هواهم والخروج عن الطاعة فرفعت
قبضتى و . . . ضربته طبعا ليس بقوة ، بل هكذا ، على
خفيف ، حتى لا يجروا على التفوه بهذه الكلمات عن
معاليكم وتدخل الدركى دفاعا عن العمدة . وطبعا ضربت
الدركى ثم تطورت الأمور لم أضبط اعصابى يا
صاحب السعادة . . . ولكن كيف يمكن للمرء ألا يضرب ؟
إذا لم تضرب الشخص الغبى فأنت ترتكب ذنبا . خاصة
إذا كان يستحق . . . إذا كان هناك اضطراب . . .

— عفوا ، هناك اشخاص مسئولون عن منع
الاضطرابات . هناك الدركى والعمدة وشيخ الخفراء .
— الدركى لا يستطيع أن يحيط بكل شيء ، كما
أنه لا يفهم ما أفهمه أنا

— فلتفهم أن هذا ليس من شأنك !
— ماذا ؟ كيف ليس من شأنى ؟ غريب ! . . .
الناس يثيرون الفوضى وهذا ليس من شأنى ! حسنا ، هل
امتدحهم على ذلك ؟ ها هم يشكون لكم من أننى منعت
الغناء أى فائدة من هذه الأغانى ؟ بدلا من القيام
بعمل مفيد يغنون الأغانى ثم هذه الموضة التى ساروا
عليها : الجلوس فى المساء واشعال الضوء . ينبغى ان

يناموا ولكنهم يجلسون وهم يتحدثون ويتصاحكون . لقد سجلت عندي !

— ماذا سجلت عندك ؟

— اسماء الذين يجلسون مشعلين الضوء .
ويخرج بريشبييف من جيبه ورقة مجمدة ، ويضع النظارة على عينيه ويقرأ :

— «الفلاحون الذين يجلسون مشعلين الضوء : ايفان بروخروف ، سافا ميكيفوروف ، بيوتر بتروف . زوجة الجندي شوستروفا ، أرملة ، تعاشر في الحرام سيميون كيسلوف . اجنات سفيرتشوك يزاول السحر ، وزوجته مافرا ساحرة ، تحلب في الليل أبقار الجيران» .
— كفى !

يقول القاضى ويشرع فى استجواب الشهود .
فيرفع الصول بريشبييف نظارته الى جيبه ويتطلع بدهشة الى قاضى الناحية الذى يبدو واضحا أنه لا يقف فى صفه . وتبرق عينا الصول الجاحظتان ، ويصطبغ أنفه بلون أحمر قان . يتطلع الى قاضى الناحية ، والى الشهود ولا يستطيع ابدا أن يفهم لماذا يبدو القاضى منفعلا الى هذا الحد ، ولماذا يتردد من كل زوايا القاعة الهمهمات تارة ، والضحك المكتوم تارة أخرى . والحكم أيضا يبدو له غير مفهوم : الحبس شهرا . فيقول مشيحا بذراعيه فى استغراب :

— لماذا ؟ بأي قانون ؟

ويبدو له واضحا ان الدنيا تغيرت ، وأن الحياة فيها أصبحت مستحيلة . وتنتابه أفكار سوداء مقبضة . ولكن

عندما يخرج من القاعة ويرى الفلاحين المتجمهرين يتحدثون
عن شيء ما ، يشد يديه الى جنبه في وضع انتباه بحكم
العادة المتسلطة عليه ، ويصرخ بصوت أبح غاضب :
— تفرقوا جميعا ! ممنوع التجمهر ! انصراف !

العازف الأجير

الساعة تدور فى الثانية ليلا . أجلس فى غرفتى بالفندق وأكتب صورة شعرية هجائية طلبت منى . وفجأة يفتح الباب على مصراعيه ، ويدلف الى الغرفة فجأة شريكى فيها بيوتر روبليوف ، الطالب السابق فى كونسرفتوار موسكو . وللوهلة الأولى يذكرنى وهو فى قبعته الطويلة ومعطفه الثقيل المفتوح بشخصية ريبيتيلوف* . ولكن بعد أن أدقق النظر فى وجهه الشاحب وعينه الحادتين الى درجة غير عادية وكأنهما ملتهبتان ، يختفى وجه الشبه بينه وبين ريبيتيلوف .
واسأله :

— لماذا عدت مبكرا هكذا ؟ الساعة الثانية فقط !
هل انتهى العرس ؟
ولا يرد شريكى على . يمضى فى صمت الى ما وراء الحاجز ، ويخلع ملابسه بسرعة ويستلقى على سريره وهو يزحر .

* احدى شخصيات مسرحية «ذو العقل يشقى» الشعرية للكاتب المسرحى والشاعر الروسى جريبويدوف (١٧٩٤ — ١٨٢٩) .
المعرب .

وبعد حوالى عشر دقائق أسمع بهمس :

— نم ايها الوغد ! نم ما دمت رقدت ! اذا لم
ترد ان تنام . . فلتذهب الى الشيطان !
فأسأله :

— ماذا يا بيتيا ، النوم يجافيك ؟

— الشيطان يعلم ما هذا . . لا استطيع ان أنام . .
أكاد انفجر من الضحك . . الضحك يمنعنى من النوم !
ها — ها !

— وما الذى يضحكك ؟

— وقع حادث مضحك . يا لها من حادثة
لعينة !

ويخرج روبليوف من خلف الحاجز ويجلس بجوارى
وهو يضحك .

ويقول وهو ينثر شعره :

— أمر مضحك . . ومخجل . . لم يحدث لى فى
حياتى كلها يا أخى أن تعرضت لمثل هذه الزفة . . ها —
ها . . فضيحة من الطراز الأول . . من أرقى نوع !
ويضرب روبليوف ركبته بقبضته ويقفز واقفا ثم يروح
ويجئ حافيا على الأرضية الباردة .

ويقول :

— طردونى شر طردة ! . . ولهذا جئت مبكرا .

— كفاك كذبا !

— أى والله . . طردونى . . حرفيا !

واتطلع الى روبليوف . . وجه ممصوص ، مستهلك ،
ومع ذلك بقى فى مظهره كله من الاستقامة والنعمومة النبيلة

واللياقة ما يجعل هذه العبارة الخشنة «طردوني شر طردة» غير منسجمة أبداً مع شخصيته المثقفة .

— فضيحة من الدرجة الأولى . . . ظلت أقهقه طوال الطريق اثناء عودتي . أوه ، دعك من هذه التفاهة التي تكتبها ! سأحكى لك ، سأسكب كل ما فى روحي فربما كفتت عن الضحك . . . دعك من كتابتك ! اسمع . . . قصة طريفة . . . فى شارع أرباب يعيش شخص يدعى بريسفيستوف ، مقدم متقاعد ، متزوج من ابنة غير شرعية للكونت فون كراخ يعنى ارستقراطى يزوج ابنته من ابن التاجر يسكيموسوف وهذا الاسكيموسوف بارفينو وموفى — جانر* ، حلوف فى مسح العلماء وموفى — تون** ولكن الأب وابنته يريدان مانجى إي بوار*** ، ولذلك فليس لديهما فرصة للاهتمام بالموفى جانر وغيره . وذهبت اليوم فى الساعة التاسعة الى آل بريسفيستوف للعزف على البيانو . وكان الطريق مغطى بالأوحال ، والمطر يسقط ، والضباب مخيم وكالعادة سيطر على قلبى احساس مقرف .

فقلت له :

— اختصر . . . دعك من السيكولوجيات . . .

* بارفينو (من الفرنسية parvenu) — محدث نعمة . وموفى — جانر (من الفرنسية mauvais genre) — جلف . المعرب .

** موفى — تون (من الفرنسية mauvais tone) — قليل الذوق . المعرب .

*** مانجى إي بوار (من الفرنسية manger et boire) — يأكل ويشرب . المعرب .

— حسنا . . . جئت الى آل بريسفيستوف . . . كان العروسان والضيوف يلتهمون الفواكه بعد عقد القران . . . وذهبت الى موقعى — البيانو — وجلست فى انتظار بدء الرقص .
ورأى صاحب الدار فقال : «آه ، وصلت !
حسنا ، اسمع يا حضرة ، اعزف جيدا ، واياك أن تسكر . . .»
— لقد تعودت يا أخى على هذه التحايا ولم تعد تغضبنى . . . ها — ها . . . اذا جعلت نفسك قنطرة فلتتحمل الدوس . . . أليس كذلك ؟ فمن أنا ؟ عازف أجير . . . خادم . . . نادل يجيد العزف ! التجار فى حفلاتهم يخاطبوننى بـ«أنت» ويعطوننى بقشيشا . . . وليس فى ذلك أية اهانة ! حسنا . . . ولما لم يكن لىّ ما أفعله حتى بداية الرقص فقد رحت أنقر على البيانو ، هكذا ، لتسخين أصابعى . وبعد قليل ، وبينما أنا اعزف سمعت خلفى يا أخى شخصا يدندن اللحن . والتفت فاذا بها آنسة ! وقفت ، الملعونة ، خلفى وهى تتطلع الى مفاتيح البيانو باعجاب . فقلت لها : «لم أكن أعرف يا مدموازيل أن أحدا يصغى اليّ !» فتنهدت وقالت : «معزوفة جميلة !» فقلت : «نعم جميلة . . . وهل تحبين الموسيقى ؟» ورحنا نتجاذب أطراف الحديث . . . واتضح أنها كثيرة الكلام . أنا لم أسحبها من لسانها ، بل هى التى مضت تثرثر : «من المؤسف ان شباب اليوم لا يهتم بالموسيقى الجادة» . وكنت مسرورا الى لفت انتباهها . . . يا لى من أحمق ، مغفل . . . اذن فقد بقي لدى هذا الكبرياء الكريه ! واتخذت وضع العالم بالأمور ورحت أوضح لها أن عدم اكتراث شبابنا مرده الى انتفاء الطموح الى القيم الجمالية فى مجتمعنا . . . كنت أتفلسف !

— وأين هي الفضيحة ؟ هل وقعت في حبها ؟

— يا للهراء ! الحب هو فضيحة ذات طابع شخصي ،

أما في حالتى يا أخى فقد كان الحدث عاما ، على نطاق المجتمع الراقى . . نعم ! كنت أتحدث مع الأنسة ولكنى أخذت ألاحظ شيئا غير طبيعى . . . فقد جلس وراء ظهرى أشخاص ما وراحوا يتهامون . . وسمعت كلمة «عازف أجير» وضحكات . . . اذن فهم يتحدثون عنى . . ترى ماذا حدث ؟

هل انفكت ربطة عنقى ؟ تحسست ربطة العنق . . لا شيء . . . وبالطبع لم ألق اليهم بالا ومضيت أتحدث . . . أما الأنسة فقد انهمكت فى النقاش وانفعلت حتى احمر وجهها كله . . .

كانت منطلقة ! وانهالت بالنقد العاصف على الملحنين المعاصرين ! ففى اوبرا «المارد» التوزيع جيد ولكن ليس هناك موتيفات ، وريمسكى كورساكوف مجرد قارع طبول ،

وفارلاموف لم يؤلف شيئا متكاملا . . الخ . وفتيات وفتيان اليوم لا يكادون يعرفون من العزف غير السلم الموسيقى ، وبينما يدفعون خمسة وعشرين كوبيكا لقاء الدرس تراهم

مستعدين لكتابة المقالات النقدية فى الموسيقى . . . وأنستى من هذا النوع . . . ورحت أصغى ولا أجادل . . . اننى أحب أن أرى مخلوقا شابا ، غضا ، وهو غاضب يشغل مخه . . .

أما ورائى فقد استمر الهمس . . ثم ماذا ؟ فجأة اقتربت من آنستى طاووسة من فصيلة الأمهات أو الخالات ، ضخمة ، حمراء ، لا تحيط بخصرها خمس أذرع ، ودون ان تتطلع

الى همست فى أذن الأنسة بشيء ما . . واذا بالآنسة تتضرج وتخفى وجهها براحتيها وتندفع بعيدا عن البيانو كالمسلوعة . .

ماذا حدث ؟ فك اللغز يا أوديب الحكيم ! قلت لنفسى
إما ان السترة تمزقت على ظهري وإما أن عيبا ما قد ظهر
فى هندام الأنسة ، والا فمن الصعب فهم ما حدث .
وتحوطا فقد ذهبت بعد عشر دقائق الى المدخل لأتفحص
ملبسى . . تفحصت ربطة العنق والسترة وغيرها . . كل شيء
فى مكانه ولم يتمزق ! ولحسن حظى يا أخى كانت عجوز
ما واقفة فى المدخل ومعها صرة . وشرحت لى كل شيء .
ولولاها لظلمت فى جهلى السعيد . قالت العجوز لأحد الخدم :
«آنستنا تحب دائما أن تظهر شخصيتها . ورأت بجوار البيانو
شابا فراحت تثرثر معه وتضحك وتتنهد وكأنه سيد حقيقى . . .
واتضح ان الشاب ليس ضيفا بل عازفا أجيرا . . من
الموسيقين . . فى له من حديث ! شكرا لماريا ستيانوفنا
فقد همست فى أذنها والا — لا قدر الله — لوضعت ذراعها
فى ذراعه وتمشت معه . . انها الآن تشعر بالخجل ،
ولكن بعد فوات الأوان . . فما حدث حدث» . . رأيت ؟
فقلت له :

— الفتاة حمقاء ، والعجوز حمقاء . . كل ذلك لا
يستحق أى اهتمام . . .
— أنا لم أهتم . . . شيء مضحك ، ولا أكثر .
لقد تعودت منذ زمن طويل على هذه المفاجآت . قبلا
كنت اشعر حقيقة بالألم ، أما الآن فأبصق على ذلك !
فتاة حمقاء . . طائشة . . لا تستحق الشفقة ! وجلست ورحت
أعزف للرقص . . عزف لا يستدعى أية جدية . . رحت
اعزف رقصات الفالس والكادريل والمارشات الصاخبة . .
إذا أحست روحك الموسيقية بالمهانة فاذهب واشرب كأسا

— وأين الفضيحة اذن ؟

— أخذت أنقر على المفاتيح و . . لا أفكر في الفتاة . .

أضحك فقط ، ولكن . . . راح شيء ما ينغز في قلبي !
وكان هناك فأرا يقبع في ضلوعي ويقرض خبزا جافا . . .
ولا أدري لماذا أشعر بالحزن والقرف . أخذت اقنع نفسي
وأشتمها ، وأضحك . . وادندن بنغمات الألحان التي اعزفها ،
ولكن شيئا كان يقبض على قلبي . . وبقوة . . شيء يتحرك
في صدري ويخدش ويقرض ثم يصعد الى حلقي كالغصة . .
واكز على أسناني وأقاوم حتى يختفى . . ثم يعود من جديد . . .
ما هذه المصيبة ! وعلاوة على ذلك ، وكأنما عن عمد
ترد الى ذهني شتى الأفكار السخيفة . . فأتذكر كيف أصبحت
تافها . . لقد قصدت موسكو قاطعا ألفي كيلومتر . . كنت
اهدف الى أن أصبح موسيقارا أو عازف بيانو ، فاذا بي
عازف أجير . . . في الحقيقة هذا شيء طبيعي . . بل انه
يثير الضحك ، ومع ذلك أشعر بالغثيان . . . واتذكر . .
وافكر فيك : ها هو شريكى في الغرفة الآن جالس يسطر . .
يصف المسكين الشرطة النائمين وصراصير المخابز والطقس
الخريفى السيئ . . . يصف بالذات كل ما وصف من زمن
بعيد ، كل ما أشبع لوكا وهضما . . . أفكر فى ذلك ولست
أدري لماذا اشفق عليك . . اشفق عليك لدرجة البكاء !
انك شاب رائع ، طيب القلب ، ولكن ليس فيك تلك
الشعلة ، أتدري ، تلك المرارة ، تلك القوة . . ليس فيك
ذلك الحماس . . . فلماذا انت كاتب ولست صيدليا أو
اسكافيا ، الله يعلم ! وتذكرت كل زملائى الخائبين ،

كل هؤلاء المغنين والمصورين والهواة . . . كلهم كانوا في وقت ما يغنون ويمورون ويحلقون في السماء ، أما الآن . . . فالشيطان يعلم ما هذا ! لماذا اقتحمت رأسى هذه الأفكار بالذات ، لست أفهم ! عندما أطرده نفسي من رأسى يقتحمها زملائي ، وأطرده زملائي فتقتحمها الفتاة . . . وأضحك من الفتاة ولا أعيرها أهمية ، ولكنها لا تدعنى أنعم بالراحة . . . وأقول لنفسي : ما هذه الخصلة لدى الانسان الروسى . . . فطالما أنت حر ، تدرس أو تتسكع بلا عمل ، فبوسعك أن تشرب معه وتربت على كرشه ، وتتودد الى ابنته ، ولكن ما أن تصبح علاقتك به على نحو ولو قليل من التبعية ، حتى تصير صرصارا ينبغي أن يعرف قدره . . . أتدرى ، أخذت أجاهد لأكبت هذه الأفكار ، ولكن الغصة مضت تصعد الى حلقى . . . تصعد وتضغط عليه . . . وتعصره . . . وأخيرا أحسست بسائل فى عيني ، وانقطعت ألحان «بوكاتشيو» و . . . وذهب كل شيء الى الشيطان . . . وأصمت أسماع الحاضرين الاكابر أصوات أخرى . . . أصبت بهيستيريا . . . — كفاك كذبا !

— أى والله ! . . . — يقول روبليوف وهو يتضرع ويحاول أن يضحك . — ما رأيك فى هذه الفضيحة ؟ ثم شعرت بهم يسحبوننى الى المدخل . . . ويلبسوننى المعطف . . . وسمعت صوت رب البيت يقول : — «من الذى أسكر العازف الأجير ؟ من الذى اعطاه الفودكا ؟» . وفى آخر المطاف . . . طردت . . . ما رأيك فى هذه المفاجأة ؟ ها — ها . . . لم اكن فى حال تسمح بالضحك ساعتها ، أما الآن فأكاد أموت من الضحك ! . . . رجل ضخم مثلى . . .

طويل عريض . . . وفجاء يصاب بهيستيريا ! ها — ها — ها !
واسأله وأنا أتطلع الى كتفيه ورأسه وهي تهتز من الضحك :
— وما المضحك فى ذلك ؟ بيتيا أرجوك . . . ما
المضحك ؟ بيتيا ! يا عزيزى !

ولكن بيتيا يقهقه ، وبسهولة أرى فى قهقهته دلائل
الهستيريا ، فأبدأ فى العناية به وأنا أسب فنادق موسكو
التي لا يعرفون فيها عادة ملء دوارق المياه للشرب ليلا .

زودها

وصل قیاس الأراضي جلیب جافریلوفتش سمیرنوف الى محطة «جنیلوشکی» . وكان أمامه لکی يبلغ الضیعة التي استدعى اليها لوضع حدود المزارع حوالي ثلاثین أو أربعین فرسخا . (فاذا لم یکن الحودی ثملا والحصان عجوزا فلن تزيد المسافة عن ثلاثین فرسخا ، اما اذا كان الحودی ثملا والحصان منهكا فستصل المسافة الى خمسين) .

اتجه القیاس بالسؤال الى شرطی المحطة :
— قل لی من فضلك ، أين أستطیع أن أجد هنا خیول برید ؟

— خیول ماذا ؟ برید ؟ لن تجد هنا على مدى مائة فرسخ کلبا محترما وليس خیول برید . . . الى أين تريد أن تذهب ؟

— الى دیفکینو ، ضیعة الجنرال خوختوف .

فقال الشرطی متثابا :

— طیب . اذهب خلف المحطة ، فهناك یوجد

أحيانا فلاحون یحملون الركاب .

تنهد القیاس ومضى خلف المحطة . وهناك ، وبعد

بحث طویل ومباحثات وتردد ، وجد فلاحا ضخما ، عابسا ،

مجدور الوجه ، يرتدى فقطانا خشنا ممزقا وحذاء لابتى .
وامتعص القياس وهو يصعد الى العربة وقال :
— الشيطان يعلم أية عربة هذه ! لا تعرف أين
مؤخرتها وأين مقدمتها . . .

— وهل هو صعب ان تعرف ؟ المقدمة حيث ذيل
الحصان ، والمؤخرة حيث يجلس جنابكم . . .

كانت الفرس شابة ولكنها عجفاء ، بقوائم نافرة وأذنين
معضوضتين . وعندما همّ الحوذى وضربها بسوط من الحبال
هزت رأسها فقط ، وعندما سبها وضربها مرة أخرى صرت
العربة وارتعشت كأنها محمولة . وبعد الضربة الثالثة تمايلت
العربة ، أما بعد الرابعة فقد ترحزحت من مكانها .

— وهل سنسير هكذا طوال الطريق ؟ — سأل القياس
وهو يشعر بهز شديد ويدهش من قدرة الحوذية الروس على
الجمع بين السير البطيء كسير السلاحف ، وبين الهز الذى
يكاد يطرد الروح من البدن .
فقال الحوذى مطمئنا :

— سنصل ! الفرس شابة ، سريعة . . . انتظر فقط
حتى تنطلق ، وبعد ذلك لن تستطيع ايقافها . . . هيا ،
يا ملعونة ! . . .

عندما غادرت العربة المحطة كان المغيب قد حل .
وعلى يمين القياس امتد سهل مظلم متجمد لا نهاية له
ولا حدود . . . اذا سرت فيه فربما وصلت الى العالم الآخر .
وعند الأفق ، حيث اختفى السهل متحدا مع السماء ثلاثت
على مهل آخر اضواء الغسق الخريفى البارد . . . والى يسار
الطريق ارتفعت فى الهواء المظلم اكوام لا يعرف ما اذا

كانت اكوام دريس العام الماضى ام قرية . ولم يستطع
القياس أن يرى ما كان فى الأمام ، فقد سد مجال الرؤية
كله من هذه الناحية ظهر الحوذى العريض الأخرق . وكان
الجو هادئا ولكنه بارد ، قارس .

وفكر القياس وهو يحاول أن يغطى أذنيه بياقة المعطف :
«يا له من مكان قفر ! لا أثر لحي . من يدري ، فلو
هجم عليك الاشقياء ونهبوك فلن يعرف أحد ولو أطلقت
المدافع . . . نعم والحوذى أيضا لا يوحى بالثقة . . . انظر
الى ظهره المهول ! ابن الطبيعة هذا لو لمسك باصبعه
لأزهق روحك ! وسحته أيضا وحشية ، مريبة» .

وسأل القياس :

— اسمع يا أخى ، ما اسمك ؟

— أنا كلیم .

— وكيف الحال عندكم هنا يا كلیم ؟ أليس خطرا ؟

هل هناك من يتشاقى ؟

— لا ، الحمد لله . . . ومن هنا ليتشاقى ؟

— حسن أنهم لا يتشاقون . . . ولكنى على كل حال

أخذت معى ثلاثة مسدسات ، — قال القياس كاذبا . —
والمسدس كما تعلم شىء لا يحب المزاح . استطيع أن
أقضى على عشرة أشقياء . . .

هبط الظلام . وفجأة صرت العربى وأنت وارتعشت

وانعطفت الى اليسار ببطء كأنما عن غير رغبة .

وقال القياس لنفسه : «الى أين يذهب بى ؟ كان

يسير طوال الوقت مباشرة وها هو ينعطف الى اليسار فجأة .

ماذا لو أن هذا الوغد أخذنى الى دغل ما . . . و . . . مثل

هذه الحوادث تقع ! » .
فقال مخاطبا الحوذى :

— اسمع . . . تقول ان الحال هنا ليس خطرا !
خسارة . . . اننى أهوى منزلة الأشقياء . . . اننى أبدو من
منظرى نحىلا ، ضعيفا ، ولكن عندى قوة كقوة الثور . . .
فى مرة هجم على ثلاثة أشقياء . . . فماذا تظن ؟ ضربت
واحدا منهم حتى أنه . . . حتى أنه ، أتعرف ، طلعت
روحه ، أما الآخران فقد حكما بالأشغال الشاقة فى سيبيريا
بسببى . . . من أين تأتىنى هذه القوة ، لا أعرف . . .
بىد واحدة أمسك بأى رجل ضخمة ، من أمثالك ، و . . .
وأقضى عليه .

ونظر كلیم خلفه الى القياس ، وطرف بوجهه كله ،
وهوى بالسوط على الفرس .
واستطرد القياس :

— نعم يا أخى ، كفى الله المرء شر الاشتباك معى .
فعلاوة على أن الشقى يبقى بلا قدمين أو ساقين فانه يقدم
الى المحاكمة . . . كل القضاة وأمورى الشرطة معارفى .
اننى رجل موظف ، مطلوب . ها أنذا مسافر ولكن رؤسائى
يعرفون أين أنا . . . وأعينهم تراقب ، حتى لا يلحق بى
أى ضرر . . . وعلى طول الطريق حشروا رجال الدرك والخبراء
وراء الخمائل . . . — وفجأة صرخ القياس : — قف ! الى
أين تذهب ؟ الى أين تأخذنى ؟

— ألا ترى الى أين ؟ الى الغابة !

وقال القياس لنفسه : « فعلا . . . انها غابة ، ولكنى
خفت ! لا ينبغى أن اكشف اضطرابى . . . لقد لاحظ

أننى خائف . لماذا أصبح ينظر اليّ كثيرا ؟ لا بد أنه يدبر أمرا . . . كان قبلا يسير بالعربة ببطء ، قدما وراء قدم ، أما الآن فانظر كيف يطير !»

— اسمع يا كلیم ، لماذا تحت الفرس ؟
— أنا لا أحثها . هي التي أسرع . اذا انطلقت فلا وسيلة لایقافها . . . هي نفسها تشقيها هذه السيقان .
— كذاب يا أخى ! أرى أنك تكذب ! لكنى أنصحك بعدم الاسراع . اكبح الفرس . . . أسمع ؟ اكبحها !
— لماذا ؟

— لأنه . . . لأنه من المفروض أن يلحق بى من المحطة رفاق أربعة . ينبغى أن يلحقوا بنا . لقد وعدونى أن يلحقوا بى عند هذه الغابة . . . ستكون الرحلة معهم أكثر مرحا . . . فهم رجال اصحاء ، اشداء . . . كل منهم يحمل مسدسا . . . لماذا تتطلع اليّ كثيرا وتتململ كأنك جالس على جمر ؟ هه ؟ أنا يا أخى يعنى . . . اسمع . . . لا داعى للتطلع نحوى . . . ليس فيّ أى طرافة . . . اللهم الا المسدسات . . . تفضل ، اذا شئت استخرجتها وأريتك أياها . . . تفضل . . .

وتظاهر القياس أنه يبحث فى جيوبه ، وفى تلك اللحظة حدث ما لم يتوقع حدوثه رغم كل جبنه . فقد ألقى كلیم بنفسه من العربة وزحف على أربع نحو غيضة أشجار . ثم صرخ :

— النجدة ! النجدة ! خذ الفرس والعربة أيها الشقى ، لكن لا تقتلنى ! النجدة !
وتردد وقع خطوات سريعة مبتعدة ، وطققة غصون

جافة ، ثم ساد السكون . . . وكان أول شيء فعله القياس ،
الذى لم يتوقع هذا التطور المفاجئ ، أن أوقف الفرس ،
ثم اعتدل فى جلسته متخذاً وضعاً أكثر راحة ، وأخذ يفكر .
«هرب . . . خاف الأحمق . . . فما العمل الآن ؟ لا
يمكن أن أواصل السير بمفردى ، فأنا لا أعرف الطريق ،
ثم قد يظن أحد أننى سرقت فرسه . . . فما العمل ؟» —
يا كلیم ! يا كلیم !

— كلیم ! — ردد الصدى .
اقشعر القياس ، كأنما مروا على ظهره بمبرد بارد من
فكرة أنه سيضطر الى قضاء الليل كله فى الغابة المظلمة ،
فى البرد ، فلا يسمع سوى عواء الذئاب ، والصدى ،
وشخير الفرس العجفاء .

فصاح :

— كلیموشكا ! * يا عزيزى ! أين أنت يا كلیموشكا !
وظل القياس يصيح حوالى ساعتين ، وفقط بعد أن
بح صوته واستسلم لفكرة المبيت فى الغابة ، حملت اليه
الريح أنينا ضعيفا .

— كلیم ، أهو انت يا عزيزى ؟ هيا بنا !

— ستقتلنى !

— كنت أمزح يا عزيزى ! أى والله كنت أمزح !
أية مسدسات معى ! لقد كذبت عليك من خوفى ! أرجوك
هيا بنا ! اننى بردان !

* كلیموشكا — تدليل لاسم كلیم . المعرب .

واذ فطن كلیم علی ما یبدو الی ان الموظف ، لو
كان شقیاً حقیقیاً لاختفی بالفرس والعربة منذ زمن بعيد ،
فقد خرج من الغابة ، واقترب متردداً من الراكب .
— لماذا خفت أیها الأحمق ؟ . . أنا . . أنا كنت
امزح . . واذا بك تخاف . . اجلس !
قدمدم كلیم وهو یصعد الی العربة :
— ربنا یسامحك یا سید . لو كنت أدري ما أخذتك
ولو مقابل مائة روبل . كدت أموت من الخوف . . .
وضرب كلیم الفرس بالسوط . وارتعشت العربة . وضرب
كلیم مرة أخرى فتمايلت العربة . وبعد السوط الرابع ،
عندما ترحزحت العربة من مكانها ، غطى القیاس أذنيه
بالیاقة واستغرق فی التفكير . ولم تعد الطريق أو كلیم یبدوان
له خطرين .

المصيبة

يحمل الخراط جريجورى بتروف ، المعروف منذ زمن بعيد كأسطى رائع ، وفى الوقت نفسه كواحد من أكثر الرجال ضلالا فى مقاطعة جالتشينسك كلها ، يحمل زوجته العجوز المريضة الى المستشفى المحلى . كان عليه أن يقطع حوالى ثلاثين فرسخا ، بينما الطريق فظيع لا يقوى عليه حتى حوذى البريد الحكومى ، لا هذا الكسول ، الخراط جريجورى . ففى الوجه مباشرة تضرب ريح حادة باردة . وفى الهواء ، حيثما نظرت تدور سحب كاملة من ندف الثلج ، حتى ان الناظر لا يعرف هل يسقط الثلج من السماء أم يصعد من الأرض . ومن خلف الضباب الثلجى لا يبين الحقل ولا أعمدة البرق ولا الغابة ، وعندما تهب على جريجورى دفقة ريح قوية بشكل خاص لا يعود يرى حتى قوس الحصان . والفرس العجوز المتهالكة تجر قوائمها بالكاد . فقد تبددت كل طاقتها فى سحب القوائم من الثلج العميق وفى هز الرأس . كان الخراط متعجلا . وراح يقفز فوق مقعده بقلق وينهال بالسوط كثيرا على ظهر الفرس ، وهو يدمدم :
— لا تبكي يا ميريونا . . . اصبري قليلا . ان شاء الله نصل الى المستشفى ، وعلى الفور يذهب منك هذا

ال . . . سيعطيك بافل ايفانيتش قطرات ، أو يأمر بحجمك ،
أو ربما يتفضل فيدلكونك بالكحول ، وعندئذ يذهب عن
جنبك هذا ال . . . سيبدل بافل ايفانيتش جهده . . . سيصبح
بنا ، ويضرب الارض بقدميه ، لكنه سيبدل جهده . . .
انه سيد عظيم ، عطوف ، ربنا يعطيه الصحة . . . عندما
نصل سيخرج على الفور من مسكنه ويبدأ قبل كل شيء
فى السباب والصياح : «كيف ؟ ما هذا ؟ لماذا ؟ لماذا لم
تأت فى الوقت المناسب ؟ وهل أنا كلب حتى اضيع اليوم
كله فى مشاكلكم أيها الشياطين ؟ لماذا لم تأت فى الصباح ؟
امش من هنا ! أياك أن تراك عيناي . تعال غدا» .
فأقول له : «يا حضرة الدكتور ! يا بافل ايفانيتش ! يا
صاحب السعادة !» . هيا سيري ، سيري عليك اللعنة !
هيا !

وينهال الخراط على الفرس ، ودون أن ينظر الى زوجته
العجوز يستطرد وهو يدمدم لنفسه :
— «يا صاحب السعادة ! الله شاهد على ما أقول . . .
بحق الصليب . لقد خرجت مع الفجر . . . ولكن كيف تصل
فى الموعد اذا كان الرب . . . قد غضب وأرسل هذه العاصفة ؟
ها أنتم ترون بأنفسكم . . . حتى الفرس الأصيلة لا تقوى
على السير ، أما أنا فكما ترون ليس ما عندي فرس بل مصيبة !» .
فيعبس بافل ايفانيتش ويصيح : «أنا أعرفكم ! دائما
تجدون لكم مخرجا ! خاصة أنت يا جريشكا ! أعرفك
من زمان ! تراك عرجت على الحانة خمس مرات !» فأقول
له : «يا صاحب السعادة ! هل تظنوننى عريدا أم كافرا !
العجوز تلفظ أنفاسها ، تموت ، وأنا أعرج على الحانات !



ماذا تقولون ! فليحل بها الخراب هذه الحانات ! » .
عندئذ يأمر بافل ايفانيتش بنقلك الى المستشفى . أما أنا
فأرتمي على قدميه . . . « يا بافل ايفانيتش ! يا صاحب
السعادة ! نشكركم من صميم القلب ! سامحنا نحن الحمقى ،
الملاعين ، لا تؤاخذنا نحن الفلاحين ! نستحق منكم
الطرد ، وبدلاً من ذلك تهتمون بنا وتلوثون أقدامكم فى
الثلج » . وينظر بافل ايفانيتش الى وكأنه يريد أن يضربني ،
ويقول : « بدلاً من الارتواء على قدمي كان من الأفضل ،
أيها الأحمق ، الا تشرب الفودكا ، وتعطف على عجوزك .
انك تستحق الجلد ! » — « عين الحقيقة يا بافل ايفانيتش ،
استحق الجلد ، اى والله استحقه ! وكيف لا نرتمي على
قدميكم اذا كنتم راعينا وأبانا ؟ يا صاحب السعادة ! أقول
لكم الحق . . . والله شاهد . . . أبصقوا فى عيني لو كنت اكذب
عليكم : بمجرد أن تشفى زوجتي ميريونا ، وتقف يعنى على
قدميها سأفعل كل ما أمرتم ، جنابكم ، به ! لو أردتم
صنعت لكم علبة سجائر من خشب البتولا الكاريلية . . . أو
كرات للكروكيت ، وأستطيع أن أخرط كيلا مثل الأجنبية
بالضبط . . . سأصنع من أجلكم أي شيء ! ولن آخذ
منكم كوبيكا ! فى موسكو يأخذون اربعة روبلات مقابل
مثل هذه العلبة ، أما أنا فلن آخذ كوبيكا » . فيضحك
الدكتور ويقول : « طيب ، طيب . . . مفهوم ! انما من المؤسف
انك سكير » . . . اننى أعرف يا أختى العجوز كيف أتعامل
مع السادة . لا يوجد سيد لا أستطيع التفاهم معه . المهم
ان يلطف ربنا ولا نضل الطريق . أوه يا للعاصفة ! تعمي
العيون !

ويمضي الخراط فى دمدمته بلا توقف . يتحرك لسانه
آليا لكي يكبت ولو الى حد ما احساسه المرهق . والكلمات
على طرف اللسان كثيرة ، ولكن الأفكار والتساؤلات فى
الرأس أكثر . لقد دهمته المصيبة على غرة ، بلا توقع أو
انتظار ، وها هو الآن لا يستطيع أن يفيق ويثوب الى رشده
ويفهم . كان يعيش حتى الآن بلا هموم ، عيشة ساكنة ،
فى غيبوبة ثملة ، لا يدري ما الحزن وما الفرحة ، وفجأة
أصبح يحس الآن فى صدره بألم رهيب . لقد وجد هذا
الكسول اللامكترث والسكير نفسه فجأة وبلا مقدمات فى
وضع رجل مشغول ، مهموم ، متعجل ، بل ورجل يصارع
الطبيعة .

ويذكر الخراط أن مصيبته بدأت بالأمس مساء .
فعندما عاد مساء الأمس الى البيت ، ثملا كالعادة ، وراح
بحكم العادة القديمة يسب ويلوح بقبضتيه ، نظرت العجوز
الى زوجها الهائج كما لم تنظر اليه ابدا من قبل . كانت
نظرة عينيها الهرمتين فى العادة معذبة ، مستكينة ، كنظرة
الكلب الذى يضربونه كثيرا ويطعمونه قليلا ، أما الآن فكانت
نظرتها صارمة وثابتة كنظرة القديسين فى الأيقونات أو الأموات .
ومن هاتين العينين الغريبتين اللتين لا تبشران بخير بدأت
المصيبة . وأسرع الخراط المصعوق الى جاره يسأله حصانه ،
وها هو الآن يحملها الى المستشفى ، على أمل أن يعيد
بافل ايفانيتش بمساحيقه ومراهمه الى العجوز نظرتها السابقة .
ويدمدم الخراط :

— اسمعي يا ميريونا . . . اذا سألك بافل ايفانيتش
هل ضربتك أم لا ، قولى : أبدا ! ولن أضربك بعد . .

أقسم لك بالصليب . وهل كنت اضربك عمداً ؟ ابدا ،
هكذا ، بلا داع . انا اعطف عليك يا ميريونا . ولو كان
غيري في مكاني لما اهتم ، أما أنا فها انذا أحملك . . .
وابذل جهدي . أوه ، يا لها من عاصفة ! حكمتك يا
رب ! اللهم الطف بنا حتى لا نضل الطريق . . . ماذا هل
جنبك يؤلمك ؟ لماذا لا تردين يا ميريونا ؟ . . اننى اسألك :
هل جنبك يؤلمك ؟

ويبدو له غريبا أن الثلج لا يذوب على وجه العجوز ،
والغريب أيضا ان وجهها ذاته قد استطال بصورة خاصة
واكتسب لونا رماديا شاحبا عكرا كالشمع ، وأصبح صارما ،
جادا .

ويدمدم الخراط :

— يا لك من حمقاء ! أنا احدثك من صميم قلبي ،
يشهد الله ، وانت . . هذا . . يا لك من حمقاء ! اسمعى
والا فلن احملك الى بافل ايفانيتش !

ويرخى الخراط اللجام ويستغرق في التفكير . ولا يجرؤ
على النظر الى العجوز . . هذا مخيف ! ومن المخيف أيضا
ان يوجه اليها سؤالا فلا يتلقى الجواب . واخيرا ، ولكي
يقطع الشك باليقين ، يتلمس ذراع العجوز الباردة دون ان
يلتفت اليها . وتسقط الذراع المرفوعة كجلدة السوط .

— اذن فقد ماتت ! يا للمصيبة !

ويبكي الخراط . لا من الأسى بقدر ما هو من الحق .
ويفكر : ما أسرع ما يجرى كل شيء في هذه الدنيا !
ما أن بدأت مصيبته حتى حلت النهاية . لم يكده يعيش
مع عجوزه ، ويصارحها بما في قلبه ، ويعطف عليها حتى

ماتت . . . لقد عاش معها أربعين عاما ، ولكن هذه الاعوام
الأربعين مرت وكأنها ملفعة بالضباب . ومن خلف سحب
السكر والعراك والفاقة لم يكن ثمة احساس بالحياة . وكأنما
نكاية به ماتت العجوز فى تلك اللحظة التى أحس فيها
أنه يعطف عليها ، ولا يقوى على العيش بدونها ، ومخطئ
فى حقها بصورة رهيبة .

ويتذكر الخراط :

— لقد كانت تتسول ! أنا الذى أرسلتها تسأل الناس
خبزا ، يا للمصيبة . هذه الحمقاء كان ينبغى ان تعيش
عشر سنوات أخرى ، والا فربما تظن أننى هكذا بالفعل .
يا إلهى ، الى أى شيطان أمضى الآن ؟ ينبغى الآن دفنها
لا علاجها . هيا ، دوري !

ويدير الخراط الزحافة عائدا بها ، وينهال بكل قوته
على الفرس بالسوط . ومع كل لحظة يزداد الطريق سوءا .
الآن لم يعد قوس الحصان مرئيا على الاطلاق . واحيانا
تدوس الزحافة على شجرة شوح صغيرة ، فيخدش هذا الشيء
المظلم أيدى الخراط ، ويمرق أمام عينيه ، ثم يصبح
مجال الرؤية من جديد أبيض مدوّما .

ويفكر الخراط : «آه لو تبدأ الحياة من جديد» . . .

ويتذكر أن ماريونا كانت منذ أربعين عاما شابة جميلة

مرحة ، من بيت غنى . وقد زوجها منه اذ أغرتهم مهارته
كأسطى . وكانت كل المقومات متوفرة لحياة طيبة ، ولكن
المصيبة أنه منذ أن شرب حتى ثمل بعد حفلة العرس ،
وتمدد فوق الفرن ، فكأنما لم يستيقظ حتى الآن . انه
يذكر حفلة العرس ، أما ما حدث بعد العرس فلا يذكر

منه شيئاً على الإطلاق ، اللهم الا أنه كان يشرب ويرقد ويتعارك . وهكذا ضاعت الأعوام الأربعون .
وتبدأ السحب الثلجية البيضاء فى التحول شيئاً فشيئاً الى اللون الرمادى . ويحل الغسق .
وفجأة يستدرك الخراط :

— الى أين أنا ذاهب ؟ ينبغي دفنها بينما أذهب بها الى المستشفى . . . كأنما جننت !

ويدير الخراط الزحافة مرة أخرى ، وينهال من جديد على الفرس . وتستجمع الفرس كل قواها ، وتركض بخبب قصير وهى تشخر . ويضربها الخراط بالسوط على ظهرها المرة تلو المرة . . . ومن خلفه تتردد دقات ما ، ورغم انه لا يلتفت الا انه يعرف ان ذلك صوت ارتطام رأس المرحومة بالزحافة . بينما الجو يزداد ظلاماً ، وتصبح الريح أكثر حدة وبرودة . . .

ويفكر الخراط : «لو تبدأ الحياة من جديد . . . لحصلت على عدة جديدة ، ولتلقيت الطلبات . . . ولأعطيت النقود للعجوز . . . نعم !»

وها هو يفلت اللجام من يديه . ويبحث عنه ، ويريد أن يرفعه ، ولكنه لا يستطيع . يده لا تستجيبان له . . . ويفكر : «سيان . . . ستمضى الفرس بنفسها ، فهى تعرف الطريق . . . فلأنم قليلاً . . . فالى ان تحين الجنازة والقداس ، فلأنم قليلاً» .

ويغمض الخراط عينيه وينعس . وبعد قليل يسمع ان الفرس توقفت . ويفتح عينيه فيرى أمامه شيئاً مظلماً يشبه المنزل أو كوم الدريس . . .

ومن المفروض أن ينزل من الزحافة ليعرف ما الأمر ،
ولكن خدرا شديدا يستولى على جسده كله ، حتى أنه يفضل
أن يتجمد على أن يتحرك من مكانه ويغيب فى سبات
قريب .

ويستيقظ فى غرفة كبيرة ، بجدران مطلية . من النوافذ
ينساب ضوء الشمس الساطع . ويرى الخراط أمامه أناسا ،
وأول ما يفكر فيه أن يبدو أمامهم رجلا زينا ، حصيفا ،
فيقول :

— ينبغي إقامة قداس العجوز يا اخوان ! فلتخبروا
أبانا

ولكن صوتا ما يقاطعه :

— طيب ، طيب ! ارقد .

فيدهش الخراط حين يرى الدكتور أمامه :

— يا مولانا ! بافل ايفانيتش ! يا صاحب السعادة !

يا راعينا !

ويود ان يقفز ويرتمى على قدمي الطبيب ، ولكنه يشعر
أن ساقيه ويديه لا تستجيب له .

— يا صاحب السعادة ! أين ساقاي ؟ أين يداي ؟

— ودّع يديك وساقيك تجمدت ! مهلا ، مهلا

لِمَ تبكى ؟ عشت حياتك فاحمد الله ، تراك عشت ستين
سنة يكفيك هذا !

— مصيبة ! مصيبة يا صاحب السعادة ! أرجو

المعذرة والسماح ! لو خمس أو ست سنوات أخرى

— لماذا ؟

— الفرس ليست لى ، يجب أن أردّها وادفن

العجوز . . . ما أسرع ما يجرى كل شيء فى هذه الدنيا !
يا صاحب السعادة ! بافل ايفانيتش ! علبة سجائر ممتازة
من خشب البتولا الكاريلية ! كرة كروكيت أنخرطها . . .
ويشيخ الدكتور بيده ويخرج من الغرفة . وعلى الخراط
السلام !

الاطفال

بابا وماما والعمة نادية غائبون عن البيت . لقد رحلوا لحفل التعميد عند ذلك الضابط العجوز الذى يركب فرسا رمادية صغيرة . وفى انتظار عودتهم جلس جريشا وآنيا واليوشا وسونيا وابن الطاهية اندريه فى غرفة الطعام حول طاولة الطعام يلعبون اللوتو . وفى الحقيقة كان من المفروض أن يناموا منذ وقت طويل ، ولكن هل يمكن ان يناموا دون ان يسمعو من ماما كيف كان الطفل الذى عمدوه ، وما الذى قدم فى العشاء ؟ والطاولة التى يضيئها مصباح معلق ، حافلة بالارقام وقشر الجوز وبقطع الورق والمربعات الزجاجية . وامام كل لاعب بطاقتان وكمية من المربعات لسد خانات الارقام . وفى وسط الطاولة طبق ابيض به خمس قطع معدنية من فئة الكوبيك . وبجوار الطبق بقايا تفاحة ومقص وطبق كبير صدرت الاوامر بوضع قشر الجوز فيه . والاطفال يلعبون على النقود . الرهان : كوبيك واحد . والشرط : اذا غش احد فى اللعب يطرد فورا . وليس هناك فى غرفة الطعام احد غير اللاعبين . فالمربية اجافيا ايفانوفنا تجلس فى الطابق الاسفل ، فى المطبخ ، وتعلم الطاهية التفصيل . اما الاخ الاكبر فاسيا ، التلميذ بالصف الخامس فيستلقى على الكنبه

فى غرفة الجلوس ويضجر .
يلعبون بحماسة . وترسم الحماسة اكثر ما ترسم على
وجه جريشا . وهو صبى صغير ، فى التاسعة من عمره ،
برأس مخلوق الشعر تماما ، وخدين منتفخين وشفتين غليظتين
كشفاه الزوج . وقد التحق بالدراسة فى الصف الاعدادى ،
ولهذا يعتبرونه كبيرا واذكى الجميع . وهو يلعب من اجل
النقود فقط . ولولا الكوبيكات الموضوعة فى الطبق لكان
قد نام منذ زمن بعيد . عيونه العسلىة تركض بقلق وغيره
فوق بطاقات شركاته فى اللعب . والخوف من احتمال الخسارة ،
والغيرة ، والاعتبارات المالية التى تملأ رأسه الحليق ، لا
تدع له مجالا للجلوس فى هدوء وللتركيز . فهو يتململ فى
مجلسه كأنه على جمر . وعندما يكسب يقبض على النقود
بجشع ويدسها فى جيبه على الفور . وشقيقته آنيا ، ذات
الثمانية اعوام ، والذقن الحاد والعينين الذكيتين اللامعتين ،
تخشى هى الاخرى من ان يكسب احد غيرها . انها تراقب
اللاعبين بيقظة وتارة تتضرج بالحمرة وتارة تشحب . ولكن
ليس ما يهمها هو النقود . بل ان التوفيق فى اللعب هو
بالنسبة لها مسألة كرامة . اما الشقيقة الاخرى سونيا ، ذات
الاعوام الستة والرأس الصغير المجعد الخصلات ، والبشرة
ذات اللون الذى لا تراه الا على وجوه الاطفال الاصحاء
للغاية او الدمى الغالية او علب الحلويات ، فتلعب من
اجل عملية اللعب ذاتها . ويطفح وجهها بالتأثر والرضى .
وايا كان الرابع فهى تفهقه وتصفق بنفس الدرجة . اما
اليوشا ، الصبى الصغير المكتر المستدير الجسم ، فيشخر
ويلهث ويحملك بعينين جاحظتين فى البطاقات . وليس لديه

اي غرض او كرامة . يكفيه انهم لا يطردونه من مائدة
اللعب ولا يجبرونه على النوم . ويبدو من مظهره الخارجى
انه فاتر عديم المبالاة ، لكنه فى قرارة نفسه شيطان مكر .
وقد اشترك فى اللعب لا حبا فيه بقدر ما هو من اجل
المشاحنات الحتمية التى تحدث فى مجرى اللعب . وهو
يشعر بفرحة طاغية عندما يضرب احدهم شخصا ما او يسبه .
ومنذ فترة طويلة وهو يريد ان يقضى حاجته ، ولكنه لا
يترك الطاولة لحظة واحدة خشية ان يسرقوا مربعاته وكوبيكاته
فى غيابه . ولما كان لا يعرف سوى ارقام الآحاد والاعداد
التي تنتهى بالصفى ، فان شقيقته آنيا تقوم بدلا منه بسد
الخانات بالمربعات . اما اللاعب الخامس ، ابن الطاهية
اندريه ، الصبى الاسود الشعر المريض الهيئة ، الذى يرتدى
قميصا من الشيت ويعلق على صدره صليبا نحاسيا ، فيقف
جامدا ويحديق فى الارقام حالما . وهو ينظر الى المكسب
والى فوز الآخرين بلا اكتراث ، اذ انه غارق كلية فى حسابات
اللعبة وفى فلسفتها البسيطة : فما اكثر الارقام المختلفة فى
هذه الدنيا ، وكيف لا تختلط !

ويتناوب اللاعبون اعلان الارقام ما عدا سونيا واليوشا .
ونظرا لرتابة الارقام فقد اوجدت الممارسة مصطلحات ومسميات
مضحكة كثيرة لها . فمثلا رقم سبعة يسميه اللاعبون «البشكور» ،
ورقم احد عشر «العصاتان» ورقم سبعة وسبعون «سميون سميونيتش»
ورقم تسعون — «جدو» . . . الخ . . . ويسير اللعب بنشاط .
— اثنان وثلاثون ! — يصيح جريشا وهو يخرج من
قبعة الاب الاسطوانات الخشبية الصفراء ذات الارقام —
سبعة عشر ! بشكور ! ثمانية وعشرون — ماذا تفعلون !

وترى آنيا ان أندريه قد فاته ان يسد خانة الرقم ثمانية وعشرين ، ولو كان الوضع مختلفا لنبهته حتما الى ذلك . اما الآن ، عندما وضعت كرامتها الى جانب الكوبيك فى الطبق ، فقد تهلت .

ويستطرد جريشا :

— ثلاثة وعشرون ! سيميون سيميونيتش ! تسعة !

— صرصار ، صرصار ! — تصيح سونيا وهى تشير

الى صرصار يجرى فوق المائدة — آى !

ويقول اليوشا بصوت غليظ :

— لا تقتليه ، ربما عنده اولاد . . .

وتتابع سونيا الصرصار بعينها وتفكر فى اولاده : لابد

انهم صراصير صغيرة جدا !

ويواصل جريشا وهو يتعذب من فكرة ان آنيا قد بقيت

لديها فقط خانتان شاغرتان :

— ثلاثة واربعون ! واحد ! ستة !

وتصيح سونيا وهى تقلب عينها بدلال وتقهقه :

— كسبت ! انا كسبت !

وتستطيل وجوه اللاعبين .

ويقول جريشا وهو ينظر الى سونيا بحقد :

— فلنراجعها !

اخذ جريشا لنفسه حق القرار بحكم انه اكبر الجميع

واذكاهم . وكل ما يريده ينفذونه . وراحوا يراجعون ارقام

سونيا بدقة ولمدة طويلة . ولأسفهم الشديد اتضح انها لم

تغش . ويبدأ دور جديد .

وتقول آنيا وكأنما تخاطب نفسها :

— ماذا رأيت بالأمس ! فيليب فيليبوفتش قلب جفنيه
فاصبحت عيناه حمراوين ، مربعتين ، مثل عيون العفاريت .
فيقول جريشا :
— انا ايضا رأيته . . . ثمانية ! وعندنا تلميذ يستطيع
تحريك اذنيه . سبعة وعشرون !
ويرفع اندريه عينيه الى جريشا متفكرا ثم يقول :
— وانا ايضا استطيع تحريك اذني . . .
— اذن هيا حركها !
ويحرك اندريه عينيه وشفتيه وأصابعه ، ويخيل اليه
ان اذنيه تتحركان . ويدوي ضحك جماعي .
وتقول سونيا متنهدة :
— رجل سيى فيليب فيليبوفتش هذا . دخل بالامس
غرفتنا ، وكنت بقميص النوم فقط . . . وأحسست بعيب شديد !
وفجأة يصيح جريشا وهو يخطف النقود من الطبق :
— كسبت ! انا كسبت ! راجعوا اذا اردتم !
ويرفع ابن الطاهية عينيه وقد علاه الشحوب ، ثم
يهمس :
— يعنى انا لن العب بعد .
— لماذا ؟
— لانه . . . لانه لم يعد معى نقود .
فيقول جريشا :
— لايمكن اللعب بدون نقود !
ولمزيد من التأكد يفتش اندريه فى جيوبه مرة اخرى .
وعندما لا يجد شيئا سوى فتات الخبز وقطعة قلم رصاص
معضوضة ، تتقلص شفاته وتطرف عيناه بعذاب . انه يوشك

على البكاء . . .

فتقول سونيا وهي لا تقوى على احتمال نظرتة المعذبة :
— سأضع بذلك ! لكن لا بد ان تردها فيما بعد .
ويوضع الرهان ويستمر اللعب .

وتقول آنيا وهي تحملق بعينين واسعتين :
— يبدو ان احدا يقرع الجرس .
يتوقف الجميع عن اللعب ويحدقون في النافذة المظلمة
بأفواه مفتوحة . ومن خلف الظلام تتراقص انعكاسات المصباح .
— لقد خيل اليك .

ويقول اندريه :

— الاجراس لا تدق ليلا الا في المقابر . . .
— ولماذا يدقون الاجراس هناك ؟
— لكى لا يتسلل قطاع الطرق الى الكنيسة . فهم
يخافون الرنين .
فتسأل سونيا :

— ولماذا يتسلل قطاع الطرق الى الكنيسة ؟
— معروف لماذا . . . لكى يقتلوا الحراس !
وتمر دقيقة صمت . ويتبادل الجميع النظرات ،
وينتفضون ، ثم يواصلون اللعب . ويكسب اندريه فى هذه
المره .

وفجأة يصيح اليوشا بصوت غليظ :

— لقد غش !

— كذاب ، انا لم اغش !

ويمتقع اندريه وتتقلص شفتاه ويخبط اليوشا على رأسه !
فتجحظ عينا اليوشا بغل ، ويقفز من مكانه ويرتكز على

الطاولة بركبته ، وبدوره يصفع اندريه على خده ! ثم يوجه كل منهما الى الآخر صفعة اخرى وينفجران بالبكاء . وسونيا ، التى لا تطيق مثل هذه المشاهد الرهيبة ، تنخرط ايضا فى البكاء ، فتدوى غرفة الطعام بأصوات العويل المتعددة . ولا تظنوا ان اللعب قد انتهى بسبب ذلك . فلا تمر سوى خمس دقائق حتى يعودوا الى الضحك والحديث المسالم . وعلى الوجوه آثار الدموع ، ولكن ذلك لا يعوقهم عن الابتسام . بل ان اليوشا سعيد فيها قد حدثت مشاحنة !

ويدلف فاسيا ، تلميذ الصف الخامس ، الى غرفة الطعام . تبدو عليه آثار النعاس وخيبة الأمل . ويقول لنفسه وهو يرى جريشا يتحسس جيبه الذى ترن فيه الكوييكات : «يا للفضاعة ! كيف يعطون نقودا للاطفال ! كيف يمكن السماح لهم بلعب القمار ! يالها من تربية عظيمة ! يا للفضاعة !»

ولكن الاطفال يلعبون بتلذذ الى درجة تثير فيه الرغبة فى الالتحاق بهم لكى يجرب حظه . فيقول :
— انتظروا ، سألعب معكم .

— ضع كوبيكا !

— حالا ، — يقول وهو يبحث فى جيوبه . — ليس

معى كوبيك ، ها هو روبل . اضع روبلا * .

— لا ، لا ، لا ضع كوبيكا !

— ايها الحمقى الروبل على اى حال اغلى من

* الروبل وحدة نقدية تساوى مائة كوبيك . المغرب .

الكوبيك . — يقول التلميذ موضحا . — من يكسب منكم يعطنى الباقي .

— لا ، ابتعد لو سمحت !

يهز تلميذ الصف الخامس كتفيه ويمضى الى المطبخ ليأخذ من الخدم فكة . ويتضح انه لا يوجد فى المطبخ كوبيك واحد .

ويعود من المطبخ فيلحّ على جريشا :

— فى هذه الحالة فك لى الروبل . سأعطيك مقابل الفك ، الا تريد ؟ اذن بع لى عشرة كوبيكات بروبل . يتطلع جريشا بارتياح الى فاسيا : أليس فى طلبه هذا مؤامرة ؟ أليس فيه احتيال ؟ ويقول قابضا على جيبه :

— لا اريد .

ويثور فاسيا ويغلى ، ويسبهم بالاغبياء واصحاب الرؤوس الغليظة .

فتقول سونيا :

— فاسيا ، سأضع بذلك ! اجلس . فيجلس التلميذ ويضع امامه بطاقتين . وتبدأ آنيا فى اعلان الاعداد .

وفجأة يعلن جريشا بصوت منفعل :

— سقط منى كوبيك ! انتظروا !

وينزعون المصباح المعلق ويهبطون تحت الطاولة ليهبثوا عن الكوبيك . وتقع ايديهم على البصقات وقشر الجوز وتصطدم رؤوسهم . ولكنهم لا يعثرون على الكوبيك . ويعاودون البحث من جديد ، ويبعثون الى ان يتتزع فاسيا المصباح من يدي

جريشا ويضعه فى مكانه . ويواصل جريشا البحث فى
الظلام .

واخيرا يعثر على الكوبيك ، فيجلس اللاعبون الى
الطاولة لمواصلة اللعب .

ويعلن اليوشا :

— سونيا نامت !

وضعت سونيا رأسها المجدد الخصلات على يديها وغابت
فى نوم عذب هادئ عميق ، كأنما تنام منذ ساعة . نامت
دون قصد ، عندما كان الآخرون يبحثون عن الكوبيك .
فتقول لها آنيا وهى تسحبها من غرفة الطعام :

— هيا نامى على سرير ماما . هيا !

يقودونها جماعة . وبعد ما لا يزيد عن خمس دقائق
يتحول سرير ماما الى منظر طريف . سونيا نائمة . ويجوارها
يشخر اليوشا . وينام جريشا وآنيا متوسدين ارجل سونيا واليوشا .
واندرية ، ابن الطاهية ، تمدد هنا ايضا مع الآخرين .
ومن حولهم تناثرت الكوبيكات التى فقدت سلطانها عليهم
حتى موعد اللعب القادم . تصبحون على خير !

وحشة

لمن اشكو حزني ؟ . .

غسق المساء . ندف الثلج الكبيرة الرطبة تدور بكسل
حول مصابيح الشارع التي أضيئت لتوها ، وترسب طبقة
رقيقة لينة على أسطح المنازل وظهور الخيل ، وعلى الأكتاف
والقبعات . والحدوي أيونا بوتابوف أبيض تماما كالشبح .
انحنى متقوسا بقدر ما يستطيع الجسد الحي أن يتقوس وهو
جالس على المقعد بلا حراك . ويبدو أنه لو سقط عليه
كوم كامل من الثلج فربما ما وجد ضرورة لنفضه . . . وفرسه
ايضا بيضاء ، تقف بلا حراك . وتبدو بوقفها الجامدة ،
وعدم تناسق بدنها ، وقوائمها المستقيمة كالعصي حتى عن
قرب أشبه بحصان الحلوى الرخيص . وهي على الأرجح
مستغرقة في التفكير . فمن انتزع من المحراث ، من المشاهد
الريفية المألوفة وألقى به هنا في هذه الدوامة المليئة بالاضواء
الخرافية ، والصخب المتواصل والناس الراكضين ، لا يمكن
الا أن يفكر . . .

لم يتحرك أيونا وفرسه من مكانهما منذ وقت طويل .
كانا قد خرجا من الدار قبل الغداء ولكنهما لم يستفتحا حتى
الآن . وها هو ظلام المساء يهبط على المدينة . ويتراجع
شحوب اضواء المصابيح مفسحا مكانه للالوان الحية ،



وتعلو ضوضاء الشارع .

ويسمع أيونا :

— يا حوذى ! الى فيبورجسكاي ! يا حوذى !
ينتفض ايونا ، ويرى من خلال رموشه المكمللة بالثلج
رجلا عسكريا فى معطف بقلنسوة .

ويردد العسكرى :

— الى فيبورجسكاي ، ماذا ، هل انت نائم ؟ الى
فيبورجسكاي !

ويشد ايونا اللجام علامة الموافقة ، فتساقط اثر ذلك
طبقات الثلج من على ظهر الفرس ومن على كتفيه . . . ويجلس
العسكرى فى الزحافة . ويطلق الحوذى بشفتيه ، ويمد
عنقه كالبجعة ، وينهض قليلا ، ويلوح بالسوط بحكم العادة
اكثر مما هو بدافع الحاجة . وتمد الفرس ايضا عنقها ،
وتعوج سيقانها العسوية وتتحرك من مكانها بتردد . . .

وما أن يمضى ايونا بالزحافة حتى يسمع صيحات من
الحشد المظلم المتحرك جيئة وذهابا :

— الى أين تندفع أيها الاحمق ! أى شيطان القى
بك ؟ الزم يمينك !

ويقول العسكرى بانزعاج :

— انت لا تعرف كيف تسوق ! الزم يمينك !
ويسب حوذى عربة حنطور ، ويحرق بغضب أحد
المارة ، وكان يعبر الطريق فاصطدمت كتفه بعنق الفرس ،
وينفض الثلج عن كفه . ويتململ أيونا فوق المقعد وكأنه
جالس على جمر ، ويضرب بمرفقيه فى كلا الجانبين ، ويدور
بنظراته كالممسوس ، وكأنما لا يفهم أين هو ولماذا هو هنا .

— يا لهم جميعا من أوغاد ! كلهم يسعون الى
الاصطدام بك او الوقوع تحت أرجل الفرس . انهم متآمرون
ضدك .

يتطلع ايونا الى الراكب ويحرك شفتيه . . . يبدو أنه
يريد ان يقول شيئا ما ، ولكن لا يخرج من حلقه شيء
سوى الفحيح .
فيسأله العسكرى :

— ماذا ؟

يلوى أيونا فمه بابتسامة ويوتر حنجرتة ويفح :
— أنا يا سيدى . . . هذا الاسبوع يعنى . . ابنى مات .

— إِم ! . . ومم مات اذن ؟

يستدير ايونا بجسده كله نحو الراكب ويقول :
— ومن يدري ؟ الظاهر من الحمى . . . رقد فى المستشفى
ثلاثة ايام ومات . . . مشيئة الله .

ويتردد فى الظلام :

— حاسب يا ملعون ! هل عميت ايها الكلب العجوز ؟
افتح عينيك !

ويقول الراكب :

— هيا ، هيا سر . . . بهذه الطريقة لن نصل ولا
غدا . عجل !

ويمد الحوذى عنقه من جديد ، وينهض قليلا ويلوح
بالسوط بحركة رشيقة متثاقلة . ويلتفت الى الراكب عدة
مرات ، ولكن الأخير كان قد اغمض عينيه ويبدو غير
راغب فى الانصات . وبعد ان ينزله فى فيبورجسكايا يتوقف

عند إحدى الحانات ، وينحنى متفوساً وهو جالس على
مقعد الحوذى ، ويجمد بلا حراك مرة أخرى . . . ومن
جديد يصبغه الثلج الرطب هو وفرسه باللون الأبيض . وتمر
ساعة ، وأخرى . . .

على الرصيف يسير ثلاثة شبان وهم يقرعون بأحذيتهم
فى صخب ويتبادلون السباب . اثنان منهم طويلان نحيفان ،
والثالث قصير أهدب .

ويصيح الأهدب بصوت مرتعش :
— يا حوذى ، الى جسر الشرطة ! ثلاثة ركاب . .
بعشرين كوبيكا !

يشد أيونا اللجام ويطلق بشفتيه . ليست العشرون
كوبيكا بسعر مناسب ، ولكنه فى شغل عن السعر . . . فسواء
لديه روبل ام خمسة كوبيكات . . . المهم أن يكون هناك
ركاب . . . يقترب الشبان من الزحافة وهم يتدافعون بألفاظ
نايبة ، ويرتمى ثلاثتهم على المقاعد دفعة واحدة . وتبدأ
مناقشة قضية : من الاثنان اللذان سيجلسان ، ومن الثالث
الذى سيقف ؟ وبعد سباب طويل ونزق وعتاب يصلون الى
حل : الأهدب هو الذى ينبغى أن يقف باعتباره الأصغر .
فيقول الأهدب بصوته المرتعش وهو يثبت اقدامه ويتنفس
فى قفا ايونا :

— هيا عجل ! اضربها بالسوط ! يا لها من قبعة
لديك يا أخى ! لن تجد فى بطرسبرج كلها اسوأ منها . . .
فيقهقه ايونا :

— هى-هى . . . هى-هى . هذا هو الموجود . . .
— اسمع انت ، ايها الموجود ، عجل ! هل ستسير

ويقول أحد الطويلين :
— رأسى يكاد ينفجر . . . بالأمس شربت أنا وفاسكا
عند آل دوكماسوف أربع زجاجات كونياك نحن الاثنين .
ويقول الطويل الآخر بغضب :
— لا أدري ما الداعي للكذب ! يكذب كالحيوان .
— عليّ اللعنة ان لم يكن حقيقة . . .
— انها حقيقة مثلما هي حقيقة أن القملة تسعل .
فيضحك أيونا :

— هيء-هيء . . . سادة ظرفاء !
ويقول الأحذب بسخط :
— فلتخطفك الشياطين ! هل ستعجل ايها الوباء
العجوز ام لا ؟ هل هذا سير ؟ ناولها بالسوط ! هيا ايها
الشیطان ! هيا ! ناولها جيذا !
ويحس أيونا خلف ظهره بجسد الأحذب المتململ
ورعشة صوته . ويسمع السباب الموجه اليه ، ويرى الناس
فيبدأ الشعور بالوحدة يتراح عن صدره شيئا فشيئا . ويظل
الأحذب يسب حتى يغص بسباب منتقى فاحش وينفجر
في السعال . ويشعر الطويلان في الحديث عمن تدعى
نادي جدا بتروفا . ويتطلع أيونا نحوهم . وينتهاز فرصة الصمت
فيتطلع نحوهم ثانية ويدمدم :

— أصل أنا . . . هذا الأسبوع يعني . . . ابني مات !
فيتنهد الأحذب وهو يمسح شفتيه بعد السعال :
— كلنا سنموت . . . هيا عجل ، عجل ! يا سادة ،
أنا لا يمكن أن أمضي بهذه الطريقة ! متى سيوصلنا ؟

— حسنا ، فلتشجعه قليلا في قفاه !

— هل سمعت ايها الوباء العجوز ؟ سأكسر لك عنقك !

التلطف مع جماعتكم معناه السير على الأقدام . . . هل
تسمع ايها الثعبان الشرير ؟ ام انك تبصق على كلماتنا ؟
ويسمع أيونا أكثر مما يحس بصوت الصفعة على قفاه .
فيضحك :

— هيء-هيء . . . سادة ظرفاء . . . ربنا يعطيكم الصحة !
ويسأل أحد الطويلين :

— يا حوذى ، هل أنت متزوج ؟

— أنا ؟ هيء-هيء . . . سادة ظرفاء ! لم يعد لديّ

الآن الا زوجة واحدة : الارض الرطبة . . هيء-هوء-هوء . . .
القبر يعنى ! . . ها هو ابني قد مات وأنا أعيش . . . حاجة
غريبة ، الموت غلط في الباب . . . بدلا من أن يأتيني
ذهب الى ابني . . .

ويلتفت ايونا لكي يروى كيف مات ابنه ، ولكن
الأحذب يتنهد بارتياح ويعلن انهم اخيرا ، والحمد لله ،
وصلوا . ويحصل ايونا على العشرين كوييكا ويظل ينظر
طويلا في أثر العابشين وهم يختفون في ظلام المدخل .
وها هو وحيد ثانية ، ومن جديد يشمله السكون . . . والوحشة
التي هدأت قليلا تعود تطبق على صدره بأقوى مما كان .
وتدور عينا ايونا بقلق وعذاب على الجموع المهرولة على جانبي
الشارع : ألن يجد في هذه الآلاف واحدا يصغى اليه ؟
ولكن الجموع تسرع دون أن تلاحظه أو تلاحظ وحشته . . .
وحشة هائلة ، لا حدود لها . لو أن صدر ايونا انفجر ،
وسالت منه الوحشة فربما اغرقت الدنيا كلها ، ومع ذلك

لا أحد يراها
ضئيلة فلن تُرى حتى فى وضوح النهار . . .
ويلمح ايونا ببوابا يحمل قرطاسا فينوى ان يتحدث اليه .
ويسأله :

— كم الساعة الآن يا ولدى ؟

— التاسعة . . . لماذا تقف هنا ؟ امش !

يتحرك ايونا عدة أمتار ، ثم ينحنى متقوسا ، ويستسلم
للوحشة . . . ويرى انه لا فائدة بعد من مخاطبة الناس .
ولكن ما ان تمر بضع دقائق حتى يعتدل ، وينفض رأسه
كأنما أحس بوخزة ألم حادة ، ويشد اللجام . . . لم يعد
قادرا على التحمل .

ويقول لنفسه : «الى البيت ! الى البيت !»
وكأنما فهمت الفرس أفكاره فتبدأ فى الركض بخبيب .
وبعد حوالى ساعة ونصف يكون ايونا جالسا بجوار فرن كبير
قذر . وفوق الفرن ، وعلى الارض ، وعلى الأرائك يتمدد
اناس يشخرون . والجو مكتوم خائق . . . يتطلع ايونا الى
النائمين ويحك جلده ويأسف لعودته المبكرة الى البيت . . .
ويقول لنفسه : «لم أكسب حتى حق الشعير . . ولهذا
أشعر بالوحشة . الرجل الذى يعرف عمله . . الذى هو نفسه
شبعان وفرسه شبعى ، هو دائما مطمئن البال . . .»
فى احدى الزوايا ينهض حوذى شاب ، ويزجر بصوت
ناعس ، ويمد يديه الى الدلو .

فيسأله أيونا :

— أردت ان تشرب ؟

— كما ترى !

— طيب . . . بالهنا والشفاء . . . اما انا يا احي فقد مات
ابنى . . . هل سمعت ؟ هذا الاسبوع ، فى المستشفى . . .
حكاية !

ويتطلع ايونا ليرى اى تأثير تركته كلماته ، ولكنه
لا يرى شيئا . فقد تغطى الحوذى الشاب حتى رأسه وغط
فى النوم . ويتنهد العجوز ويحك جلده . . . فمثلا رغب
الحوذى الشاب فى الشرب يرغب هو فى الحديث . عما
قريب يمر اسبوع منذ أن مات ابنه ، بينما لم يتمكن
حتى الآن من الحديث عن ذلك مع أحد كما يجب . . .
ضرورى ان يتحدث بوضوح ، على مهل . . . ينبغى أن يروى
كيف مرض ابنه ، وكيف تعذب ، وماذا قال قبل وفاته ،
وكيف مات . . . ينبغى أن يصف جنازته وذهابه الى المستشفى
ليتسلم ثياب المرحوم . وفى القرية بقيت ابنته أنيسيا . . .
ينبغى أن يتحدث عنها ايضا . . . وعموما ، فما أكثر ما
يستطيع أن يرويه الآن ! ولا بد أن يتأوه السامع ويتنهد ،
ويرثى . . . والأفضل ان يتحدث مع النساء . فهؤلاء وان
كنَّ حمقاوات ، يعولن من كلمتين .

ويقول ايونا لنفسه : «فلأذهب لأتفقد الفرس . . .
أما النوم فبعدين . . . سأشبع نوما . . .»

يرتدى ملابس ملابسه ويذهب الى الاصطبل حيث تقف فرسه .
ويفكر فى الشعر ، والدريس والجو . . . فعندما يكون وحده
لا يستطيع ان يفكر فى ابنه . . . يستطيع ان يتحدث عنه
مع أحد ما ، أما ان يفكر فيه ويرسم لنفسه صورته فشيء
رهيب لا يطاق . . .

ويسأل ايونا فرسه عندما يرى عينيها الברاقتين :

— تمضغين ؟ حسنا ، امضغى ، امضغى . . . ما
دمنا لم نكسب حق الشعير فسأكل الدريس . . . نعم . . .
أنا كبرت على السياقة . . . كان المفروض أن يسوق ابنى
لا أنا . . . كان حوذيا أصيلا . . . لو أنه فقط عاش . . .
ويصمت ايونا بعض الوقت ثم يواصل :
— هكذا يا أختى الفرس . . . لم يعد كوزما ايونيتش
موجودا . . . رحل عنا . . . فجأة مات ، خسارة . . . فلنفرض
مثلا ان عندك مهرا ، وأنت أم لهذا المهر . . . ولنفرض ان
هذا المهر رحل فجأة . . . أليس مؤسفا ؟
وتمضغ الفرس وتنصت وتزفر على يدى صاحبها . . .
ويندمج ايونا فيحكى لها كل شىء . . .

هـرج

ما ان عادت ماشنكا بافليتسكايا ، الفتاة الشابة ،
التي أنهت دورة المعهد النسائي مؤخرا ، من نزهتها الى
دار آل كوشكين ، حيث كانت تقطن وتعمل مربية ، حتى
رأت هرجا لم يسبق له مثيل . وكان البواب ميخايلو ،
الذى فتح لها الباب منفعلا وأحمر الوجه كسرطان البحر .
ومن أعلى تناهى ضجيج .

وفكرت ماشا : «لابد أن السيدة أصيبت بنوبة . . .
او انها تشاجرت مع زوجها . . .» .

والتقت فى المدخل ثم فى الطريقة بالخادومات ، وكانت
احداهن تبكى . ثم رأت ماشنكا كيف خرج من باب غرفتها
هى رب الدار نفسه نيقولاى سيرجيتش ، وهو رجل صغير ،
لم يهرم بعد ، ذو وجه متقزز وصلعة كبيرة . كان محمرا ،
يرتعد . . . ومر بجوار المربية دون ان يلاحظها ، وصاح
هاتفا وهو يرفع يديه الى أعلى :

— اوه ، ما أفضع هذا ! يا لانعدام اللباقة ! ما
أغبى هذا ، ما أشنع ! ما أحطه !

دخلت ماشنكا غرفتها ، وهنا كابدت لأول مرة فى
حياتها وبكل حدة ، ذلك الاحساس المعروف جيدا لمن

هم فى وضع التبعية ، لغير القادرين على الرد ، لمن يعيشون فى كنف الأغنياء والأكابر . كانت غرفتها تتعرض للتفتيش . وكانت ربة الدار فيدوسيا فاسيليفنا ، وهى امرأة بدينة ، عريضة الكتفين ، ذات حاجبين أسودين كثيفين وشعر مسترسل ، حادة التقاطيع ، بشارب خفيف لا يكاد يلحظ وذراعين حمراوين ، تشبه بوجهها وحركاتها طاهية من عامة النساء ، كانت تقف الى جوار مكتب ماشنكا وتعيد الى حقيبته يدها لفائف صوف وقطع قماش ، واوراقا ما . . . ويبدو ان مجيء المربية كان مفاجأة لها ، لأنها عندما التفتت ورأت وجهها الشاحب المندهش ، ارتبكت قليلا وغمغمت :

— * Pardon ، انا . . . انا . . . سقطت منى عفوا . .

اشتبكت بكى . . .

وبعد ان دمدمت مدام كوشكينا بكلمات ما ، هفهفت بذيل فستانها وخرجت . وطافت ماشنكا بنظرات مندهشة على غرفتها ، وهزت كتفها وهى لا تفهم شيئا ولا تدرى ماذا تظن ، وتثلجت اطرافها خوفا . . . عم كانت فيدوسيا فاسيليفنا تفتش فى حقيبته يدها ؟ لو كان صحيحا ما قالت بأن كمها اشتبك عفوا بالحقيبة فتبعثرت محتوياتها ، فلماذا اذن انفلت نيقولاى سرجييتش من الغرفة محمرا ومنفعلا بتلك الصورة ؟ ولماذا يبرز قليلا أحد أدراج المكتب . والحصالة التى كانت المربية تخبىء فيها قطع النقود والطوابع القديمة

* عفوا (بالفرنسية فى الأصل) . العرب .

كانت مفتوحة . لقد فتحوها ولكنهم لم يتمكنوا من اغلاقها رغم أنهم ملأوا القفل بالخدوش . وكان رف الكتب وسطح المكتب ، والفراش . . كل ذلك كان يحمل آثار التفتيش القريب . وكذلك سلة الملابس . كانت الملابس مرتبة بعناية ، ولكن ليس بنفس الترتيب الذى وضعته بها ماشنكا قبل ان تغادر المنزل . اذن فقد جرى تفتيش حقيقى ، تفتيش بمعنى الكلمة ، ولكن ما الداعى له ، ولماذا ؟ ماذا حدث ؟ وتذكرت ماشنكا اضطراب البواب ، والهرج الذى لا زال مستمرا ، والخادم الباكىة . . أليس لكل ذلك علاقة بالتفتيش الذى جرى فى غرفتها منذ قليل ؟ أتكون متورطة فى قضية رهيبه ؟ امتنعت ماشنكا وتهالكت فوق سلة الملابس باردة الجسم تماما .

ودخلت الخادم الغرفة .

فسألتها المربية :

— ليزا ، الا تعرفين لماذا . . . فتشونى ؟

فقلت ليزا :

— ضاع من السيدة بروش ثمنه ألفا روبل . . .

— طيب ، ولكن لماذا يفتشونى ؟

— فتشوا الجميع يا آنسة . وأنا فتشونى كلى . . .

جردونا من ملابسنا تماما وفتشونا . . . اننى يا آنسة . . . يشهد الله . . . لم ألمس بروش السيدة ، بل لم اقترب حتى من تسريحتها . . . ومستعدة ان أقول ذلك حتى للشرطة .

ومضت المربية تقول بدهشة :

— ولكن . . . لماذا يفتشونى ؟

— قلت لك ان البروش قد سرق . . السيدة نفسها

فتشت بيديها كل شيء . . . حتى البواب ميخايلو فتشته
بنفسها . يا للعار ! ونيقولاى سرجييتش لا يستطيع ان يفعل
الا أن ينظر ويقوقىء كالدجاجة . اما أنت يا آنسة فعبثا
ترتعدين . لم يجدوا شيئا لديك ! ما دمت لم تأخذى
البروش فليس هناك ما تخشيه .

فقالت ماشنكا وهى تختنق من الغضب :
— ولكن هذا يا ليزا وضع . . . مهين ! انها
خسة ، وضاعة ! بأى حق تشك فى وتفتش
أغراضى ؟

فتنهدت ليزا قائلة :

— انت تعيشين عند الغير يا آنسة . . . ورغم أنك
آنسة . . . فمع ذلك . . . أنت كالخادم . . . ليس هذا مثل
العيش عند بابا وماما . . .

ارتمت ماشنكا على السرير وانتحبت بحرقة . لم يحدث
ابدا من قبل ان تعرضت لمثل هذا القهر ، ولم يحدث
ابدا من قبل ان أهينت بهذه الصورة كما حدث الآن . . .
هى الفتاة الحساسة ، المؤدبة ، ابنة مدرس ، يرتابون فيها
كسارقة ، ويفتشونها كامرأة من الشارع ! لا يمكن ، فيما
يبدو ، ان تكون هناك اهانة اكبر من هذه . واقرن بهذا
الاحساس بالاهانة خوف ثقيل : ترى ماذا سيحدث ؟ !
وطافت برأسها شتى الخواطر الخرقاء . فاذا كانوا قد ارتابوا
فى انها سارقة ، فهذا يعنى انه من الممكن ان يعتقلوها ،
ويجردوها من ملابسها ويفتشوها ، ثم يسوقوها فى الشارع
تحت الحراسة ، ويضعوها فى زنزانه مظلمة باردة مع الفئران
والصراصير ، زنزانه تشبه بالضبط تلك التى وضعت فيها

الأميرة تراكانوفا * . فمن ذا الذى سيدافع عنها ؟ أهلها يعيشون بعيدا فى الأرياف ، وليس لديهم نقود ليأتوا إليها . وهى وحيدة فى العاصمة ، كأنما فى حقل خاو ، بلا أهل او معارف . يستطيعون ان يفعلوا بها كل ما يريدون . وفكرت ماشنكا وهى ترتعش : «سألجأ الى كل القضاة والمحامين . . . سأشرح لهم الأمر ، وسأقسم . . . وسيصدقون اننى لا يمكن ان أكون سارقة !»

وتذكرت ماشنكا ان لديها فى سلة الملابس ، تحت الملاءات ، بعض الحلوى ، التى كانت تخبئها حسب عاداتها القديمة ايام المعهد فى اثناء الغداء ، ثم تحملها الى غرفتها . وارتجفت من فكرة ان سرها الصغير هذا أصبح معروفا لأصحاب الدار ، وشعرت بالخجل ، وبسبب هذا كله : بسبب الخوف والخجل والاهانة راح قلبها يدق بعنف ، وتتردد دقاته فى صدغيها ويديها وفى أعماق احشائها . وسمعت صوتا يدعوها :

— تفضلى للغداء !

«أذهب أم لا ؟»

سوت ماشنكا شعرها ، ومسحت وجهها بمنشفة مبللة ، وذهبت الى غرفة الطعام . وكانوا هناك قد بدأوا الغداء . . . وعلى أحد طرفى المائدة جلست فيدوسيا فاسيليفنا ، بعظمة ،

* لوحة شهيرة للمصور فلاديسكى (١٨٦٤) تصور الاميرة تراكانوفا التى ادعت أحقيتها بعرش روسيا وهى فى فرنسا عام ١٧٧٢ ، والقى القبض عليها فى ايطاليا ، واعيدت الى بطرسبرج حيث سجنى فى قلعة بطرس وباول ، وتوفيت بالسل . المغرب .

بوجه بليد جاد ، وعلى الطرف الآخر جلس نيقولاى سيرجيتش .
وعلى الجانبين جلس الضيوف والأولاد . وقام وصيفان يرتديان
حلل «الفراك» والقفازات البيضاء بتقديم الطعام . وكان الجميع
يعلمون ان الهرج يعم المنزل ، وان ربة الدار تعاني الفجيرة ،
فلزموا الصمت . ولم يكن يسمع سوى صوت المضغ ودقات
الملاعق على الاطباق .

وبدأت الحديث ربة الدار نفسها . فسألت الوصيف
بصوت فاطر معذب :

— ماذا لدينا للطبق الثالث ؟

فأجاب الوصيف :

— أستورجون ألا روس !

وأسرع نيقولاى سيرجيتش يقول :

— انا الذى طلبته يا فينيا . . . رغبت فى السمك . . .

اذا كان لا يعجبك يا * ma chère دعيه لا يقدمه . . .
انا طلبته هكذا . . . بالمناسبة . . .

لم تكن فيدوسيا فاسيليفنا تحب الأكلات التى لا
توصى هى بطلبها ، وها هى عيناها الآن تغرورقان بالدموع .
— ما هذا ، لا ينبغي ان تنفعلى ، — قال ماميكوف ،
طبيبها المتزلى بصوت معسول ، وهو يلمس ذراعها برقة
ويبتسم ايضا ابتسامة معسولة . — نحن بدون ذلك عصبيون
بما فيه الكفاية . فلننس البروش ! الصحة أغلى من ألفى
روبل !

* عزيزتى — (بالفرنسية فى الأصل) . المعرب .

فأجابت ربة الدار بينما انحدرت دمة كبيرة على خدها :
— أنا لا آسف على الألفى روبل . ان ما يستفزنى
هو الواقعة بحد ذاتها ! لن أصبر فى بيتى على اللصوص .
أنا لا أبخل ، لا أبخل بشيء ، ولكن أن يسرقونى .
يا له من جحود ! أهكذا يكافئونى على طيبتى . . .
كان الجميع ينظرون فى اطباقهم ، بيد انه خيل
لماشنكا انهم جميعا تطلعوا اليها بعد كلمات ربة الدار .
وفجأة طبقت الغصة على زورها ، فبكت وضغطت بالمنديل
على وجهها .
ودمدت :

— Pardon ، انا لا استطيع . أشعر بصداع .
سأذهب .

ونهضت من المائدة فأثارت جلبه بكرسيها وازدادت
ارتباكاً فأسرعت بالانصراف .

وقال نيقولاى سرجيتش ممتعضا :

— الله يعلم ما هذا ! ما كان ينبغى تفتيشها !
هذا فى الحقيقة . . غير مناسب .

فقالت فيدوسيا فاسيليفنا :

— انا لا أدعي أنها اخذت البروش ، ولكن هل
تستطيع ان تضمنها ؟ انا بصراحة لا أميل الى تصديق
هؤلاء الفقيرات المثقفات .

— حقاً يا فينيا هذا غير مناسب . . عفواً يا فينيا ،

ولكنك لا تملكين قانونيا اى حق فى اجراء تفتيش .

— أنا لا أعرف قوانينكم ، أنا أعرف فقط انه قد

ضاع منى بروش ، وهذا كل ما هنالك . وسوف أجد

هذا البروش ! — وضربت الطبق بالشوكة ، ولمعت عيناها بغضب . — اما أنت فلتأكل ، ولا تتدخل فى شئونى !
خفض نيقولاى سرجييتش بصره باستكانة وتنهد .
اما ماشنكا ، فبعد أن وصلت الى غرفتها ، ارتمت على الفراش . لم تعد تشعر بالخوف او الخجل ، بل راحت تعذبها رغبة قوية فى أن تذهب وتصفع تلك المرأة القاسية المتغطرسة البليدة السعيدة على خديها .

واخذت ، وهى راقدة تنفس فى الوسادة ، تحلم بأنه كم يكون جميلا لو استطاعت ان تذهب الآن وتشتري أغلى بروش وتلقى به فى وجه هذه الحمقاء المستبدة . لو ان الله يشاء فينزل الخراب بفيدوسيا فاسيليفنا فتمضى تتسول ، لتدرك كل فظاعة الفقر ووضع التبعية ، ولو ان ماشنكا المهانة تمد لها عندئذ يدها بحسنة ! أوه لو انها تحصل على ميراث كبير ، فتشتري عربية وتمر بها فى جلبة من أمام نوافذ فيدوسيا فاسيليفنا لكى تحسدها !

بيد ان كل ذلك كان مجرد احلام ، اما فى الواقع فلم يكن أمامها الا شىء واحد : أن تذهب من هنا بسرعة ، الا تبقى هنا ولا ساعة واحدة . صحيح أنه من المخيف أن تفقد الوظيفة ، لتعود مرة اخرى الى أهلها الذين لا يملكون شيئا ، ولكن ما العمل ؟ لم تعد ماشنكا تطيق رؤية ربة الدار ولا غرفتها الصغيرة ، كانت تشعر هنا بالاختناق والرعب . ضاقت بفيدوسيا فاسيليفنا ، المهووسة بأمراضها وارسقراطيتها المزعومة ، الى درجة بدا لها معها ان كل شىء فى العالم أصبح فظا وقميئا بسبب وجود هذه المرأة . وقفزت ماشنكا من السرير وراحت تجمع حاجياتها .

— هل استطيع الدخول ؟ — سأل نيقولاى سرجييتش من وراء الباب . كان قد اقترب من الباب بخطوات لا تسمع ، وقال بصوت خافت لئِن . — ممكن ؟ — ادخل .

ودخل ووقف الى جوار الباب . كانت تطل من عينيه نظرة كابية ، ولمع أنفه الصغير الاحمر . لقد شرب البيرة بعد الغداء ، وظهر ذلك واضحا من مشيته ويديه الضعيفتين الذابلتين .

وسأل وهو يشير الى السلة :

— ما معنى هذا ؟

— أجمع اغراضى . اعذرني يا نيقولاى سرجييتش ، ولكنى لا استطيع البقاء فى داركم . لقد كان هذا التفتيش اهانة بالغة لى !

— مفهوم . . . ولكن عبثا تفعلين هذا . . لماذا ؟ ليكن انهم فتشوك . . اما انت . . ماذا يضريك ؟ لن ينقص هذا التفتيش منك شيئا .

لزمت ماشنكا الصمت ومضت تجمع اغراضها .
وشد نيقولاى سرجييتش شعر شاربه وكأنما يفكر فيما يمكن ان يضيفه ، ومضى يقول بصوت متملق :
— انا طبعاً مقدر ، ولكن ينبغى ان تكونى متسامحة .

انت تعرفين ان زوجتى عصبية ، غير مترنة ، ولكن لا داعى للقسوة فى الحكم . . .
وصمتت ماشنكا .

واستطرد نيقولاى سرجييتش :

— اذا كنت تشعرين بأنك قد اهنت الى هذه الدرجة ،

حسنا ، اننى مستعد لان اعتذر لك . ارجو المعذرة .
لم تجب ماشنكا بشيء ، بل انحنت اكثر فوق
حقيبتها . لم يكن لهذا الرجل الهزيل الضعيف الارادة اى
وزن فى المنزل . كان يلعب دورا بائسا لشخص عالة وزائد
حتى عند الخدم . ولم يكن لاعتذاره أيضا اى وزن .
— هم . . . تصمتين ؟ تعتبرين هذا غير كاف ؟ اذن
فانا اعتذر عن زوجتى . باسم زوجتى . . . لقد تصرفت بعدم
لباقة ، وانا اعترف بذلك كنبيل . . .

وتمشى نيقولاى سرجييتش قليلا ، وتنهد ، ثم أضاف :
— اذن فأنت تريدان ان أشعر بالوخز هنا ، تحت
القلب . . . انت تريدان أن يعذبنى ضميرى . . .
فقلت ماشنكا وهى تنظر فى وجهه مباشرة بعينها
الواسعتين الباكيتين :

— انا اعرف يا نيقولاى سرجييتش انك لست مذنباً .
فلماذا اذن تتعذب ؟

— طبعاً . . . ولكن مع ذلك لا تفعلنى هذا . . . لا
تذهبنى . . . أرجوك .

فهزت ماشنكا رأسها بالنفى . وتوقف نيقولاى سرجييتش
عند النافذة وأخذ ينقر بأصابعه على الزجاج .
وقال :

— بالنسبة لى تعتبر كل هذه المشاكل عذاباً حقيقياً .
ماذا تريدان ان أفعل ، هل اركع على ركبتى امامك ام
ماذا ؟ لقد أهينت كرامتك ، وها أنت قد بكيت ، وتنوين
الرحيل ، ولكن انا ايضا لى كرامة ، وانت لا ترحمينها .
ام أنك تريدان أن أقول لك ما لن أقوله على كرسى الاعتراف ؟

تريدین ؟ اسمعی ، أتریدین ان اعترف لك بما لن اعترف
 به حتى فی لحظة الموت ؟
 ولزمت ماشنكا الصمت .
 — أنا الذی أخذت البروش من زوجتی ! — قال
 نيقولاى سرجييتش بسرعة . — هل انت راضية الآن ؟ مرتاحة ؟
 نعم انا اخذته . . . لكنی بالطبع آمل فی شهامتک . . .
 استحلفك ، ولا كلمة لأحد ، ولا شبه تلميح !
 ومضت ماشنكا تجمع أغراضها فی دهشة وذعر .
 كانت تلتقط الاشياء وتعصرها وتدسها بلا نظام فی الحقيبة
 والسلة . وبعد الاعتراف الصريح الذی ادلی به نيقولاى
 سرجييتش لم يعد بوسعها ان تبقى دقيقة واحدة ، ولم تعد
 تفهم كيف استطاعت ان تعيش قبل ذلك فی هذا المنزل .
 ومضى نيقولاى سرجييتش يقول بعد صمت قصير :
 — ليس هناك ما يدعو للدهشة . . . انها قصة عادية !
 كنت بحاجة الى نقود ، وهی . . . لا تعطينی . ان هذا
 المنزل وكل ما هنا . . . من ثروة أبی یا ماريا أندرييفنا !
 كل هذا ملكی ، والبروش كان لأمی و . . . كل هذا ملكی !
 لكنها اخذت كل شيء ، استولت عليه . . . ولتوافقینی ،
 فليس من المعقول أن أقاضیها . . . أرجوك ، بشدة ان
 تعذرینی و . . . تبقى .
 * Tout comprendre, tout pardonner
 هل تبقيين ؟

* فهم كل شيء — یعنی الصفح عن كل شيء — (بالفرنسية
 فی الأصل) . المعرب .

فقلت ماشنكا بحزم وبدات ترتعش :

— كلا ! دعنى أرجوك .

— طيب ، سامحك الله ، — قال نيقولاى سرجييتش

متنهذا وهو يجلس على الارىكة بجوار الحقيبة . — انا فى الحقيقة أحب أولئك الذين ما زالوا قادرين على الشعور بالغضب والاحتقار وغيره . بودى لو جلست دهرًا اتطلع الى وجهك الغاضب اذن فلن تبقى ؟ مفهوم . . . لا يمكن ان يكون الأمر غير ذلك . . . نعم ، طبعًا . . انت محظوظة ، أما انا فـ . . . هس ! ولا خطوة من هذا القبر . . . ولو ذهبت الى اية ضيعة من ضياعنا فسأجد هناك أذنان زوجتى فى كل مكان . . أولئك الخوليون ، والمهندسون الزراعيون ، فلتخطفهم الشياطين . يرهنون كل شىء ويعيدون رهنه . . ممنوع صيد السمك ، ممنوع دوس الاعشاب ، ممنوع تحطيم الأشجار .

وتناهى من الصالة صوت فيدوسيا فاسيليفنا :

— نيقولاى سرجييتش ! يا أجنيا ، نادى السيد !

وسأل نيقولاى سرجييتش وهو ينهض بسرعة ويتجه الى الباب :

— اذن لن تبقى ؟ ربما تبقيين مع ذلك ! أي

والله . . اذن لجئت اليك فى المساء . . وتحادثنا . هه ؟

ابقي ! لو ذهبت فلن يبقى فى البيت كله وجه انسانى

واحد . هذا فظيع !

كان وجه نيقولاى سرجييتش الهزيل الشاحب يتوسل ،

ولكن ماشنكا هزت رأسها نفيا ، فأشاح بيده وخرج .

وبعد نصف ساعة كانت فى الطريق .

انيوتا

فى أرخص غرفة من غرف البنسيون المفروش «لشبونة»
أخذ ستيان كلوتشكوف ، الطالب بالصف الثالث بكلية
الطب يروح ويجيى من ركن الى ركن وهو يستظهر علومه
الطبية . وبسبب الاستظهار المستمر الشاق جف ريق فمه
وتفصد العرق على جبينه .

وبجوار النافذة التى غطى الجليد اطرافها بنقشه ، وعلى
مقعد بلا ظهر ، جلست خليلته أنيوتا ، وهى فتاة صغيرة
الجسم ، نحيلة ، سوداء الشعر ، فى حوالى الخامسة
والعشرين ، شاحبة جدا ، ذات عينين رماديتين وديعتين .
جلست محنية الظهر وهى تطرز ياقة قميص رجالي بخيوط
حمراء . كان العمل مستعجلا . . . ودقت ساعة الطرقة بصوت
أبح معلنةً الثانية بعد الظهر ، بينما لم ترتب الغرفة بعد .
كانت البطانية المجددة ، والوسائد المبعثرة ، والكتب ،
والحلة ، والوعاء الكبير القذر المملوء بمياه الغسيل الصابونية ،
والتي كانت تعوم فيها اعقاب السجائر ، والقاذورات على
الارض . . . كان ذلك كله يبدو وكأنه تجمع فى كوم واحد ،
ونُخلط وجُعِدَّ عن عمد . . .

وقال كلوتشكوف وهو يستظهر بصوت عال :

— الرئة اليمنى تتكون من ثلاثة فصوص . . . حدودها !
الفص العلوى عند الجدار الامامى للصدر يصل الى الضلع
الرابع والخامس ، وعلى السطح الجانبى حتى الضلع
الرابع . . . وعند الجدار الخلفى حتى * spina scapulae . . .
ورفع كلوتشكوف عينيه نحو السقف وهو يحاول ان
يتصور ما قرأه لتوه . وعندما لم يصل الى تصور واضح أخذ
يتحسس ضلوعه العليا من خلال الصدري .
وقال :

— هذه الضلوع تشبه مفاتيح البيانو . ولكي لا يختلط
على الحساب لا بد ان أعودها . سيكون عليّ ان ادرسها
على الهيكل البشرى وعلى شخص حي . . . تعالى يا أنيوتا ،
هيا استرشد بك !

تركت أنيوتا التطريز ، ونزعت بلوزتها ، وانتصبت .
وجلس كلوتشكوف قبالتها ، وقطب حاجبيه ، وأخذ يعد
ضلوعها .

— هم . . . الضلع الاول لا أستطيع ان أتحمسه . . .
انه خلف الترقوة . . . أما هذا فهو الضلع الثانى اذن . . . حسنا . . .
وهذا الثالث . . . وهذا الرابع . . . هم . . . حسنا . . . ما لك
تنكمشين ؟

— أصابعك باردة !

— طيب ، طيب ، لن تموتى ، كُفى عن التملل .
اذن فهذا هو الضلع الثالث ، وهذا الرابع . . . يبدو من

* حتى شوكة عظمة اللوح (باللاتينية) . المعرب .

منظرك أنك هزيلة ، ومع ذلك لا أكاد أعثر على ضلوعك .
هذا هو الضلع الثاني . . . وهذا الثالث . . . كلا ، هكذا
سيختلط عليّ الأمر ولن أتصور بوضوح . . . ينبغي أن أرسمها . . .
اين قطعة الفحم ؟

تناول كلوتشكوف قطعة الفحم ورسم بها على صدر
أنيتا عدة خطوط متوازية تتفق والضلوع .
— رائع . كل شيء واضح تماما . حسنا ، والآن
استطيع أيضا ان أدق بأصابعي . هيا انهضي !
نهضت أنيتا ورفعت ذقنها . وانهمك كلوتشكوف في
الدق بأصابعه ، واستغرق تماما في هذا الأمر حتى انه لم
يلاحظ ان شفتي أنيتا وأنفها وأصابعها أزرقّت من البرد .
وكانت أنيتا ترتجف وهي تخشى أن يلحظ طالب الطب
رجفتها فيكف عن الرسم بالفحم وعن الدق ، ثم ربما
يرسب في الامتحان .

وقال كلوتشكوف بعد ان كف عن الدق :
— كل شيء واضح الآن . اجلسي هكذا ولا تمسحي
الخطوط ، اما انا فستظهر قليلا .
وعاد طالب الطب يتمشى ويستظهر . وجلست أنيتا
منكمشة ، بخطوط الفحم السوداء كالوشم على صدرها ،
وراحت تفكر . وعموما لم تكن تتحدث الا قليلا ، وكانت
دائما تبقى صامته ، وتفكر ، وتفكر . . .
طوال السنوات الست او السبع من تقلبها في البنسيونات
المفروشة عرفت حوالى خمسة اشخاص من امثال كلوتشكوف .
وقد تخرجوا جميعا من الجامعات ، وأصبحوا الآن ذوي
مكانة ، وكأناس محترمين فقد نسوها بالطبع منذ أمد بعيد .

واحد منهم يعيش فى باريس ، وأنال يعملون طبيين ،
والرابع مصور ، اما الخامس فيقال حتى انه أصبح استاذا .
وكلوتشكوف هو السادس وقريبا يتخرج هو ايضا ، ويصبح
ذا مكانة . مستقبلة بلا شك رائع ، وسيصبح كلوتشكوف ،
على الأرجح ، شخصية كبيرة ، ولكن الحاضر سيئ تماما :
فليس لديه تبغ أو شاي ، ولم يبق من السكر سوى أربع
قطع . ينبغي ان تنتهي من التطريز بأسرع ما يمكن ،
وتسلمه لصاحبة الطلب مقابل خمسة وعشرين كوبيكا ،
ثم تشتري بها شايا وتبغا .

وتردد من وراء الباب :

— هل يمكن أن أدخل ؟

وألقت أنيوتا بمنديل صوفي على كتفها بسرعة . ودخل

المصور فيتيسوف .

وقال مخاطبا كلوتشكوف وهو ينظر نظرة وحشية من

تحت الشعر المتهدل على جبينه :

— لى عندك رجاء . اصنع معروفا ، اعرنى فتاتك

الرائعة لمدة ساعتين ! اننى ارسم لوحة ، ولا أستطيع ابدا

بدون موديل !

فقال كلوتشكوف موافقا :

— أوه ، بكل سرور ! اذهبي يا أنيوتا .

فدمدمت أنيوتا بصوت خافت :

— وما الذى لم أره هناك !

— طيب ، كفى ! انه يطلبك من اجل

الفن ، وليس من اجل تفاهات . فلماذا لا تساعدينه اذا

كان فى وسعك ؟

وأخذت أنيوتا ترتدي ثيابها .

وسأله كلوتشكوف :

— وماذا ترسم ؟

— بسيثه * . موضوع جيد ، ولكنى لا أوفق فى

رسمه ؛ مضطر الى الرسم من موديلات مختلفة . بالامس

رسمت واحدة بسيقان زرقاء . سألتها لماذا ساقاك زرقاوان ؟

فقلت : لأن الجورب يبهت . وأنت ، ما زلت تستظهر ؟

يا لك من سعيد ، لديك صبر .

— الطب شيء لا يمكن ان تحصله بدون استظهار .

— هم . . لا مؤاخذه يا كلوتشكوف ، ولكنك تعيش

عيشة فظيعة ، كالخنازير ! الشيطان يعلم كيف تعيش !

— ماذا تقصد ؟ لا يمكن ان اعيش بصورة اخرى . . .

انا لا أتلقى من والدي الا اثني عشر روبلا فى الشهر ،

وبهذه النقود يستحيل ان تعيش عيشة لائقة .

فقال المصور وهو يمتعض باشمئزاز :

— هذا مفهوم . . . ومع ذلك من الممكن ان تعيش

أفضل . . . الشخص الراقى ينبغي ان يكون محبا للجمال .

أليس كذلك ؟ اما هنا فالشيطان يعلم ماذا لديك ! الفراش

غير مرتب ، وهذه الزبالة والقاذورات . . وعصيدة الامس

ما زالت فى الطبق . . . اخص !

فقال طالب الطب محرجا :

* فى الاساطير اليونانية هى تجسيد للروح البشرية فى صورة فتاة فاتنة الجمال ، بجناحي فراشة . المعرب .

— هذا صحيح . ولكن أنيوتا لم تتمكن اليوم من
تنظيف الغرفة . فهي مشغولة طوال الوقت .
وعندما خرج المصور وأنيوتا استلقى كلوتشكوف على
الكنبة ومضى يستظهر وهو راقد ، ثم غافله النعاس . وحينما
استيقظ بعد ساعة وضع رأسه بين قبضتيه واستغرق في التفكير
عابسا . تذكر ما قاله المصور من أن الانسان الراقى ينبغي
أن يكون محبا للجمال ، فبدا له جو الغرفة الآن بغیضا
ومنفرا بالفعل . وكأنما رأى بعين العقل مستقبلة حين يستقبل
الزبائن المرضى فى غرفة المكتب ، ويشرب الشاي فى
غرفة الطعام الواسعة بصحبة زوجته ، المرأة المحترمة . .
فأصبح هذا الوعاء ، بماء الغسيل القذر الذى تسبح فيه
اعقاب السجائر كرية المنظر الى حد لا يعقل . وبدأت له
أنيوتا ايضا قبيحة ، مهملة الثياب ، بائسة . . . فقرر أن
يفترق عنها على الفور ، مهما كان الأمر .
وحينما عادت من عند المصور وخلعت معطفها ،
نهض وقال لها بجدية :

— اسمعي يا عزيزتى . . اجلسي واصغي اليّ . ينبغي
أن نفترق ! باختصار انا لا أريد ان أعيش معك بعد الآن .
عادت أنيوتا من عند المصور متعبة منهكة . ومن طول
الوقوف كموديل ضمير وجهها وهزل فأصبح ذقنها أكثر حدة .
ولم تقل شيئا ردا على كلمات طالب الطب ، بل فقط
ارتعشت شفتاها .

وقال طالب الطب :

— على أية حال كنا سنفترق عاجلا ام آجلا . انت
فتاة جيدة ، طيبة . انت لست غبية فسوف تفهمين . . .

ارتدت أنيوتا المعطف ثانية ، ولفت تطريزها بورقة
في صمت ، وجمعت الخيوط والابر . ووجدت اللفة ذات
قطع السكر الاربع على النافذة ، فوضعتها على الطاولة بجوار
الكتب .

— هذا . . . سكرك . . . — قالت بصوت خافت واستدارت
لتخفي دموعها .
وسألها كلوتشكوف :

— طيب ، ولماذا تبكين ؟
وتمشى في الغرفة محرجا ثم قال :
— حقا انت غريبة . . انك تدركين اننا لا بد ان
نفترق . لا يمكن ان نبقي معا الى الابد .
كانت قد جمعت كل صررها الصغيرة ، واستدارت
نحوه لكي تودعه ، فشعر بالشفقة عليها .
وقال في نفسه : «ربما أدعها تبقى اسبوعا آخر هنا ؟
نعم ، بالفعل فلتبق قليلا ، وبعد اسبوع آمرها — أن
تذهب» .

وصاح بها بصرامة ، محنقا من ضعف ارادته :
— ما لك واقفة ! اذا كنت ستذهبين فلتذهبي ،
واذا لم تشائي فلتخلى المعطف ولتبقي ! ا بقي !
خلعت أنيوتا المعطف في صمت وسكون ، ثم تمخطت
ايضا بسكون ، وتنهدت ، واتجهت دون صوت الى موقعها
الدائم : الى المقعد بجوار النافذة .
وشد الطالب كتابه اليه وراح يسير من جديد من ركن
الى ركن . واخذ يستظهر :
— الرئة اليمنى تتكون من ثلاثة فصوص . الفص

العلوى عند الجدار الامامى للصدر يصل الى الضلع الرابع والخامس . . .

وصاح أحدهم فى الطريقة بأعلى صوته :

— يا جريجورى ، هات شايا !

مزحة

ساعة الظهر فى يوم شتائى صحو . . الصقيع شديد
قارس ، وحبّات الجليد الفضية تكسو خصلات فودى «نادنكا» *
والزغب فوق شفتها العليا . انها تتأبط ذراعى ، ونحس
واقفان فوق تل مرتفع . ويمتد من اقدامنا حتى الارض
شريط منحدر تشرق عليه الشمس كأنما تطل فى مرآة .
وبجوارنا زحافة صغيرة ، مكسوة بالجوخ الاحمر القانى .
وأتوسل اليها :

— فلنتزحلق الى أسفل يا ناديجدا بتروفنا ! مرة واحدة
أرجوك ! أوكد لك أننا سنصل سالمين دون أذى !
ولكن نادنكا خائفة . وتبدو لها المسافة من قدميها
الصغيرتين حتى نهاية التل الجليدى هوةً مرعبة لا قرار لها .
وتحتبس أنفاسها وتلهث بمجرد ان تنظر الى أسفل ، بمجرد
ان أعرض عليها الجلوس فى الزحافة ، فماذا سيحدث
اذن لو انها غامرت بالقفز الى الهوة ! ستموت فوراً او تجن .

* «نادنكا» و «ناديا» تدليل من الاسم الكامل «ناديجدا» .
المعرب .

واقول لها :

— أتوسل اليك ! لا داعى للخوف ! فلتفهمى ،

ان هذا ضعف ، جبن !

وأخيرا ترضح نادنكا ، فأرى فى وجهها أنها ترضح
مخاطرةً بحياتها . وأجلسها فى الزحافة وهى شاحبة مرتجفة ،
وأطوقها بذراعى ، وأرتمى معها فى الهوة .

تطير الزحافة كالرصاصة . ونشق الهواء فيلفحنا فى وجهينا ،
ويعول ، ويصفر فى آذاننا ويعربد ، ويخزنا بألم من شدة
الغضب ، ويريد أن ينتزع رأسينا من اكتافنا . ومن شدة
ضغط الريح لا نقوى على التنفس . يبدو وكأن الشيطان
نفسه قد طوقنا بيديه وأخذ يشدنا الى الجحيم وهو يزأر .
وتندمج الاشياء المحيطة بنا فى شريط طويل سريع راکض . . .
ويخيل الينا أننا الآن ، بعد لحظة ، سنلقى حتفنا !

واقول بصوت خافت :

— احبك يا ناديا !

وتقل سرعة الزحافة شيئا فشيئا ، ولا يعود زئير الريح
وأزيز قضبان الزحافة يبدوان مخيفين ، وتكف الانفاس عن
الاجتباس ، وأخيرا نجد أنفسنا عند أسفل التل . أما نادنكا
فبين الحياة والموت . انها شاحبة ، لا تكاد تتنفس . . .
وأساعدنها على النهوض .

— لن اترحلق مرة اخرى ابدا ، — تقول وهى تتطلع
الىّ بعينين واسعتين ملؤهما الرعب . — أبدا ، أبدا ! كدت
أموت !

وبعد قليل تعود الى حالتها الطبيعية ، وترمقنى بنظرات
متسائلة : أهو انا الذى قلت تلك الكلمات الثلاث ، أم

خيل اليها أنها سمعتها فى صخب الاعصار ؟ أما أنا فأقف بجوارها . أدخن ، وتفحص قفازى باهتمام .

وتتأبط ذراعى ، و تنتزه طويلا بجوار التل . يبدو ان اللغز يحيرها . هل قلت تلك الكلمات أم لا ؟ نعم أم لا ؟ نعم ام لا ؟ انها قضية كرامة ، شرف ، حياة ، سعادة ، قضية هامة جدا ، أهم قضية فى الدنيا . وتتطلع نادنكا الى وجهى بلهفة ، وحزن ، بنظرة ثابتة ، وترد بغير ما اسأل ، وتنتظر هل سأبدأ انا الحديث . أوه ، ياله من صراع يرتسم على هذا الوجه الرقيق ، ياله من صراع ! وأرى كيف تغالب نفسها ، تريد ان تقول شيئا ما ، تريد ان تسأل عن شيء ما ، لكنها لا تجد الكلمات المناسبة ، وتشعر بالحرج ، والرغبة ، وتعوقها الفرحة . . . وتقول دون ان تنظر الىّ :

— أتدرى ؟

فأسألها :

— ماذا ؟

— هيا مرة أخرى . . . نترحلق .

نصعد سلما الى التل . ومن جديد أجلس نادنكا الشاحبة المرتجفة فى الزحافة ، ومن جديد نظير الى الهوة الرهيبة ، ومن جديد تزار الريح وتثر القضبان ، ومن جديد ، وفى قمة طيران الزحافة وصخبها ، أقول بصوت خافت :
— أحبك يا نادنكا !

و حينما تتوقف الزحافة تلقى نادنكا نظرة على التل الذى انحدرنا من عليه لتونا ، ثم تفحص وجهى طويلا ، وتصغى الى صوتى اللامبالى المحايد ، وتنطق كلها ، حتى موفتها

وقلنسوتها ، وهياتها كلها ، بالدهشة البالغة . وعلى وجهها
قد كتب :

«ما الامر ؟ من الذى تفوه بتلك الكلمات ؟ هو ،
أم ان ذلك خيل اليّ ؟»

ويقلقها هذا المجهول ويخرجها عن صبرها . ولا ترد
الفتاة المسكينة على اسئلتى ، وتعبس وهى توشك على البكاء .
وأسألها :

— هلا عدنا الى البيت ؟

فتقول وهى تتضرع :

— ولكنى . . أنا يعجبني هذا الترحلق . ألا نترحلق

مرة أخرى ؟

«يعجبها» هذا الترحلق ، بينما يشحب وجهها وترتعش ،
وتحتبس انفاسها خوفا كما فى المرتين السابقتين عندما تجلس
فى الزحافة .

نهبط للمرة الثالثة ، وأراها تحديق فى وجهى وتراقب
شفتي . فأضع منديلا على فمى وأسعل ، وعندما نبلغ
منتصف التل أتمكن من الهمس :

— أحبك يا ناديا !

ويظل اللغز لغزا ! وتصمت نادنكا وهى تفكر فى
شئ ما . . . وأمضى لأوصلها من ميدان الترحلق الى بيتها ،
فتعتمد هى أن تسير على مهل ، وتبطئ من خطواتها ،
وطوال الوقت تنتظر ان أقول لها تلك الكلمات . وأرى كيف
تتعذب روحها ، وكيف تغالب نفسها لكى لا تقول :

«لا يمكن ان تكون الريح هى التى قالتها ! كما
أننى لا أريد ان تكون الريح هى التى قالتها !»

فى صباح اليوم التالى اتلقى رسالة قصيرة : « اذا كنت تنوى الذهاب اليوم الى ميدان الترحلق ، مر عليّ . — ن . » . ومنذ ذلك اليوم وأنا اذهب مع نادنكا يوميا الى ميدان الترحلق ، وعندما نهوى بالزحافة الى أسفل ، أقول فى كل مرة بصوت خافت نفس الكلمات :

— احبك يا ناديا !

وسرعان ما تتعود نادنكا هذه الجملة ، كما يتعود المرء الخمر او المورفين . ولا تستطيع ان تحيا بدونها . صحيح أنها ظلت تخاف الهبوط من التل ، ولكن الخوف والخطر أصبحا يضيفان سحرا خاصا على كلمات الحب ، هذه الكلمات التى بقيت كما كانت لغزا يثير الأشجان . والشك ما زال محصورا فى اثنين : أنا والريح . . . من منا الذى يروح لها بحبه . . انها لا تعرف ، ولكن يبدو ان الامر أصبح بالنسبة لها سيان . لا يهم من اى وعاء تشرب ، المهم ان تصبح ثملا .

وذات مرة ، ذهبت فى الظهر الى ميدان الترحلق وحدى . وعندما اختلطت بالحشد ، رأيت نادنكا تقترب من التل وهى تبحث عنى بعينيها . . . ثم ارتقت السلم فى وجل . . . كم هو مرعب أن تترحلق وحدها ، أوه كم هو مرعب ! انها شاحبة بلون الثلج ، وترتجف ، تمضى وكأنما تساق الى ساحة الاعدام ، ولكنها تمضى ، باقدام وحزم . يبدو انها قررت أخيرا أن تجرب : ترى هل ستسمع تلك الكلمات الحلوة المدهشة وأنا غير موجود ؟ وأراها وهى تركب الزحافة ، شاحبة ، مفعورة الفم من الرعب ، وتغمض عينيها ، وتودع الارض الى الابد ، وتنطلق من مكانها . . .

وتثر قضبان الزحافة : «ز-ز» . ترى هل تسمع نادنكا
تلك الكلمات ؟ لست أدري . . . أرى فقط أنها تنهض من
الزحافة منهكة ، خائرة . ويبدو من وجهها انها هي نفسها
لا تدري هل سمعت شيئا ام لا . فقد سلبها الخـوف
وهي تهوى الى اسفل القدرة على السمع وتميز الاصوات
والفهم . . .

وها هو شهر مارس ، شهر الربيع ، يأتى . . . وتصبح
الشمس أكثر رقة . ويميل لون تلنا الجليدى الى القتامة ،
 ويفقد بريقه ، وأخيرا يذوب . ونكف عن الترحلق . ولا
يعود لدى نادنكا المسكينة مكان تسمع فيه تلك الكلمات ،
بل وليس هناك من يقولها ، لأن الريح لم تعد تسمع ،
أما أنا فأستعد للسفر الى بطرسبرج لمدة طويلة ، وربما
الى الأبد .

وذات مرة ، قبل سفرى بحوالى يومين ، كنت جالسا
فى الحديقة ساعة الغسق . وكان هناك سور مرتفع بمسامير
يفصل هذه الحديقة عن الفناء الذى يقع فيه بيت نادنكا . . .
كان الجو لا يزال باردا ، والثلج لم يذب كله تحت السماد ،
والاشجار ميتة ، ولكن روائح الربيع انتشرت فى الجو ،
والغربان تصبح بصخب وهى تأوى الى النوم . اقتربت من
السور ورحت انظر طويلا فى الشق . ورأيت نادنكا تخرج
الى درج المدخل ، وتتطلع الى السماء بنظرة حزينة ملتاعة . . .
وتلفح رياح الربيع وجهها الشاحب المكتئب . . . وتذكرها
بتلك الريح التى كانت تزأر آنذاك فى وجهينا فوق التل
حينما سمعت تلك الكلمات الثلاث ، فيصبح وجهها حزينا
حزينا ، وتتدحرج على خدها دمعة . . . وتمد الفتاة المسكينة

ذراعيها ، كأنما تسأل هذه الريح أن تحمل اليها مرة أخرى
تلك الكلمات . فانتظر دفقة ريح وأقول بصوت خافت :
— احبك يا ناديا !

يا الهى ، ماذا جرى لنادنكا ! انها تصرخ وتبتسم
بوجهها كله ، وتمد ذراعيها لملاقاة الريح ، متهللة ،
سعيدة ، فى غاية الجمال .
وانصرف لأرتب حقائبى . . .

كان ذلك منذ زمن بعيد . أما الآن فنادنكا متزوجة .
زوجوها او تزوجت — هذا سيان — من سكرتير مجلس وصاية
النبلاء ، ولديها ثلاثة أطفال . ولكنها لم تنس كيف كنا
نذهب فى الماضى الى ميدان الترحلق ، وكيف حملت
الريح اليها كلمات «احبك يا ناديا» . أصبح هذا بالنسبة
لها الآن أسعد وأرق وأروع ذكرى فى الحياة . . .
أما أنا الآن ، وبعد أن صرت اكبر ، فلا أفهم
لماذا قلت تلك الكلمات ، ولأى غرض كنت أمزح . . .

أجافيا

عندما كنت أعيش فى ناحية «س» ، كثيرا ما كنت أتردد على مزارع الخضروات فى دوبوفو ، والتي يحرسها سافا ستوكاتش ، أو كما كان يدعى ببساطة : سافكا . كانت هذه المزارع أحب مكان اليّ للقيام بما يسمى صيد السمك «العمومى» ، عندما لا تعرف ، بعد أن تغادر البيت ، اليوم أو الساعة التى سترجع فيها ، وتأخذ معك كل معدات الصيد عن آخرها وتتزود بالموثونة . وفى الواقع لم يكن صيد السمك هو الذى يهمنى ، بقدر ما هو التسكع بلا هموم ، والأكل فى غير وقته ، والحديث مع سافكا ، والمواجهات الطويلة مع ليالى الصيف الهادئة . كان سافكا فتى فى حوالى الخامسة والعشرين ، فارغ القامة ، جميلا ، قويا كالحجر الصوّان . واشتهر كشخص عاقل فهيم ، وكان متعلما ، لا يشرب الفودكا الا نادرا ، ولكن هذا الفتى الشاب القوى كان لا يساوى ، كعامل ، مليما خردة . فالى جانب القوة ، تمدد فى عضلاته المفتولة كالحبال كسل ثقیل لا يقهر . وكان يعيش مثله مثل الآخرين فى القرية ، فى بيته الخاص ، ويملك قطعة أرض ، لكنه لم يكن يحرق او يبذر ولم يشتغل بآية حرفة . وكانت أمه العجوز

تتسول ، وهو ذاته كان يحيا كطيور السماء : لا يعرف صباحا ماذا سيأكل ظهرا . ولم تكن المسألة ترجع الى ضعف ارادته وطاقته ، او عدم اشفاقه على أمه ، وانما ببساطة كان لا يحس بالرغبة فى العمل ولا يدرك فائدته . . . كانت هياته كلها تنضح بخلو البال ، وبرغبة موروثه ، ك رغبات الفنانين ، فى العيش دون عناء ، وبإهمال . وعندما كان جسد سافكا الفتى القوى يحزن فسيولوجياً الى العمل العضلى كان الشاب ينهمك كلية فى عمل حر ولكنه تافه ، مثل سنّ أوتاد لا حاجة اليها البتة ، او التسابق فى الجرى مع نساء القرية . اما أحب وضع اليه فكان الوقوف بلا حراك مستغرقا فى التفكير . وكان بوسعه ان يقف ساعات طويلة فى مكانه دون حركة محدقا فى نقطة واحدة . وكان لا يتحرك الا بدافع الالهام ، وفقط عندما تتاح له فرصة الاتيان بحركة سريعة قصيرة : كأن يقبض على ذيل كلب راكض ، او ينتزع منديلا من على رأس فلاحه ، او يقفز فوق حفرة واسعة . ومن الطبيعى ، مع هذا البخل فى الحركة ، أن يكون سافكا عاريا كوليده ، وان يحيا اسوأ من أى عازب عجوز . وبمرور الوقت كان لا بد أن تتراكم عليه الديون ، فأرسله مجمع القرية ، وهو الشاب القوى ، الى وظيفة يقوم بها الشيوخ ، ليعمل حارسا وفزاعة طيور فى مزارع الخضروات العامة . ورغم كل السخريات التى تعرض لها بشأن شيخوخته المبكرة ، لم يعر الامر أدنى اهتمام . فهذه الوظيفة الهادئة المناسبة للتأمل الجامد كانت جد ملائمة لطبعه .

وقد تصادف أن ذهبت الى سافكا هذا فى احدى

امسيات شهر مايو الجميلة . واذكر انى تمددت على دثار
ممزق مهترئ مباشرة بجوار الخص ، الذى كانت تتصاعد
منه رائحة اعشاب جافة قوية خانقة . توسدت ذراعى ورحت
انظر أمامى . كانت هناك مدراة خشبية ملقاة عند قدمي .
ومن خلفها كانت تخز العين بقعة سوداء هى «كوتكا» .
كلب سافكا الصغير . وعلى بعد ذراعين لا اكثر من «كوتكا»
انشقت الارض عن شاطئ شديد الانحدار لنهر صغير .
لم اكن أستطيع ان أرى النهر من مرقدى . لم أر غير
قمم صفصافات كثيفة على هذا الشاطئ ، وحافة الشاطئ
الآخر المتعرجة وكأنها مقضومة . وبعيدا وراء الشاطئ ،
وعلى رابية معتمة تلاصقت كحجلات مذعورة بيوت القرية
التي كان يعيش فيها صاحبى سافكا . ومن خلف الرابية
كانت أضواء المغيب تتلاشى . ولم يبق الا شريط أحمر
شاحب ، وحتى هذا فقد أخذت تغلفه سحب صغيرة ،
كما يغلف الرماد الجمرات .

وعلى يمين المزارع لاح حرش أشجار حور رومى معتمة
وهى تهمس بحفيف خافت وتنتفض من هبات الريح العابرة ،
وعلى اليسار امتد حقل لا يحده البصر . وهناك ، حيث
لم يكن بوسع العين ان تميز فى الظلام الحقل عن السماء ،
تراقص ضوء ساطع . وغير بعيد عنى جلس سافكا . كان
يجلس القرفصاء وقد دلى رأسه ، وهو ينظر الى «كوتكا»
مستغرقا . كنا قد وضعنا سنانيرنا فى النهر منذ وقت بعيد ،
ولم يعد لدينا ما نفعله سوى الاستسلام للراحة التى كان
يحبها سافكا المستريح دوما ، الذى لم يجهد نفسه ابدا .
ولم يكن شفق المغيب قد تلاشى تماما ، بينما نشر ليل

الصيف على الطبيعة رفته الناعمة المخدرة .
سكن كل شيء فى بداية نوم عميق ، اللهم الا
طائر ليلي غير معروف لى اخذ يطلق فى الحرش بكسل
صوتا طويلا مؤلفا من مقاطع ، يشبه عبارة «هل رأيت
ني-كي-تا ؟» وعلى الفور يرد على نفسه : «رأيت ! رأيت !
رأيت !»

وسألت سافكا :

— لماذا لا تصدح البلابل الليلة ؟
فاستدار نحوى ببطء . كانت تقاطيع وجهه كبيرة ،
ولكنها صافية ، معبرة وناعمة كتقاطيع وجه المرأة . ثم
تطلع بعينه المستكيتين المستغرقتين الى الحرش ، ثم الى
الصفصافات ، واخرج من جيبه ببطء زمارة ، ودسها فى
فمه ، وصفر كالبلبل . وعلى الفور ، وكأنما ردا على صفيhre ،
نقر طائر التفلق البرى على الشاطىء الآخر .

وضحك سافكا ضحكة قصيرة :

— اليك بلبلا . . . انظر كيف ينقر : قر-قر ، قر-قر !
كأنه يشد ترباسا وتراه يظن أنه يغنى .
فقلت له :

— يعجبني هذا الطائر . أتدرى ؟ التفلق اثناء الهجرة
لا يطير ، بل يجرى على الارض . لا يطير الا فوق الانهار
والبحار ، وفيما عدا ذلك يسير .

فتمتم سافكا وهو ينظر باحترام ناحية التفلق الصارخ :
— يا سلام يا ملعون . . .

ولما كنت أعرف شغف سافكا بسماع الاحاديث فقد
رويت له كل ما أعرفه من كتب الصيد عن التفلق البرى .

وانتقلت من التعلق الى هجره الطيور . وكان سافكا يصعق
اليّ بانتباه دون ان تطرف عيناه ، وهو يتسم طول الوقت
من المتعة .
وسألني :

— أية ناحية أعز على الطيور ؟ ناحيتنا أم الاخرى ؟
— ناحيتنا طبعاً . فالطائر يولد هنا ، وهنا يربى
اولاده . هنا موطنه ، وهو يطير الى هناك فقط حتى لا
يتجمد من البرد .

فقال سافكا وهو يتمطى :

— عجيبة ! كل ما حولنا عجيب . فسواء طائر ،
أم انسان . . أو خذ مثلاً هذا الحجر . . في كل شيء
حكمة ! . . آه لو كنت أدري أنك ستأتى يا سيدى لما
سمحت للمرأة ان تحضر اليّ الليلة . . . فقد طلبت واحدة
ان تأتى الليلة . . .
فقلت له :

— خذ راحتك ، لن أزعجك ! استطيع أن أنام

فى الحرش . . .

— وهل هذا كلام ! ما كانت لتموت لو جاءت
غدا . . لا بأس لو أنها جلست تستمع الى الاحاديث ،
ولكنها فقط تجلس ولعابها يسيل . لا يمكن ان تتحدث
فى حضورها كما ينبغى .

وصمت قليلاً ثم سأله :

— هل تنتظر دارياً ؟

— لا . . . هذه المرة واحدة أخرى طلبت أن تأتى . . .

أجافيا ستريلتشىخا . . .

قال سافكا ذلك بصوته العادى ، الخالى من العاطفة ،
الخافت قليلا ، وكأنما كان يتحدث عن التبغ او العصيدة ،
أما أنا فقد انتفضت من الدهشة . كنت أعرف أجافيا
ستريلتشيخا . . . لقد كانت امرأة شابة تماما ، فى حوالى
التاسعة عشرة او العشرين ، وقد تزوجت منذ ما لا يزيد
عن عام من عامل تحويلة بالسكك الحديدية ، وهو فتى
شاب ، مهيب الطلعة . وكانت تعيش فى القرية ، أما
زوجها فكان يأتى من عمله كل ليلة ليبيت عندها .
وقلت متنهدا :

— حكاياتك هذه مع النساء ستنتهى نهاية سيئة يا
أخى !

— فليكن . . .

وفكر سافكا قليلا ثم أضاف :

— أنا قلت لهن ، ولكنهن لا يسمعن الكلام . . .
هؤلاء الحمقاوات لا يكفين ما هن فيه من مصائب ! . . .
وحلت فترة صمت . . . وفى تلك الاثناء كان الظلام
قد ازداد حلكة ، وفقدت الاشياء ملامحها المميزة . وانطفأ
الشريط وراء الرابية ، بينما ازدادت النجوم سطوعا واشعاعا . . .
ولم يعكر من صفو السكون الليلى صرير الجنادب الرتيب
اللامبالى او نقر التفلق او صياح السمان ، بل على العكس ،
أضفى عليه مزيدا من الرقابة . وبدا أن ما يردد هذه الاصوات
الخافتة ويسحر الاسماع ليست هى الطيور او الحشرات ،
بل النجوم التى كانت تتطلع الينا من السماء . . .
وكان سافكا أول من قطع حبل الصمت . حول نظره
ببطء من «كوتكا» اليّ ثم قال :

— أرى يا سيدى أنك تصجر . هيا ننعسى .
ودون ان ينتظر موافقتى زحف على بطنه داخل الخص ،
وبحث هناك فانتفض الخص كله كورقة شجرة ، ثم عاد
زحفا ووضع أمامى الفودكا التى أحضرتها أنا وصحفة من
الفخار . كان فى الصحفة بيض مشوى وشطائر من الجودار
بدهن الخنزير ، وكسر خبز أسود وأشياء أخرى . . . وشربنا
من كوب معوج لا يستقيم فى وقفته ، وشرعنا نأكل . . .
ملح رمادى خشن ، وشطائر قدرة مدهنة ، وبيض مرن
كالمطاط ، ومع ذلك فما أشهى ذلك كله !

وقلت لسافكا مشيرا الى الصحفة :

— تعيش أعزب ومع ذلك ما أكثر الخيرات لديك . .

من أين تحصل عليها ؟

فدمدم سافكا بصوت كالخوار :

— النساء يحضرنها . . .

— ولماذا يحضرنها لك ؟

— هكذا . . . من باب الشفقة . . .

لم يكن الطعام وحده ، بل وملبس سافكا ايضا ،
يحمل بصمات هذه «الشفقة» النسائية . ففي هذا المساء
مثلا لاحظت عليه حزاما جديدا من التيل وشريطا أحمر
فاقعا تدلى منه صليب نحاسى على رقبة القدرة . كنت
أعرف ميل الجنس اللطيف الى سافكا ، وكنت أعرف أنه
لا يرغب فى الحديث عن ذلك فلم أواصل التحقيق .
فضلا عن أن الوقت لم يكن مناسباً للحديث . . . اذ ان
«كوتكا» ، الذى كان يدور حولنا وينتظر فى صبر صدقاتنا ،
أرهف أذنيه فجأة وأخذ يزمجر . وتناهى من بعيد صوت

طرششة ماء متقطعة .

وقال سافكا :

— هناك شخص يعبر النهر . . .

وبعد حوالي ثلاث دقائق زمجر «كوتكا» ثانية ، وصدر

عنه صوت يشبه السعال .

فصاح به صاحبه :

— هس !

وتردد فى الظلام وقع خطوات وجلة ، وظهر من الحرش
شبح امرأة . وعرفتها رغم الظلام . . كانت هى أجافيا

ستريلتشيخا . اقتربت منا متهيبة ، وتوقفت وهى تلتقط
أنفاسها المبهورة . لم تكن تلهث بسبب المشى ، بقدر

ما هو ، على الأرجح ، بسبب الخوف والاحساس الكريه
الذى يراود كل من يخوض ليلا فى الماء . وعندما رأت

بجوار الخص شخصين بدلا من شخص واحد ، ندت
عنها صرخة ضعيفة ، وتراجعت خطوة الى الوراء .

وقال سافكا وهو يدس فى فمه شطيرة :

— آه . . . أهى انت !

— انا . . . نعم أنا . . . — دمدمت وهى تنظر الى شزرا

بينما سقطت من يدها لفة بها اشياء ما . — ياكوف يبلغك
تحياته وأمرنى أن احمل اليك هذه . . . هنا بعض الأشياء . . .

فضحك سافكا ساخرا :

— كفى كذبا ! أى ياكوف ! لا داعى للكذب ،

فالسيد يعرف لماذا جئت ! اجلسى ، ستكونين ضيفتنا .

نظرت أجافيا نحوى شزرا وجلست بتردد .

وقال سافكا بعد صمت طويل :

— طننت انك لن تاتى الليلة . . . ما لك جالسة ؟
كلى ! أم تريدین أن تشربى فودكا ؟
قدمدمت أجافيا :

— ما هذا الكلام ! . . . وهل أنا سكيرة . . .
— اشربى ، اشربى . . . سيزداد قلبك حرارة . . .
هيا !

ومد سافكا الى اجافيا الكوب الأعوج . فشربت الفودكا
ببطء ، ولم تمز ، بل زفرت بصوت عال .
— أحضرت شيئا ما . . . — قال سافكا وهو يفك الصرة
ويضفى على صوته نبرة مازحة متسامحة . — المرأة لا تستطيع
ان تأتى دون أن تحضر شيئا ما . آه ، هذه كعكة ،
وبطاطس . . . يعيشون فى رغد ! — زفر سافكا وهو يستدير
نحوى بوجهه . — لم يبق فى القرية كلها بطاطس من الشتاء
الماضى الا عندهم !

لم أر فى الظلام وجه أجافيا ، ولكن خيل اليّ من
حركة كتفيها ورأسها أنها لا تحول عينيها عن وجه سافكا .
وحتى لا أكون ثالث اثنين فى موعد غرام فقد قررت أن
أمضى لأتتره ، ونهضت . بيد انه فى تلك اللحظة صدح
بلبل فى الحرش فجأة بصوت رنان . وبعد نصف دقيقة
أطلق نقرا خفيفا كقرع الطبول ، وبعد أن جرب صوته بهذه
الطريقة ، بدأ يشدو . وقفز سافكا واقفا وأصاخ السمع .
وقال :

— انه بلبل الأمس ! طيب مهلا ! . . .
واندفع راكضا نحو الحرش بخطوات لا تسمع .
فصحت فى اثره :

— ما لك وما له ؟ دعه !

فأشاح بيده ، كأنما يقول : لا تصرخ ، واختفى في الظلام . كان بوسع سافكا عندما يشاء أن يصبح قناصا أو صياد سمك رائعا ، ولكن مواهبه في هذه الحالة أيضا كانت تتبدد هباء مثلها مثل قوته . كان كسولا ازاء الأعمال العادية ، أما كل ولعه بالصيد فكان يسخره لحيل تافهة . فهو مثلا لا يصطاد البلابل الا بيده ، ويطلق أعيرة الرش الرفيع على سمك الكراكي ، ويقف أحيانا ساعات طويلة في النهر وهو يحاول بكل جهده أن يصطاد سمكة صغيرة بشخص كبير .

وعندما أصبحنا وحدنا سعلت أجافيا سعلة خفيفة ومرت بيدها على جبينها عدة مرات . . . لقد بدأت تسكر من الفودكا التي شربتها .

وبعد صمت طويل ، وعندما أصبح السكوت أكثر من ذلك محرجا ، سألتها :

— كيف الحال يا أجاشا * ؟

— الحمد لله — ثم اضافت فجأة همسا : — لا تخبر أحدا يا سيدى . . .

فطمأنتها قائلا :

— لا تخشى شيئا . . . ومع ذلك يا لك من شجاعة يا

أجاشا . . . ماذا لو عرف ياكوف ؟

— لن يعرف . . .

* أجاشا — تدليل من الاسم الكامل اجافيا . المغرب .

— وإذا عرف ؟

— كلا . . . سأكون فى المتزل قبل أن يصل . انه الآن على الخط ، ولن يعود قبل مرور قطار البريد ، ومن هنا يمكن سماع القطار عندما يمر . . .

ومرت أجافيا بيدها مرة اخرى على جبينها ونظرت الى الجهة التى ذهب سافكا اليها . كان البلبل يشدو . وحلق طائر ليلي فوق سطح الارض تماما ، وعندما لمحنا انتفض ، وصفق بجناحيه ، وانطلق نحو الشاطئ الآخر للنهر .

سرعان ما صمت البلبل ، ولكن سافكا لم يعد . ونهضت أجافيا ، ونحطت بضع خطوات فى اضطراب ، ثم جلست ثانية .

ولم تطق صبرا فقالت :

— ماذا دهاه ؟ القطار سيمر اليوم وليس غدا ! ينبغي ان أنصرف الآن !

وصحت أنا :

— يا سافكا ! يا سافكا !

ولم يرد عليّ حتى الصدى . وتململت أجافيا بقلق ، ثم وقفت ثانية .

وقالت بصوت مضطرب :

— عليّ ان انصرف ! سيمر القطار حالا ! أنا أعرف متى تمر القطارات !

ولم تخطئ المرأة المسكينة . فلم يمر ربع ساعة الا وتردد صخب بعيد .

وصوبت أجافيا نظرة طويلة الى الحرش وحركت ذراعيها بنفاد صبر .

وقالت وهي تضحك بعصبية :

— أين ؟ الى أين حملة الشيطان ؟ سأنصرف !

نعم يا سيدى سأنصرف !

وفى تلك الاثناء ازداد الصخب وضوحا . وأصبح من الممكن تمييز دقات العجلات من زفرات القاطرة الثقيلة .
وها قد تنهى صفير ، وقرقع القطار فوق الجسر قرقرة مكتومة ومرت دقيقة أخرى ، ثم هدأ كل شيء .

وتنهدت أجافيا وهي تجلس بحزم :

— سأنتظر دقيقة أخرى . . . طيب ، سأنتظر !

وأخيرا ظهر سافكا فى الظلام . كان يخطو بصوت لا يسمع بقدميه الحافيتين على أرض المزرعة الرخوة وهو يدمدم بصوت خافت .

وقال وهو يضحك بمرح :

— انظر الى الحظ ، يا سلام ! ما أن اقتربت

من الخميطة ، وما أن بدأت أصوب بيدي حتى سكت !
هذا الكلب الأجرب ! انتظرت وانتظرت حتى يغنى ثانية ،
ثم بصقت وعدت

وهوى سافكا على الارض بجوار أجافيا بحركة خرقاء ،
ولكى يحفظ توازنه أمسكها من خصرها بكلتا يديه .

وسألها :

— ما لك مبوّرة كأن حماتك هي التى ولدتك ؟

كان سافكا رغم كل طيبة قلبه وسماحة روحه يحتقر النساء . كان يعاملهن باهمال وتعال ، ويتنازل الى مستوى الضحك الهازئ بأحاسيسهن تجاهه هو . ومن يدرى فربما كانت معاملة الاهمال والاحتقار هذه هي احدى اسباب سحره

الندى ، مشوقا ، وكانت عيناه تشعان برق هادئة حتى
وهو ينظر الى النساء اللاتي يحتقرهن ، غير انه لا يمكن
تفسير هذا السحر بالصفات الخارجية وحدها . فالى جانب
مظهره الموفق وطريقته المميزة فى المعاملة ، كان مما له
ايضا تأثيره على النساء ، فيما يبدو ، دور سافكا المؤثر
كشخص سىء الحظ وطريد بائس ، نُفي من داره الحبيبة
الى المزارع .

ومضى سافكا يقول وهو لا يزال قابضا على خصر
أجافيا :

— هيا قولى للسيد لأى غرض جئت ! هيا خبريه
يا زوجة الزوج ! هو-هو . . . هل نشرب مزيدا من الفودكا
يا صاحبتى أجاشا ؟

نهضتُ وسرتُ بحذاء المزرعة بين الخطوط المزروعة .
كانت هذه الخطوط القاتمة تشبه مقابر كبيرة مبططة . وفاحت
منها رائحة التربة المعزوقة ورطوبة النبات الرقيقة وقد بدأ الندى
يكسوه . . . والى اليسار كان الضوء الاحمر لا يزال يومض .
كان يغمز ببشاشة وكأنه يبتسم .

وسمعت ضحكات سعيدة . تلك كانت ضحكات
أجافيا .

وفكرت : «والقطار ؟ لقد مر القطار منذ وقت طويل» .
وانتظرت قليلا ، ثم عدت الى الخصر . كان سافكا
جالسا القرفصاء بلا حراك وهو يدندن بصوت خافت لا يكاد
يسمع أغنية ما تتألف من كلمات قصيرة المقاطع مثل «يا
أنت ، ما أنت . . . أنا وأنت . . .» وكانت أجافيا ، وقد

سكرت من الفودكا وحنان سافكا المحترق والليل الخانق ،
ترقد بجواره على الارض وتضغط بوجهها على ركبته فى انفعال .
وقد أوغلت فى احاسيسها لدرجة أنها لم تلاحظ مقدمى .
وقلت لها :

— يا أجاشا ، لقد مر القطار من فترة طويلة !
— هيا ، حان الوقت ، — قال سافكا مؤمنا على
فكرتى وهو يهز رأسه . — ما لك تمددت هنا ؟ أنت يا
عديمة الحياء !
وجفلت أجافيا ، ونزعت رأسها عن ركبته ونظرت الى ،
ثم التصقت به ثانية .
وقلت :

— حان الوقت من زمان !
وتلمت أجافيا ونهضت على ركبة واحدة . . . كانت
تعانى . . . ولنصف دقيقة عبر جسدها كله ، بقدر ما استطعت
أن أميز فى الظلام ، عن الصراع والتردد . وجاءت لحظة
مدت فيها قامتها ، وكأنها أفاقت ، لكى تنهض واقفة ،
ولكن قوة القاهرة عنيدة دفعتها فى بدننها كله ، فالتصقت
بسافكا .

— فليذهب فى داهية !
قالت وهى تضحك ضحكة جوفية وحشية ، وتبدى
فى هذه الضحكة حزم طائش وعجز وألم .
مضيت بهدوء نحو الحرش ، ومن هناك هبطت الى
النهر حيث وضعنا سنايرنا . كان النهر نائما . ولمست خدى
برقة زهرة ناعمة منفوشة بساق طويلة ، كأنها طفل يريد
أن يشعر بأنه مستيقظ . ولما لم يكن لدى ما أفعله فقد

بحثت عن حيط أحدى السائير حتى وجدته فسحبته .
وتوتر الخيط قليلا ثم ارتخى . . . لم يعلق بالسنارة شئ . . .
ولم يكن الشاطئ الآخر والقرية يبدوان فى الظلام . وومض
ضوء فى أحد البيوت ثم سرعان ما انطفأ . وتحسست أرض
الشاطئ بيدي فعثرت على الحفرة التى كنت قد لاحظتها
نهارا فجلست فيها كما فى مقعد . ظلت جالسا مدة
طويلة . . . ورأيت كيف بدأ الضباب يلف النجوم فتفقد
بريقها ، وكيف انسابت البرودة فوق الأرض كزفرة خفيفة
ومست اوراق الصفصاف المستيقظ . . .
— أجا-فيا ! — تنهى من القرية صوت مكتوم . —
أجافيا !

كان ذلك صوت الزوج العائد القلق وهو يبحث عن
زوجته فى القرية . وفى نفس الوقت انبعث من المزرعة
ضحك منطلق : كانت الزوجة غائبة عن وعيها ، ثملة ،
تحاول بسعادة بضع ساعات أن تعوض العذاب الذى ينتظرها
فى الغد .

ونمت . . .
وعندما استيقظت كان سافكا جالسا الى جوارى يهز
كتفى هزا خفيفا . كان النهر والحرش ، وكلا الشاطئين
الاخضرين المغسولين ، والاشجار والحقل . . . كان كل ذلك
مغمورا بضوء الصباح الساطع . ومن بين جذوع الاشجار
الرفيعة سقطت على ظهري اشعة الشمس التى أشرقت لتوها .
وضحك سافكا ساخرا :

— أهكذا تصيد السمك ؟ حسنا ، قم !
نهضت ، وتمطيت بتلذذ ، وبدأ صدرى المستيقظ

يعب الهواء الرطب العطر بنهم .

وسألت سافكا :

— أجاشا ذهبت ؟

فأشار بيده الى النهر حيث المخاضة :

— ها هي .

نظرت فرأيت أجافيا . كانت تعبر النهر ، مشعة ،
وقد شمرت ثوبها ، وسقط المنديل عن رأسها . وكانت
لا تكاد تقوى على تحريك قدميها

ودمدم سافكا وهو يزر عينيه ناظرا اليها :

— تعرف القطعة لحم من سرقت ! تسير وقد طوت
ذيلها . . . هؤلاء النسوة شقيات كالقطط وجبانات كالأرانب . . .
لم تذهب الحمقاء بالأمس عندما قلنا لها ! والآن ستلقى
جزاءها ، وانا ايضا سيجروني الى المركز . . . سأجلد ثانية
بسبب النساء

بلغت أجافيا الشاطئ ومضت عبر الحقل الى القرية .
في البداية سارت بخطوات جريئة ، ولكن سرعان ما تغلب
عليها القلق والخوف ، فالتفت مذعورة ، وتوقفت عن السير
وهي تلتقط أنفاسها .

— طبعا لا بد ان تخافى ! — قال سافكا بسخرية
حزينة وهو ينظر الى الشريط الأخضر الساطع الذي امتد
خلف أجافيا في العشب الندى . — لا ترغبين في السير !
زوجها يقف منذ ساعة وينتظر . . . هل رأيته ؟

قال سافكا جملته الاخيرة وهو يبتسم ، أما أنا فقد
تثلج قلبي . ففي القرية ، بجوار آخر بيت منها ، وقف
ياكوف على الطريق وهو يحدق مباشرة في زوجته العائدة .

لم يتحرك من مكانه وكان جامدا كالعمود . فيم كان يفكر وهو ينظر اليها ؟ وأية كلمات أعدها للقائها ؟ وقفت أجافيا قليلا ، ثم التفتت مرة أخرى كأنما تنتظر منا العون ، ثم سارت . لم أر من قبل أبدا مثل هذه المشية لا لثمل ولا لمفبق . وبدا كأن أجافيا تتلوى تحت وقع نظرة زوجها . كانت تسير تارة بخطوط متعرجة ، وتارة تراوح فى مكانها وهى تثنى ركبتها وتشيح بيديها ، وتارة تتراجع . وبعد أن قطعت حوالى مائة خطوة التفتت مرة أخرى ثم جلست .

وقلت لسافكا :

— هلا اختبأت وراء الأغصان . . . سيراك زوجها . . .
— انه على اى حال يعرف من عند مَنْ جاءت
أجاشا . . النساء لا يذهبن الى المزارع ليلا لاحضار الكرنب . .
هذا يعرفه الجميع .

نظرت الى وجه سافكا . كان شاحبا وقد تقلص بشفقة متقززة كتلك التى تكسو وجوه الناس عندما يرون حيوانا يعذب .

وتنهذ سافكا قائلا :

— الضحك للقطعة ، والدموع للفأر . . .
وفجأة قفزت أجافيا واقفة ، وهزت رأسها ، ومضت نحو زوجها بخطوات جريئة . يبدو أنها استجمعت قواها وحزمت أمرها .

الدئب

كان الاقطاعى نيلوف ، وهو رجل ممتلئ ، قوى الجسم ، مشهور فى المحافظة كلها بقوته البدنية الخارقة ، عائدا من الصيد ذات مساء مع المحقق كوبريانوف ، فعرجا على الطاحونة ، عند العجوز مكسيم . وكان قد بقى على ضيعة نيلوف حوالى فرسخين فقط ، ولكن الصيادين ادركهما التعب فلم يجدا ميلا الى مواصلة السير ، وقررا التوقف فى الطاحونة لاستراحة طويلة . وكان لهذا القرار ما يبرره ، خاصة وان مكسيم لديه شاي وسكر ، أما الصيادان فكانا يملكان احتياطا لا بأس به من الفودكا والكونياك ومختلف الأطعمة المنزلية .

وبعد الأكل أخذ الصيادان يتناولان الشاي ، واتصل حبل الحديث .

وسأل نيلوف مخاطبا مكسيم :

— ماذا لديكم من جديد يا جدى ؟

فضحك العجوز ضحكة ساخرة قصيرة :

— ماذا لدينا من جديد ؟ الجديد لدينا هو انني

اريد ان اطلب من جنابكم بندقية .

— وما حاجتك الى البندقية ؟

— ماذا ؟ ربما لم أكن بحاجة اليها . هذا مجرد طلب للتظاهر بالاهمية . . . فعلى اية حال انا لا أرى جيدا حتى اطلق النار . الشيطان وحده يعلم من اين جاء هذا الذئب المسعور . يركض هنا لليوم الثانى . . . مساء أمس عقر مهرا وكلبين قرب القرية ، واليوم خرجت فى الفجر فاذا به ، الملعون ، جالس تحت الصفصافة يضرب بوزه بكفه . وصحت به «امش !» ولكنه ظل يحدق فيّ كالعفريت . . . ضربته بحجر فطقطق بأنياه وبرقت عيناه كالشموع ، وركض نحو غابة الصفصاف الرجراج . . . كدت أموت من الخوف .

فدمدم المحقق :

— الشيطان يعلم ما هذا . . . هنا ذئب مسعور يركض ، ونحن نتسكع . . .

— وماذا فى ذلك ؟ فالبنادق معنا .

— ولكنك لن تقتل الذئب بعبارة رش . . .

— ولماذا تطلق النار ؟ يمكن الاجهاز عليه بكعب

البندقية .

وراح نيلوف يؤكد أنه ليس هناك شىء أسهل من قتل الذئب بكعب البندقية ، وروى حادثة قضى فيها بضربة واحدة بعصا عادية على كلب مسعور ضخم هجم عليه . فتنهد المحقق وهو ينظر بحسد الى كتفى نيلوف

العريضتين :

— من السهل عليك ان تقول ذلك ! ففبك من

القوة ، والحمد لله ، ما يكفى عشرة . تستطيع ان تقتل الكلب لا بالعصا بل باصبعك . أما اللسكين من أمثالنا

فالى ان يشرع فى رفع العصا ، والى ان يحدد المكان الذى يوجه اليه الضربة ، يكون الكلب قد عضه خمس مرات . ياله من شىء مزعج . . . ليس هناك مرض أشد عذابا وفظاعة من السعار . عندما رأيت انسانا مسعورا لأول مرة ظلمت خمسة ايام أسير ذاهلا ، ويومها كرهت كل اصحاب الكلاب فى الدنيا . فأولا هذا المرض فظيع بوقعه المفاجئ المرتجل . . . اذ يسير الانسان سليما ، مطمئنا ، لا يفكر فى شىء ، وفجأة ، وبلا اية مقدمات يعضه كلب مسعور ! وعلى الفور تملك الانسان فكرة فظيعة بأنه هالك لا محالة ، ولا منقذ له . . . وبعد ذلك يمكنكم أن تتصوروا الانتظار المرهق المقبض للمرض ، والذي لا يترك العضوض لحظة واحدة . وبعد الانتظار يأتى المرض . . . أما أفضع شىء فهو أن هذا المرض لا علاج له . اذا مرضت به فقد كتب عليك الهلاك . وليس هناك فى الطب ، على قدر علمى ، حتى مجرد اشارة الى امكانية الشفاء .

فقال مكسيم :

— عندنا فى القرية يعالجونه ياسيدى . ميرون يستطيع

أن يشفى من تريد .

فزفر نيلوف قائلا :

— هراء . . . كل ما يقال عن ميرون مجرد ثثرة .

فى العام الماضى عقر كلب مسعور ستيوبكا ، ولم يسعفه اى ميرون . . . أصيب بالسعار رغم كل ما سقاه من أشياء كريهة . كلا يا جدى ، ليس من الممكن عمل شىء . لو حدث لى ذلك ، لو عضنى كلب مسعور ، لأطلقت

على راسى رصاصه .
وكان لهذه الاحاديث الرهيبة عن السعار أثرها . اذ
كف الصيادان تدريجيا عن الكلام ، وواصلوا شرب الشاي
فى صمت . وفكر كل منهما لاراديا فى ان حياة الانسان
وسعادته رهن بالصدف والاشياء التافهة ، الضئيلة فيما يبدو ،
والتي لا تساوى ، كما يقال ، شروى نقير . ونخيمت الكآبة
والحزن عليهم جميعا .

وبعد تناول الشاي تمطى نيلوف ونهض . . . وأحس
برغبة فى الخروج الى الهواء الطلق . وبعد أن تمشى قليلا
بجوار مخزن الغلال ، فتح بابا صغيرا وخرج . كان الغسق
قد غاب منذ وقت بعيد ، وحل المساء بكل أبعاده . وغاب
النهر فى سبات عميق هادئ .

وعلى السد المغمور بنور القمر لم تكن هناك قطعة ظل .
وفى منتصف السد لمعت كنجمة رقبة زجاجة مكسورة .
وبدت عجلتا الطاحونة ، المختفيتان الى نصفيهما فى ظل
صفصافة عريضة ، غاضبتين وكئيبتين . . .

وزفر نيلوف بملء رئتيه وتطلع الى النهر . . . كان كل
شئ ساكنا بلا حراك . واستغرقت المياه والشاطئان فى النوم ،
وحتى السمك لم يطرش . . . بيد أنه خيل لنيلوف فجأة
ان شيئا يشبه الظل قد تدحرج كالكرة السوداء على الشاطئ
الآخر ، وراء خمائل الصفصاف . وزر عينيه ، فاخفى
الظل ، ثم سرعان ما ظهر وتدحرج نحو السد فى خطوط
متعرجة .

وهتف نيلوف فى سره : «الذئب !»
ولكن قبل أن يجول بخاطرهِ التفكير فى ضرورة العودة

ركضا الى الطاحونة ، كانت الكرة السوداء قد تدرجت فوق
السد ليس نحوه مباشرة ، بل فى خطوط متعرجة .
وفكر نيلوف وهو يشعر بأن جلد رأسه تحت الشعر يقشعر :
« اذا جريت هاجمنى من الخلف . . يا الهى ، ليس معى
حتى عصا ! فلاأقف فى مكانى و . . وسأخنقه ! »
وأخذ نيلوف يراقب بانتباه حركات الذئب وتعابير بدنه .
كان الذئب يجرى على حافة السد ، وأصبح الآن يحاذيه . . .
وفكر نيلوف وهو لا يحول نظره عنه : « انه يمر بى ! »
بيد ان الذئب فى تلك اللحظة ، ودون ان يتطلع
اليه ، أصدر كأنما بلا رغبة صوتا متحشرجا مستعظفا ،
ثم حول وجهه نحوه وتوقف . وكأنما كان يفكر : هل
يهاجمه أم يتجاهله ؟
وفكر نيلوف : « ينبغى أن أضربه بقبضتى فى رأسه . . .
أفقدته صوابه . . . »

وارتبك نيلوف الى درجة أنه لم يعرف من الذى بدأ
المعركة ، هو ام الذئب ؟ أدرك فقط انه قد حلت لحظة
رهيبة بصفة خاصة ، لحظة حرجة ، تتطلب منه تركيز
كل قوته فى يده اليمنى والاطباق على رقبة الذئب من قفاه .
وهنا وقع شىء خارق يصعب تصديقه ، شىء بدا لنيلوف
ذاته أنه حلم . فقد زار الذئب الممسوك متشكيا واندفع
بقوة حتى أن طبقة جلده الباردة الرطبة ، التى اطبقت
عليها يد نيلوف ، انزلقت من بين أصابعه . ووقف الذئب
على ساقيه الخلفيتين محاولا ان يحرر قفاه . عندئذ أطبق
نيلوف بيده اليسرى على ساقه الامامية اليمنى ، وضغط
عليها تحت الابط مباشرة ، ثم نزع يده اليمنى بسرعة

من فقا الذئب واطبق بها على ابطه الايسر ، ورفع الذئب
فى الهواء . جرى ذلك كله فى طرفة عين . ولكى يمنع
نيلوف الذئب من عضه فى يديه ، ولكى لا يمكنه من
تحريك رأسه ، غرز ابهامى يديه كمهمازين فى رقبة الذئب
عند عظمة الترقوة . . . وارتكز الذئب بساقيه الاماميتين فى
كتفى نيلوف ، واذا وجد بهذه الصورة نقطة ارتكاز انتفض
بقوة رهيبة . لم يكن بوسعها أن يعض يدى نيلوف حتى
المرفق ، كما عاقته عن مد فمه الى وجه نيلوف وكتفيه
الاصبعان المغروزان فى عنقه مسبيتين له ألما شديدا . . .
وفكر نيلوف وهو يدفع رأسه الى الخلف الى اقصى
ما يمكن : «يا للفضاعة ! لعبه سقط على شفتى . اذن
فقد هلكت حتى لو تخلصت منه بمعجزة» .
وصاح .

— الحقونى ! يا مكسيم ! الحقونى !
كان كل من نيلوف والذئب يحدقان فى أعين بعضهما
البعض ورأساهما على مستوى واحد . . . وقضقض الذئب بأسنانه ،
وأصدر أصواتا متحشجة ، وطرطش لعبه . . . وتخبطت ساقاه
الخلفيتان بركبتى نيلوف بحثا عن نقطة ارتكاز . . ولمع القمر
فى عيني الذئب ، ولكن لم يبد فيهما اى ظل لغضب .
كانتا تبكيان ، وبدتا أشبه بعيون بشرية .
وصاح نيلوف من جديد :

— الحقونى ! يا مكسيم !
ولكنهم فى الطاحونة لم يسمعوه . كان يدرك بغريزته
ان الصراخ بصوت عال قد يضعف قوته ، ولذلك كان
يصرخ بصوت غير عال .

وقرر في نفسه : «سوف أراجع بظهري . . . وعندما أصل الى الباب سأصرخ» .
وبدأ يتراجع ، ولكنه لم يكد يقطع ذراعين حتى أحس بأن يده اليمنى تضعف وتتخدر . ثم سرعان ما جاءت اللحظة التي سمع فيها هو صراخه اليأس ، وأحس بألم حاد في كتفه اليمنى ، ولزوجة دافئة تسيل فجأة على يده كلها وصدره . ثم سمع صوت مكسيم ، وأدرك تعبير الرعب المرتسم على وجه المحقق الذي جاء ركضا . . .
ولم يفلت عدوه من قبضته الا عندما بسطوا أصابعه بالقوة وأكدوا له أن الذئب قد قتل . وعاد الى الطاحونة ذاهلا تحت وطأة احاسيس قوية وهو على وشك الاغماء وقد أحس بالدم يسيل على فخذه وفي حذائه الأيمن .
وأعادته النار ومنظر السماور وزجاجات الخمر الى وعيه ، وذكرته بكل ما عاناه لتوه من رعب ، وبالخطر الذي بدأ الآن فقط يتهدده . وجلس على الزكائب شاحبا ، بحدقتين متسعتين ورأس مبلل ، وأرخى ذراعيه مرهقا . وجرده المحقق ومكسيم من ملابسه وانهمكا في تضميد جرحه . كان جرحا كبيرا . فقد مزق الذئب جلد الكتف كلها ، بل واصاب العضلات .

وقال المحقق محتجا وهو يوقف النزيف :
— لماذا لم تلق به في النهر ؟ لماذا لم تقذف به في النهر ؟
— لم أفطن ! يا الهى ، لم أفطن !
وأراد المحقق ان يخفف عنه ويؤمله خيرا ، ولكن بعد تلك الالوان الصارخة التي أضفأها على السعار بسخاء

عندما وصفه من قبل ، لم يعد ثمة معنى لكلمات التسرية ،
فوجد من الافضل أن يصمت . وبعد ان ضمد الجرح
كيفما اتفق ، أرسل مكسيم الى الضيعة لاحضار العربة ،
ولكن نيلوف لم يرغب فى انتظارها ، ومضى الى البيت
سيرا على الاقدام .

وفى الصباح ، فى حوالى السادسة ، جاء الى الطاحونة
شاحبا ، مشعثا ، وقد هزل من الألم والسهاد .
وقال مخاطبا مكسيم :

— يا جدى ، خذنى الى ميرون ! بسرعة ! هيا ،
اجلس فى العربة .

وارتبك مكسيم ، الشاحب ايضا ، والذي لم ينم
طول الليل ، وتلفت حوله عدة مرات ، ثم قال بهمس :
— لا داعى يا سيدى للذهاب الى ميرون . . . انا
ايضا ، لا مؤاخذة ، استطيع أن اعالج . . .

— طيب ، لكن بسرعة أرجوك !
وراح نيلوف يخطو فى مكانه بضيق صدر . وأوقفه
العجوز مديرا وجهه ناحية الشرق ، وتمتم بكلمات ما ،
وقدم له كوزا به سائل دافىء كرية طعمه كالشيخ ليشربه .
ودمدم نيلوف :

— ولكن ستيوبكا مات . . . لنفرض ان هناك أدوية
شعبية ولكن . . . ولكن لماذا مات ستيوبكا اذن ؟ خذنى
مع ذلك الى ميرون !

ومن ميرون ، الذى لم يثق به ، توجه الى المستشفى ،
الى الطبيب أفتشينيكوف . وبعد أن حصل هنا على حبوب
البلادونة وعلى نصيحة بملازمة الفراش ، بدّل الخيول ودون

ان يعبأ بالألم الرهيب فى ذراعہ ، انطلق الى اطباء المدينة .
وبعد حوالى أربعة أيام ، وفى ساعة متأخرة من المساء
دخل راكضا على أفتشينيكوف ، وارتقى على الكنبۃ .
— يا دكتور ! — قال مختنقا وهو يمسح العرق من
وجهه الشاحب المهزول بكمه . — يا جريجورى ايفانيتش !
اصنع بى ما تريد ، لكنى لا أستطيع أن أبقى هكذا
بعد الآن ! اما ان تعالجنى واما أن تسقىنى السم ، لكن
لا تدعنى هكذا ! اتوسل اليك ! لقد جنت !
فقال افتشينيكوف :

— عليك أن تلازم الفراش .
— أوه فلتذهب بفراشك الى الشيطان ! اننى اسألك
بوضوح ، بلغة روسية : ماذا أفعل ؟ أنت طبيب ويجب
أن تساعدنى ! اننى اتعذب ! فى كل لحظة يخيل الىّ
أننى بدأت انسعر . انا لا أنام ولا آكل ، ولا أستطيع أن
أزول عملا ! ها هو المسدس فى جيبى ، وكل لحظة
اخرجه لكى اطلق رصاصة على رأسى ! جريجورى ايفانيتش ،
عليك ان تهتم بى ، أرجوك ! ماذا أفعل ؟ ما رأيك ،
هل أذهب الى البروفيسورات ؟

— الأمر سيان . اذهب اذا أردت .
— اسمع ، ماذا لو أعلنت مسابقة أعطى فيها خمسين
ألف روبل لمن يشفىنى ؟ ما رأيك ، هه ؟ ولكن الى أن
أعلن عنها فى الصحف ، والى أن . . . اكون قد انسعرت
عشر مرات . أنا مستعد الآن أن أهب ثروتى كلها ! اشفىنى
وسأعطيك خمسين ألفا ! عالجنى أرجوك ! انا لا أفهم
هذه اللامبالاة المحنقة من جانبك ! افهمنى ، اننى الآن

احسد كل ذبابة . . . انا تعيس ! واسرتى تعيسه !

واختلجت كتفا نيلوف ، وشرع يبكي .

فبدأ أفتشينيكوف يطيب خاطره :

— اسمع . . انا الى حد ما لا أفهم انفعالك هذا .

لماذا تبكي ؟ ولماذا تهول من الخطر الى هذه الدرجة ؟

فلتفهم ، ان لديك فرصا لعدم المرض اكثر بكثير من فرص

المرض . فأولا : من كل مائة معضوض لا يمرض الا

ثلاثون . وعلاوة على ذلك ، وهذا مهم جدا ، فقد عضك

الذئب عبر الملابس ، واذن فقد بقى السم فى الملابس .

وحتى لو وصل السم الى الجرح فلا بد أن يخرج مع الدم

لأنك نزفت بشدة . اننى مطمئن تماما بشأن السعار ،

واذا كان هناك ما يقلقنى فهو جرحك فقط . فمع اهمالك

هذا من السهل أن تصاب بالحمرة ، او بشيء من هذا

القبيل .

— صحيح ؟ هل تطيب خاطرى أم تتكلم بجذ ؟

— اقسم بشرفى اتكلم بجذ . خذ ، اقرأ !

وتناول أفتشينيكوف كتابا من الرف ، وأخذ ، وهو

يتجنب المواضع المخيفة ، يقرأ لنيلوف فصلا عن السعار .

وقال بعد أن فرغ من القراءة :

— اذن فعبثا تقلق . . زد على ذلك كله أننا لا نعلم

ما اذا كان ذلك الذئب مسعورا أم سليما .

— هم . . . نعم . . . — وافق نيلوف مبتسما . — طبعا ،

الآن مفهوم . اذن فكل ذلك هراء !

— طبعا هراء .

— اشكرك يا عزيزى . . — وضحك نيلوف بمرح

وهو يفرك يديه . — أنا الآن مطمئن أيها العلامة النابه . . .
انا مسرور ، بل وسعيد . . . أى والله . . . صحيح ، بل . . .
اقسم بشرفى .

وعانق نيلوف افتشينيكوف وقبله ثلاث مرات . ثم
تملكه طيش صبيانى ، الامر الذى يميل اليه بطبيعتهم
الاشخاص الطيبون ، الاقوياء البدن . فالتقط من على الطاولة
حدوة وأراد أن يقومها ، ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئا
وقد أنهكته الفرحة والألم فى كتفه . فاكتفى بأن طوق الدكتور
اسفل خصره اليسرى وحمله على كتفه من مكتبه الى غرفة
الطعام . وغادر افتشينيكوف فرحا ، سعيدا ، بل وبدا أن
الدموع التى لمعت على لحيته السوداء العريضة كانت تفرح
معه . وعندما هبط على الدرج ضحك بصوت غليظ وهز
درازين الدرج الخارجى بقوة ، حتى ان احدى خشباته
انخلعت ، بينما اهتز الدرج الخارجى كله تحت اقدام
أفتشينيكوف .

وقال افتشينيكوف فى سره وهو يحدق فى ظهر نيلوف
العريض : «يا له من عملاق ! يا له من جدع !»
وعندما جلس نيلوف فى العربة بدأ يحكى مرة أخرى
ومن البداية وبكل التفاصيل صراعه مع الذئب فوق السد .
وأنهى روايته ضاحكا :

— يا له من صراع ! سيكون هناك ما اتذكره فى
الشيخوخة . أسرع يا تريشكا !

السعيد

من محطة «بولجويه» في خط سكك نيقولاى الحديدية يتحرك قطار ركاب . وفى احدى عربات الدرجة الثانية «للمدخنين» يجلس حوالى خمسة ركاب ناعسين ، ملتفين بغيش العربة . لقد أكلوا لتوهم ، وها هم يحاولون النوم وقد أسندوا رؤوسهم على مساند الأرائك . ويخيم السكون . ويفتح الباب ، وتدلف الى العربة قامة طويلة ، على هيئة عصا ، فى قبعة حمراء ومعطف أنيق ، يشبه الى حد كبير معاطف ممثلى الاوبريتات ومراسلى جول فيرن * . تتوقف القامة وسط العربة وهى تزحر ، وتزر عينيها طويلا متفحصة الأرائك .

وتدمدم :

— لا ، وهذه ايضا ليست هى ! الشيطان يعلم ما هذا ! شىء يغيظ ! كلا ، ليست هى ! ويحذق أحد الركاب فى القامة ، وتند عنه صيحة فرح :

* ربما يشير الكاتب الى بطل رواية جول فيرن «الجزيرة المسحورة» هيدسون سبليت ، مراسل جريدة «نيويورك هيرالد» . وقد صدرت أول ترجمة لها الى الروسية فى بطرسبرج عام ١٨٧٥ . المغرب .

— ايفان اليكسييفتش ! ما هذه الصدف ؟ اهو انت ؟
ينتفض ايفان اليكسييفتش العصوي ، ويحديق في
الراكب ببلادة ، وعندما يتعرف عليه يشيح بيديه في مرح .
ويقول :

— ها ! بيوتر بتروفتش ! من زمان لم نرك ! لم
أكن أعرف انك مسافر في هذا القطار .

— كيف الصحة ؟ والاحوال ؟

— لا بأس ، ولكنى يا أخى فقدت عربتى ولا
أستطيع أن أجدها ، يا لى من غي ! استحســــــــق
الجلد !

ويترنح ايفان اليكسييفتش العصوى ويهاهى ثم يقول :
— يا لها من حوادث ! خرجت من العربّة بعد
الجرس الثانى لأشرب كونياكا . وشربت طبعاً . وقلت لنفسى :
ما دامت المحطة التالية بعيدة فلاأشرب كأساً أخرى . وبينما
كنت أفكر وأشرب دق الجرس الثالث . . . جريت كالمجنون
وقفزت فى اول عربّة صادفتنى . حسناً ، أأست غيباً ؟
أأست أحقق ابن احمق ؟
ويقول بيوتر بتروفتش :

— واضح ان مزاجك عال . تفضل بالجلوس .
يحصل لنا الشرف !

— لا ، لا . . . سأبحث عن عربتى . الى اللقاء !
— الدنيا عتمة ، وقد تسقط ، لا قدر الله ، بين
العربات . اجلس معنا ، وعندما نصل الى المحطة ستجد
عربتك . اجلس !

ويتنهد ايفان اليكسييفتش ويجلس بتردد فى مقابل

جالس علی جمہر .

ویسأله بیوتر بتروفتش :

— الى أين تسافر ؟

— أنا ؟ الى الفضاء . فى رأسى زحام كبير حتى

أني لا أعرف الى أين أسافر . القدر يسير بي ، حسنا
فلأسافر ، ها-ها . . . هل رأيت يا عزيزي حمقى سعداء ؟
كلا ؟ حسنا ، انظر ! . . أمامك أسعد الأحياء ! نعم !

ألا تلاحظ شيئاً في وجهي ؟

— ألاحظ أنك . . . يعني . . . مبسوط . . . قليلا .

— لا بد أن وجهى الآن يبدو غبيا بفضاعة ! آه ،

يا للأسف ، لا توجد مرآة ، لكي اتطلع الى سحتى !

اشعر يا أخى اننى اتحول الى أبله . أى والله ! ها-ها . .

تصور أنني أقوم برحلة شهر العسل . حسنا ، أليست أحق

ابن أحمق ؟

— أنت ؟ هل تزوجت حقا ؟

— اليوم يا عزيزی ! عقدت قرانی وركبت القطار

فورا

وبدأت التهاني والأسئلة المعتادة .

ويضحك بيوتر بتروفتش :

— يا سلام . . . لهذا فأنت أنيق هكذا .

— نعم . . بل وتعطرت ايضا لتكتمل الصورة . غرقت

الى أذني، ففي الامور التافهة ! لا هموم ، لا أفكار ، يا

فقط احساس بشیء بشیہ . . . الشیطان یعلم کیف أسمیہ . . .

ربما النعم ؟ لم أشعر فم حياتي بمثل هذه الروعة !

ويغمص ايوان اليكسييفتش عينيه ويهز رأسه .
ويقول :

— سعيد الى درجة تغيط ! فلتحكم بنفسك . سأذهب
الآن الى عربتي . وهناك ، على الكنبه بجوار النافذة ،
يجلس مخلوق مخلص لك بكل جوارحه ، كما يقال . .
شقاء حلوة ، بأنف صغير . . . وأنامل . . آه يا حبوبي !
يا ملاكى ! يا حملى الوديع ! يا سلوى فؤادى ! وساقها !
يا الهى ! ساقها ليست مثل أرجلنا الضخمة ، بل شيء
منمنم ، سحرى . . . مجازى ! بودى لو أمسكت بهذه
الساق وأكلتها ! أوه ، انك لا تفقه شيئاً ! أنت رجل
مادى ، كل شيء تحلله وتفلسفه ! أوه ، أنتم عزاب
جافون لا أكثر ! عندما تتزوج ستتذكرنى ! ستقول : اين
انت الآن يا ايوان اليكسييفتش ؟ نعم ، سأذهب الآن
الى عربتي . هناك ينتظروننى على أحر من الجمر . . يتوقعون
حضورى بلهفة . وتستقبلنى ابتسامة . فأجلس وأمد اصبعين
فأداعب بهما الذقن . . .

ويهز ايوان اليكسييفتش رأسه ويغيب فى ضحك سعيد .
— ثم تضع رأسك على كتفها وتحيط خصرها بيدك .
ومن حولك يسود الهدوء . . . وعمة شاعرية . تود لو تعانق
الدنيا كلها فى هذه اللحظة . بيوتر بتروفتش ، اسمح لى
أن اعانقك !

— تفضل .

يتعانق الصديقان وسط ضحكات الركاب ، ويستطرد
الزوج الجديد السعيد :
— وللمزيد من الحماسة ، او كما يقال فى الروايات ،

لمزيد من الحيات ، قد ذهب الى ابويته وتلقى حتى جوفت
كأسين أو ثلاثا . وهنا يحدث فى رأسك وصدرك ما لن
تقرأ عنه حتى فى الحكايات . أنا رجل صغير ، ضئيل ،
ولكن يخيل لى اننى بلا حدود أحيط بالدنيا كلها !
ينظر المسافرون الى الزوج الثمل السعيد فتنتقل اليهم عدوى
مرحه ، ويطير النوم من عيونهم . وبدلا من مستمع واحد
سرعان ما يتجمع حول ايفان اليكسييفتش خمسة مستمعين .
أما هو فيتململ كأنما جالس على جمر ، ويثر لعابه ،
ويشبح يديه ويثرثر بلا انقطاع . ويقهقه ، ويقهقه الجميع .
— المهم يا سادة ان نقلل من التفكير ! الى الشيطان
بكل هذه التحليلات اذا شعرت برغبة فى الشراب
اشرب ، ولا داعى للتفلسف حول ما اذا كان هذا مفيدا
أم ضارا . . . الى الشيطان بكل هذه التحليلات والسيكولوجيات !
ويمر الكمسارى فى العربة .

فيخاطبه الزوج الجديد :

— اسمع يا عزيزى . . . عندما تمر بالعربة رقم ٢٠٩ ،
ستجد هناك سيدة فى قبعة رمادية بطائر أبيض . . قل لها
اننى هنا !

— حاضر . ولكن لا توجد فى هذا القطار عربة

رقم ٢٠٩ . توجد رقم ٢١٩ !

— حسنا ، فليكن ٢١٩ ! سيان ! أبلغ هذه السيدة

أن زوجها بخير وسلام !

وفجأة يقبض ايفان اليكسييفتش على رأسه ويتأوه :

— زوج . . سيدة . . منذ متى هذا ؟ زوج . . ها-ها . .

انت تستحق الجلد وليس الزواج ! يا لى من أبله ! وهى . .

بالأمس كانت صبية . . . بعوضة صغيرة . . . شيء لا يصدق !
ويقول أحد الركاب :
— غريب فى زمننا هذا أن ترى شخصا سعيدا . .
الأسهل أن ترى الفيل الأبيض .
فيقول ايفان اليكسييفتش ماذا ساقيه الطويلتين بحذائهما
المدبب جدا :

— نعم ، ولكن من المذنب ؟ اذا لم تكونوا سعداء
فالذنب ذنبكم ! نعم ، وماذا كنتم تظنون ؟ الانسان هو
خالق سعادته . وبوسعكم ، لو أردتم ، أن تصبحوا سعداء ،
ولكنكم لا تريدون . أنتم تهربون من السعادة باصرار !
— أما غريبة ! وكيف ذلك ؟

— بسيطة ! . . لقد سنّت الطبيعة للانسان أن يحب
فى فترة معينة من عمره . فاذا حانت هذه الفترة فلتحب
بكل ما تملك . ولكنكم لا تطيعون الطبيعة ، وتظلون فى
انتظار شيء ما . وبعد ذلك . . . نصّ القانون على ان الفرد
الطبيعى ينبغى أن يتزوج . . فبدون الزواج لا توجد سعادة .
فاذا جاء الوقت المناسب فلتتزوج ، لا تماطل . . . ولكنكم
لا تتزوجون ، وتظلون فى انتظار شيء ما ! ثم انه قد جاء
فى الكتاب المقدس ان الخمر تدخل البهجة فى قلوب
البشر . . فاذا كان مزاجك طيبا وتريده أن يكون أحسن ،
اذن فلتذهب الى البوفيه ولتشرب . المهم ألا تتفلسف ،
بل سر على التقليد ! التقليد شيء عظيم !

— أنت تقول ان الانسان هو خالق سعادته . أيّ
خالق هو ، بحق الشيطان ، اذا كان يكفى مجرد ألم
فى سنه او حماة شريرة لكى تطير سعادته رأسا على عقب ؟

كل شيء رهن بالصدقة . فلو انقلب القطار بنا الآن كما
في حادث كوكوفكا * لقلت كلاما آخر . . .
فيقول الزوج الجديد محتجا :
— هراء ! الكوارث لا تحدث الا مرة في السنة . انا
لا أخشى اية حوادث ، لأنه ليس هناك مبرر لحدوث هذه
الحوادث . الحوادث نادرة ! فلتذهب الى الشيطان ! أنا لا
أريد حتى أن اتحدث عنها ! يبدو أننا نقرب من محطة .
ويسأله بيوتر بتروفتش :
— الى أين أنت مسافر الآن ؟ الى موسكو أم ستواصل
الى الجنوب ؟
— سلامتك ! كيف أواصل الى الجنوب اذا كنت
مسافرا الى الشمال ؟
— ولكن موسكو ليست في الشمال .
ويقول ايفان اليكسييفتش :
— أعرف هذا ، ولكننا الآن مسافرون الى بطرسبرج !
— عفوك ، اننا مسافرون الى موسكو !
فيذهل الزوج الجديد :
— كيف الى موسكو ؟
— غريبة . . . الى أين اشتريت التذكرة ؟
— الى بطرسبرج .
— اذن دعني اهتلك . لقد ركبت قطارا آخر .
وتمر فترة صمت . وينهض الزوج الجديد ويحملك

* حادث انقلاب قطار عند قرية كوكوفكا عام ١٨٨٢
راح ضحيته أكثر من ١٠٠ قتيل وجريح . المعرب .

فى الجالسين ببلادة .

ويوضح له بيوتر بتروفتش الأمر :

— نعم ، نعم . فى «بولوجويه» قفزت الى قطار آخر . . . اذن فقد ركبت ، بعد الكونياك ، القطار المضاد .
يتمتع وجه ايفان اليكسييفتش ، ويقبض على رأسه يديه ويروح ويجيى فى العربى بسرعة .
ويقول ثائرا :

— آه ، يا لى من حمار غبى ! يا لى من وغد ،
فلتخطفنى الشياطين ! ماذا سأفعل الآن ؟ زوجتى فى القطار
الآخر ! هناك وحدها ، تنتظر ، تعاني ! آه ، يا لى
من مهرج أحمق !
ويتهالك الزوج الجديد على الكنبه ، وينكمش كأنما
داس أحدهم على اصبع قدمه المريضة .
ويتأوه :

— يا لى من بائس ! ماذا سأفعل الآن ؟ ماذا ؟
ويخفف الركاب عنه :
— لا بأس ، لا بأس . . . بسيطة . . . أرسل لزوجتك
برقية ، أما أنت فحاول أن تستقل القطار السريع . وبذلك
تلتحق بها .

فبيكى الزوج الجديد ، «خالق سعادته» :
— القطار السريع ! ومن أين احصل على النقود للقطار
السريع ؟ كل نقودى مع زوجتى !
ويتهامس الركاب الضاحكون ، ويتشاركون فى جمع
مبلغ من المال ، ويعطونه للسعيد .

فى البيت الريفى

«أنا أحبك . أنتَ حياتى ، سعادتى ، كل ما أملك !
اغفر لى اعترافى ، ولكنى لا أقوى على العذاب فى صمت .
انا لا أرجو منك المشاركة ، بل العطف . تعال اليوم فى
الساعة الثامنة مساء الى العريشة القديمة . . . لا أرى لزوما
للتوقيع باسمى ، لكن لا تخش من رسالة مجهولة . انا
شابة ، وسيمة . . . فماذا تريد ايضا ؟

قرأ المصطاف بافل ايفانيتش فيخودتسيف ، وهو رجل
متزوج ، مستقيم ، هذه الرسالة ثم هز كتفيه ، وحك جبينه
فى استغراب .

وقال فى نفسه : «ما هذا بحق الشيطان ؟ انا رجل
متزوج ، وفجأة أتلقى هذه الرسالة الغريبة . . . الحمقاء !
ترى من كاتبها ؟»

قلب بافل ايفانيتش الرسالة امام عينيه ، ثم قرأها
ثانية ، وبصق .

وقال فى نفسه مقلدا عبارة الرسالة فى سخرية : «انا
احبك» . . . تظن أنها وجدت صبيا ! اذن فسوف أجرى
ركضا لألقاك فى العريشة ! . . اننى يا سيدتى نسيت من

زمان هذه القصص الغرامية وكل هذه القلور دامور* . . . هم ! . . .
لا بد أنها امرأة طائشة منحرفة . . . آه من هؤلاء النساء !
أية لعب — استغفر الله — ينبغي أن تكون لكى تكتب رسالة
كهذه الى رجل غريب ، وفوق ذلك متزوج ! انحلال ما
بعده انحلال !»

خلال ثماني سنوات من الحياة الزوجية نسي بافل
ايفانيتش المشاعر الرقيقة ، ولم يكن يتلقى أية رسائل ، اللهم
الا بطاقات التهئة ، ولذلك فرغم محاولته التظاهر بالرصانة
أمام نفسه ، الا ان الرسالة المذكورة أربكته بشدة وأثارت .
وبعد ساعة من تسلمها رقد على الكنبه وهو يفكر :
«بالطبع أنا لست صبيا ولن أجرى الى هذا الراندى
فو الأحق ، ولكن من الطريف أن اعرف : ترى من
كتبها ؟ هم . . . الخط حريمى بلا شك . . . والرسالة مكتوبة
بصدق وحرارة ، ومن ثم يستبعد أن تكون نكتة . . . ربما
كانت امرأة مضطربة عقليا او أرملة . . . الأرامل عموما رعناوات
وشاذات . هم . . . ولكن يا ترى من تكون ؟»
زاد من صعوبة حل هذه المسألة أنه لم يكن لدى
بافل ايفانيتش فى البلدة الريفية كلها من المعارف النسائية
سوى زوجته .

وفكر مستغربا : «غريبة . . . أنا أحبك» . . . متى
تمكنت من حبى ؟ امرأة مدهشة ! هكذا أحبت ، بلا
مقدمات ، حتى دون أن تتعرف بى او تعرف أى رجل
أنا . . . يبدو انها صبية جدا ورومانسية اذا كان فى وسعها

* زهرة الحب ، من الفرنسية : Fleur d'amour . المعرب .

ان تعشق من نظرتين او ثلاث . . . ولكن . . . من هي ؟
وفجأة تذكر بافل ايفانيتش انه بالامس ، واول امس
ايضا ، عندما كان يتنزه في ميدان البلدة ، التقى عدة مرات
بشقراء شابة ، كانت تختلس اليه النظر بين الحين والحين ،
وعندما جلس على الأريكة ، جلست بالقرب منه . . .

وفكر فيخودتسيف : «هي ؟ غير معقول ! وهل يمكن
لمخلوق رهيف ، نوراني أن يحب قرموطا عجوزا سقيما
مثلي ؟ لا ، هذا مستحيل !»

واثناء الغداء حذق بافل ايفانيتش في زوجته ببلادة
وهو يفكر :

«انها تكتب أنها شابة ووسيمة . . . اذن فليست
عجوزا . . . هم . . . لو أردنا الصدق ، وبصراحة ، فأنا
لست عجوزا ودميما الى حد يمنع من الوقوع في غرامى . . .
أليست زوجتى تحبنى ؟ وفضلا عن ذلك فالحب أعمى ،
والقرد في عين أمه غزال . . .»

وسألته زوجته :

— فيم تفكر ؟

فكذب قائلا :

— ابدا . . . لا شيء . . . يبدو عندى صداد . . .

وقرر انه من الغباء ان يعير اهتماما لشيء تافه كهذه
الرسالة الغرامية ، وسخر منها ومن كاتبتها ، ولكن يا للأسف !
ما أقوى الشيطان الوسواس . وبعد الغداء تمدد بافل ايفانيتش
على سريريه ، وبدلا من أن ينام راح يفكر :

«ولكنها ، فى الغالب ، تؤمل فى مجيئى ! يا لها
من حمقاء ! نعم ، أتخيل كيف ستنفعل وترتعش أردافها

المستعارة عندما لا تجدنى فى العريشة ! . . . ولكنى لن
أذهب . . . ما لى وما لها !»

ولكن ، وأكرر ، ما أقوى الشيطان الوسواس .
فبعد نصف ساعة فكر المصطاف : «ولكن ماذا لو
ذهبت . . . هكذا . . . حب استطلاع . . . أذهب وانظر من
بعيد لأعرف من هى . . . من الطريف فعلا لو ألقى نظرة !
شئ مضحك لا أكثر ! وبالفعل ، لماذا لا أضحك قليلا
إذا كانت هناك فرصة لذلك ؟»

ونفض بافل ايفانيتش من سريره وبدأ يرتدى ثيابه .
— الى أين تتألق هكذا ؟ — سألته زوجته وقد لاحظت
أنه يرتدى قميصا نظيفا وربطة عنق حديثة .
— أبدا . . . أريد ان أتره قليلا . . . يبدو عندى
صداع . . . هم . . .

تألق بافل ايفانيتش ، وانتظر بداية الساعة الثامنة ،
وخرج من البيت . ودق قلبه عندما لاحت لناظريه على
خلفية خضراء ساطعة غمرها ضوء الشمس الغاربة جموع
المصطافين والمصطافات الأنيقة .

وفكر وهو يختلس النظر بخجل الى وجوه المصطافات :
«ترى من منهن ؟ ولكنى لا أرى الشقراء . . . هم . . . إذا
كانت هى صاحبة الرسالة ، فاذن هى الآن جالسة فى
العريشة» . . .

ودلف فيخودتسيف الى ممر بين الاشجار بدت فى
نهايته «العريشة القديمة» من خلف اوراق اشجار الزيزفون
الباسقة . . . ومضى نحوها على مهل . . .
وفكر وهو يتقدم مترددا : «سأطل من بعيد . . . ما

لى اخاف ؟ انا لست داهبا الى راندى قو ! يا لى من
أحمق ! اقدم بجرأة ! وماذا لو دخلت العريشة ؟ لا ،
لا . . لا داعى !»

وازدادت دقات قلب بافل ايفانيتش . . . وعلى الرغم
منه ، تخيل لأراديا عتمة العريشة . . . وومضت فى خياله
الشقراء الرشيقة فى فستان أزرق فاتح ، وبأنف أقعى . . .
وتصور كيف تقترب منه بوجل ، وهى تخجل من حبها ،
وبدنها كله يرتعش ، وانفاسها تتردد بحرارة و . . . وفجأة
تطوقه بذراعيها فى عناق عنيف .

وفكر وهو يطرد من رأسه الافكار الحرام : «لو لم
أكن متزوجا لهان الأمر . . . وعموما . . لا مانع أن تجرب
ذلك مرة فى العمر ، والا فقد تموت دون ان تدرى ما
هذا . . . وزوجتى . . حسنا ، ماذا سيحدث لها ؟ الحمد
لله لم ابتعد عنها خطوة واحدة طوال ثمانى سنوات . . .
ثمانى سنوات من الخدمة المثالية ! يكفيها هذا . . . شىء
محقق . طيب ، ماذا لو خنتها نكاية بها !»

اقترب بافل ايفانيتش مرتعش البدن مبهور الأنفاس
من العريشة المغلفة باغصان الكروم البرية ، وأطل داخلها . . .
وهبت عليه رطوبة وروائح عطنة . . .

وفكر وهو يدخل العريشة : «يبدو ليس هناك أحد . . .» ،
وعلى الفور رأى شبعا بشريا فى ركن العريشة . . .

كان شبخ رجل . . . وعندما حلق بافل ايفانيتش عرف
فيه شقيق زوجته ، الطالب ميتيا ، الذى يعيش عندهم
فى البيت الريفى .

ودمدم بصوت ساخط : «آه . . . أهو انت ؟» ،

ونزع قبعته وجلس .

فأجاب ميتيا :

— نعم أنا . . .

مرت دقيقتان فى صمت . . .

ثم قال ميتيا :

— اعذرني يا بافل ايفانيتش اذا رجوتك أن تتركني

بمفردي . . . اننى افكر فى موضوع رسالة علمية و . . . ووجود
أى شخص هنا يشوش عليّ . . .

فقال بافل ايفانيتش بدعة :

— فلتذهب الى الممر المظلم . . . فى الهواء الطلق

يسهل التفكير ، ثم انه . . . يعنى . . . أريد ان انام قليلا
على هذه الأريكة . . . الجو هنا ليس حارا . . .

فدمدم ميتيا بسخط :

— انت تريد ان تنام وأنا اريد ان أفكر فى الرسالة . . .

الرسالة أهم . . .

وحل الصمت من جديد . . . واذا ببافل ايفانيتش ،

الذى ترك لخياله العنان وأصبح يسمع بين الحين والحين
وقع خطوات ، يقفز فجأة ويقول بصوت باك :

— اننى أرجوك يا ميتيا ! أنت أصغر منى وينبغى

ان تستجيب لرجائى . . . اننى مريض و . . . وأريد أن أنام . . .
اذهب !

— هذه أنانية . . . لماذا ينبغى أن تبقى أنت لا أنا ؟

لن أذهب . . . هذه مسألة مبدأ . . .

— أرجوك ! فلا تكن انانيا ، طاغية ، أحمق . . .

اننى أرجوك ! مرة فى حياتى أرجوك ! استجب !

فهرز ميتيا راسه سلبا
وفكر بافل ايفانيتش : «يا له من وغد ! لن يتم
الراندى فو فى حضوره ! مستحيل فى حضوره !»
— اسمع يا ميتيا ، أرجوك آخر مرة . . . برهن على
أنك انسان ذكى ، عطوف ومثقف !
فهرز ميتيا كتفيه :
— انا لا أفهم الحاحك عليّ ! قلت لك لن أذهب
يعنى لن أذهب . . . سأبقى هنا كمبدأ . . .
وفى تلك اللحظة أطل فى العريشة فجأة وجه نسائي
ذو أنف أقعى .
وعندما رأى الوجه ميتيا وبافل ايفانيتش عبس واختفى . . .
وفكر بافل ايفانيتش وهو ينظر الى ميتيا بحقد : «ذهبت !
رأت هذا الوغد فذهبت ! ضاع كل شيء !»
وانتظر فيخودتسيف قليلا ثم نهض وارتدى قبعته وقال :
— انت حيوان ، وغد ، سافل ! نعم ! حيوان !
هذه خسة و . . . حماقة ! كل شيء بيننا انتهى !
فدمدم ميتيا وهو ينهض ايضا ويرتدى قبعته :
— سعيد جدا ! أتعرف انك بحضورك الآن ارتكبت
فى حقى عملا دنيئا لن اغفره لك طول العمر !
وخرج بافل ايفانيتش من العريشة وقد أعماه الغضب ،
ومضى نحو بيته الصيفى بخطوات سريعة . . . ولم يهدى
ثأثرته حتى منظر المائدة المعدة للعشاء .
وقال فى نفسه منفعلا : «مرة فى حياتى تتاح لى
هذه الفرصة فيفسدونها عليّ ! انها الآن تشعر بالاهانة . . .
انها محطمة !»

واثناء العشاء دفن بافل ايفانيتش وميتيا وجهيهما
فى الاطباق وصمتا مكفهرين كانا يمقتان بعضهما البعض
من صميم قلوبيهما .

وهاجم بافل ايفانيتش زوجته :
— ما لك تبسمين ؟ الحمقاوات وحدهن يتسمن
بلا سبب !

فنظرت الزوجة الى وجه زوجها الغاضب وانفلتت منها
ضحكة . . .
وسألته :

— ما هذه الرسالة التى تسلمتها صباح اليوم ؟
فارتبك بافل ايفانيتش :
— انا ؟ . . لم اتسلم اية رسالة . . . انت تخلقين . . .
هذه تهيوأت . . .

— دعك من المراوغة ! اعترف بأنك تسلمتها !
هذه الرسالة انا التى أرسلتها ! اقسم لك ! ها-ها !
تضرج بافل ايفانيتش وانحنى فوق الطبق . ودمدم :
— مزاح سخيف .

— وماذا أفعل . . . كان ينبغى أن نغسل الأرضية
اليوم ، فكيف نطردكما من البيت ؟ بهذه الطريقة فقط . . .
لا تغضب منى ، يا عزيزى . . . ولكى لا تشعر بالملل
فى العريشة أرسلت لميتيا رسالة مماثلة ! هل كنت فى
العريشة يا ميتيا ؟

ضحك ميتيا ضحكة قصيرة ، ولم يعد ينظر الى
غريمه بحقد .

مغنية الكورس

ذات مرة ، عندما كانت أكثر صبي وجمالا وأقوى صوتا ، جلس عندها في البيت الصيفي ، في السندرة ، عشيقها نيقولاى بتروفتش كولباكوف . كان الجو حارا وخانقا الى درجة لا تطاق . وقد فرغ كولباكوف لتوه من الغداء ومن شرب زجاجة كاملة من الخمر الرديء ، وكان مزاجه معتلا وصحته متوعكة . كانا كلاهما يضجران ويانتظران انحسار الحر حتى يخرججا للتنزه .

وفجأة ، وعلى غير انتظار ، قرع جرس الباب ، فقفز كولباكوف ، الذى كان بلا حلة وفي شيشب ونظر الى «باشا» .
فقالت المغنية :

— ربما كان ساعى البريد ، او احدى صديقاتى .
لم يكن كولباكوف ليخجل من صديقة «باشا» او من ساعى البريد ، ولكنه على أية حال غرف ملابسه تحت ابطه ومضى الى الغرفة الداخلية ، بينما هرعت «باشا» لتفتح الباب . ولدهشتها الشديدة لم يكن على العتبة لا ساعى البريد ولا صديقتها ، بل امرأة لا تعرفها ، شابة ، جميلة ، ترتدى ملابس محترمة ، وتشير كل الدلائل الى انها من بيئة راقية .

كانت المرأة الغربية شاحبة ، تلهث كأنها ارتقت درجاً
عالياً .

وسألتها «باشا» :

— أى خدمة ؟

لم ترد السيدة فوراً . خطت خطوة الى الأمام ،
وتفحصت الغرفة ببطء ، ثم جلست متهالكة كأنما لا تستطيع
الوقوف من التعب او المرض . ثم راحت تحرك شفتيها
الشاحبتين فترة طويلة وهى تحاول ان تلفظ شيئاً ما .
واخيراً سألت وقد رفعت الى «باشا» عينين واسعتين
بجفنين احمرين من البكاء :

— هل زوجى عندك ؟

— أى زوج ؟ — تمت «باشا» ، وفجأة تملكها

الرعب الى درجة تثلجت معها أطرافها . — أى زوج ؟ —
كررت وقد بدأت ترتعش .

— زوجى . . . نيقولاى بتروفتش كولباكوف .

— لا . . . لا يا سيدتى . . . انا لا أعرف أى زوج .

ومرت دقيقة صمت . مسحت المرأة المجهولة شفتيها
الشاحبتين بمنديلها عدة مرات ، ولكى تتغلب على الرجفة
الداخلية كتمت انفاسها ، اما «باشا» فوقفت امامها متمسرة
بلا حراك وهى تتطلع اليها بحيرة وخوف .

وسألت السيدة بصوت أصبح حازماً ، وابتسمت ابتسامة

غريبة :

— اذن تقولين انه ليس هنا ؟

— انا . . . انا لا أعرف عنى تسألين .

فدمدمت المرأة المجهولة وهى تلقى على «باشا» نظرة

— انت لثيمة ، منحطة ، حقيرة . . . نعم ، نعم . . .
لثيمة . يسعدنى جدا اننى استطيع ، أخيرا ، أن أقول
لك هذا !

وشعرت «باشا» انها تثير فى نفس هذه المرأة المتشحة
بالسواد وذات العينين الغاضبتين والأنامل الدقيقة البيضاء ،
احساسا بأنها شىء كريبه بشع ، فتملكها الخجل من خديها
الأحمرين المنتفخين ومن النمش على انفها ، ومن قُصَّتها
المنسدلة على جبينها والتي لا تستجيب ابدا للتمشيط الى
أعلى . وخيل اليها أنها لو كانت نحيفة ، بدون مساحيق
وبدون قُصة ، لكان من الممكن اخفاء سوء سلوكها ،
ولما خافت ونحجلت الى هذا الحد من الوقوف امام هذه
المرأة المجهولة الغامضة .

واستطردت السيدة تسأل :

— أين زوجى ؟ على العموم سيات ان كان هنا أم
لا ، ولكنى يجب ان أقول لك انه تم اكتشاف تبديد
أموال وانهم يبحثون عن نيقولاى بتروفتش . . . يريدون القاء
القبض عليه . . انظري ماذا فعلت به !

نهضت السيدة وتمشت فى الغرفة بانفعال شديد .
ونظرت اليها «باشا» وقد عجزت من الخوف عن فهم شىء .
وقالت السيدة :

— سوف يعثرون عليه اليوم ويعتقلونه . . . — وشهقت
باكية ، وتجلت الالهانة والحزن فى هذا الصوت . — انا
أعرف من الذى دفع به الى هذه الفظاعة ! انت لثيمة ،
حقيرة ! مخلوق كريبه ، مرتزق ! (والتوت شفتا المرأة وتقلص

انفها من التقزز) . — انا عاجزة . . . اسمعى ايتها المرأة المنحطة ! انا عاجزة ، انت أقوى منى ، ولكن لى من يدافع عنى وعن أولادى ! الرب يرى كل شىء ! انه عادل ! سينتقم منك لكل دمعة من دموعى ، ولكل ليالى السهاد ! سيأتى اليوم الذى تذكريننى فيه !

وساد الصمت من جديد . كانت السيدة تروح وتجىء فى الغرفة وهى تلوي ذراعيها ، بينما ظلت «باشا» تحديق فيها ببلادة وحيرة وعدم فهم وتتوقع منها شيئا ما رهيبا . وفجأة قالت وهى تنخرط فى البكاء :

— انا لا أعرف شيئا يا سيدتى !

فصاحت السيدة وحدجتها بنظرة غاضبة لاهبة :

— كذابة ! انا أعرف كل شىء ! أعرفك من زمان ! أعرف أنه فى الشهر الأخير كان يتردد عليك كل يوم ! — نعم . وماذا فى ذلك ؟ يزورنى ضيوف كثيرون ، انا لا أجبر احدا على المجىء . كل واحد حر فيما يفعله . — اننى اقول لك : تم اكتشاف تبديد أموال ! اختلس أموالا عهدة وبددها ! من أجل واحدة . . . مثلك ، من اجلك أقدم على جريمة . — وقالت السيدة بنبرة حازمة وهى تتوقف قبالة «باشا» . — اسمعى ، لا يمكن ان تكون لديك مبادئ ، انت تعيشين فقط لتجلبسى الشر ، وهذا هو هدفك ، ولكنى لا أظن انك بلغت من الانحطاط الى الدرجة التى لم يبق فيها لديك اثر لاحساس انسانى ! ان لديه زوجة واطفالا . . . لو حكموا عليه وسجنوه فسنموت انا والأولاد جوعا . . . افهمى هذا ! ولكن توجد وسيلة لانقاذه وانقاذنا من البؤس والفضيحة . لو أنا أعدت اليوم

فسألت «باشا» بصوت خافت :

— أية تسعمائة روبل ؟ . . أنا . . أنا لا أعرف . . .

لم آخذ شيئا . . .

— أنا لا أطلب منك تسعمائة روبل . . . فليس لديك

نقود ، كما أنني لا أطمع في أملاكك . أنا أطلب شيئا آخر . . الرجال عادة ما يهدون للنساء من أمثالك أشياء ثمينة . اعيدى فقط الأشياء التي اهداها لك زوجي !

فهمت «باشا» وقد بدأت تدرك :

— يا سيدتى ، لم يهد لى اى شيء !

— فأين ذهبت النقود ؟ لقد بدد مالي وماله ومال

العهد . . . فأين ذهب هذا كله ؟ اسمعى ، اننى أرجوك !

لقد كنت غاضبة ووجهت اليك اساءات كثيرة ولكنى اعتذر .

أنا أعرف انك تمقتيننى ، ولكن اذا كنت قادرة على الشفقة

فضعى نفسك فى مكانى ! أتوسل اليك ، اعطينى

الأشياء !

— هم . . . قالت «باشا» وهزت كتفها . — بكل

سرور ، ولكن اقسم لك بالله انه لم يهد لى أي شيء .

صدقينى . — ثم ارتبكت المغنية وقالت : — على العموم

انت على حق . لقد اهدانى ذات مرة قطعتين . تفضلى ،

خذيهما اذا شئت . . .

وسحبت «باشا» أحد ادراج التريجة ، وأخرجت منه

سواراً ذهبيا مجوفا ، وخاتما صغيرا بحجر عقيق .

وقالت وهى تمدهما للضيقة :

— تفضلى !

وتصرح وجه السيدة وارتعش . لقد أحست باهانة .
وقالت :

— ما هذا الذى تعطينه لى ؟ اننى لا أطلب منك
صدقة ، بل اطلب ما ليس ملكك . . ما اعتصرته ، مستغلة
وضعك ، من زوجى . . من هذا الرجل الضعيف البائس . . .
يوم الخميس ، عندما رأيتك مع زوجى عند المرفأ ، كنت
تضعين بروشات وأساور غالية . اذن فلا معنى لأن تمثلى
معى دور الحمل الوديع ! اننى ارجوك للمرة الأخيرة :
هل ستعطينى الأشياء أم لا ؟
فقالت «باشا» وقد بدأت تغضب :

— يا لك من غريبة حقا ! . . أوكد لك اننى لم
أخذ من زوجك نيقولاى بتروفتش اى شىء سوى هذا السوار
والخاتم . لم يكن يأتى اليّ الا بفطائر حلوة .
فضحكت السيدة المجهولة بسخرية :
— فطائر حلوة . . الأولاد فى البيت لا يجدون ما
يأكلونه ، وهنا يأكلون فطائر حلوة . اذن فأنت ترفضين رفضا
قاطعا اعادة الأشياء ؟
وعندما لم تتلق السيدة ردا جلست وهى تحقق فى
شىء ما .

ثم قالت :

— وما العمل الآن ؟ اذا لم أحصل على تسعمائة
روبل فسوف يهلك ، وأنا والأولاد أيضا سنهلك . ترى
هل اقتل هذه الحقيبة أم أركع أمامها على ركبتى ؟
ودفنت السيدة وجهها فى المنديل وأعولت .
وتردد صوتها من خلال الدموع :

— أرجوك ! أنت نهبت زوجي ودمرته ، هيا انقديه . . .
ليس بقلبك شفقة عليه ، ولكن الأولاد . . . الأولاد . . .
ما ذنبهم ؟

وتخيلت «باشا» الأولاد الصغار وهم يقفون فى الطريق
ويبكون من الجوع فأجهشت هى ايضا بالبكاء .
وقالت :

— وماذا أستطيع يا سيدتى ؟ انت تقولين اننى حقيرة
نهبت نيقولاى بتروفتش ، ولكنى اقسم لك ، والله شاهد ،
اننى لم استفد منه شيئا . . . فى كورسنا موتيا وحدها التى
لديها عشيق غنى ، اما نحن جميعا فنأكل لقمتنا بالكفاف .
نيقولاى بتروفتش سيد متعلم ومهذب ، ولهذا كنت استقبله
فلا يمكننا الا نستقبل الضيوف .

— أنا أطلب الأشياء ! اعطيني الأشياء ! اننى أبكى . . .
أتذلل . . . تفضلى ، سأركع على ركبتى ! تفضلى !
صرخت «باشا» رعبا وأشاحت بيديها . وأحست ان
هذه السيدة الشاحبة الجميلة ، التى تتحدث بعبارات سامية ،
كما فى المسرح ، تستطيع بالفعل ان تركع امامها على ركبتيهما ،
وبالذات بدافع الكبرياء ، والنبل ، ولكى تعالى من قدرها
وتحط من قدر المغنية .

وارتبكت «باشا» مهرولة وهى تمسح دموعها وتقول :
— حسنا ، سأعطيك الأشياء ! تفضلى ! ولكنها
ليست من نيقولاى بتروفتش . . . أهداها لى ضيوف آخرون . . .
فليكن كما تشائين . . .

وسحبت «باشا» الدرج العلوى للكمودينو ، وأخرجت
منه بروشا بفصوص من الماس ، وعقدا من المرجان ، وعدة

نحواتهم ، وسوارا ، واعطت كل ذلك للسيدة .
واستطردت «باشا» تقول وقد أهانها التهديد بالركوع
على الركبتين :

— خذوها اذا شئت ، ولكنى لم استفد من زوجك
شيئا . خذى ، اشبعى ! واذا كنت محترمة . . . وزوجته
الشرعية ، فلتمسكى به الى جوارك . . . يعنى ! انا لم أدعه
الىّ ، هو الذى جاء بنفسه . . .

نظرت السيدة من خلال دموعها الى الأشياء التى قدمت
لها وقالت :

— ليس هذا كل شيء . . . هذه لا تبلغ قيمتها حتى
خمسمائة روبل .

فألقت «باشا» من الكمودينو فى حدة بساعة ذهبية ،
وعلبة سجائر ، وازرار اساور قميص ، وقالت وهى تباعد
ذراعيها :

— ليس عندى شيء آخر . . . فتشى اذا شئت !
فتنهدت الضيفة ، ولفت الأشياء فى منديلها بأصابع
مرتعشة ، وخرجت دون ان تنبس بكلمة ، بل حتى لم
تومى برأسها .

وفتح باب الغرفة المجاورة ، ودخل كولباكوف . كان
شاحبا ورأسه يتففض فى عصبية ، كأنما تناول لتوه دواء
مرا . وترقرقت عيناه بالدموع . وهاجمته «باشا» :

— ما هى الأشياء التى اهديتها لى ؟ متى كان ذلك
لو سمحت ؟

فدمدم كولباكوف وهز رأسه :
— الأشياء . . . الأشياء أمر تافه ! يا الهى ! لقد

بكت امامك ، تدللت . . .

فصرخت «باشا» :

— اننى اسألك : اية أشياء اهديتها لى ؟

— يا الهى ، هى الشريفة ، الأبية ، الطاهرة . . .

ارادت أن تركع على ركبتيها امام . . . امام هذه العاهرة !

أنا الذى أوصلتها الى هذا الحد ! أنا سمحت بهذا !

وأمسك رأسه بين يديه وتأوه :

— لا ، لن أغفر لنفسى هذا ابدا ! لن اغفر ! —

وصاح بنفور وهو يتراجع عن «باشا» ويصدها بيدين مرتعشتين : —

ابتعدى عنى . . . يا حقيرة ! ارادت أن تركع على ركبتيها . . .

وأمام من ؟ امامك ! أوه يا الهى !

وارتدى ملابسه بسرعة ، واتجه نحو الباب وهو يتحاشى

«باشا» بتقزز ، وخرج .

واستلقت «باشا» فى الفراش وراحت تنتحب بصوت

عال . كانت تشعر الآن بالأسف على أشياءها التى أعطتها

فى لحظة تهور ، كما كانت تشعر بالاهانة . وتذكرت كيف

ضربها أحد التجار منذ ثلاث سنوات دون سبب او ذنب ،

فعلا نحيبها .

المعلم

كان فيودور لوكيتش صيسوف ، المعلم بمدرسة الفابريقة التي تنفق عليها «مانيفاتورة كوليكن وابنائيه» ، يستعد لحفل الغداء الرسمي . وكانت ادارة الفابريقة تقيم سنويا ، بعد انتهاء الامتحانات ، حفل غداء يحضره مفتش المدارس الشعبية وكل من شهدوا الامتحانات وادارة الفابريقة . ورغم الطابع الرسمي لتلك الحفلات فقد كانت تستمر دائما فترة طويلة ، وتتميز بالمرح والطعام اللذيذ . اذ ينسى المعلمون عبادة الالقاب ولا يتذكرون الا جهودهم الشريفة ، فيأكلون حتى الشبع ، ويسكرون في انسجام ، ويثرثرون الى ان تبح اصواتهم ، وينصرفون في ساعة متأخرة من المساء بينما تدوى في البلدة كلها اصوات غنائهم وقبلاتهم . وقد شهد صيسوف من هذه الحفلات ثلاث عشرة حفلة ، بقدر عدد السنوات التي عمل فيها بمدرسة الفابريقة .

وسعى ، وهو يستعد للحفلة الرابعة عشرة ، ان يضيف على نفسه هيئة احتفالية لائقة الى أقصى حد . فقضى ساعة كاملة ينظف بالمقشة حلته السوداء الجديدة ، ووقف امام المرآة نفس المدة تقريبا وهو يرتدى قميصا عصريا . وانحشرت ازرار اساور القميص في العروات ، فأثار ذلك

عاصفه من الشكاوى والوعيد واللوم ضد زوجته . وحات
قوى الزوجة المسكينة وهى تجرى وتدور حوله . وفى النهاية
أصبح هو ايضا منهكا تماما . وعندما جاؤوه من المطبخ
بحذائه النظيف لم يجد فى نفسه القدرة على انتعاله .
فاضطر ان يستلقى ليسترىح قليلا ، وشرب ماء .
وتنهدت زوجته قائلة :

— كم أصبحت ضعيفا ! كان من الافضل الا تذهب
الى هذا الحفل .

فنهرها المعلم بغضب :

— وفرى نصائحك أرجوك !

كان متكدرا للغاية ، لأنه لم يكن راضيا أبدا عن
الامتحانات الأخيرة . وقد مرت هذه الامتحانات بصورة
رائعة ، وحصل جميع صبيان المرحلة الأخيرة على شهادات
وجوائز ، وأبدى الرؤساء ، من الفابريقة والجهات المسئولة ،
ارتياحهم الى ما تحقق من نجاح ، ولكن ذلك لم يكن
كافيا بالنسبة للمعلم . لقد أحزنه ان التلميذ بابكين ، الذى
لم يكن يخطئ أبدا فى الكتابة ، ارتكب ثلاثة اخطاء
فى امتحان الاملاء ؛ كما لم يستطع التلميذ سرجيف ،
بسبب الاضطراب ، معرفة حاصل ضرب ١٧ فى ١٣ .
لقد اختار المفتش ، وهو رجل شاب قليل الخبرة ، موضوعا
صعبا للاملاء ، أما معلم المدرسة المجاورة ، لابونوف ،
الذى طلب منه المفتش ان يملئ الموضوع ، فقد تصرف
«بصورة لارفاقية» ، فعندما كان يملئ كان ينطق الكلمات
كما تلفظ لا كما تكتب ، وكأنما كان يلوكها فى فمه .
وبعد ان انتعل المعلم حذاءه بمساعدة زوجته ، وألقى

على نفسه نظرة اخرى فى المرأة ، تناول عصاه المعقدة ،
ومضى الى حفل الغداء . وقرب باب شقة مدير الفابريقة ،
حيث يقام الاحتفال ، وقع له حادث غير سار . فقد
داهمه السعال فجأة . . . وبسبب هزات السعال طارت القبعة
من فوق رأسه ، وسقطت العصا من يديه ، وعندما خرج
المعلمون والمفتش من شقة المدير ركضا وقد سمعوا سعاله ،
وجدوه جالسا على الدرجة السفلى يتصبب عرقا .

ودهش المفتش وسأله :

— أهو انت يا فيودور لوكيتش ؟ اذن ، لقد جئت ؟

— وماذا هناك ؟

— من الأفضل ان تلزم البيت يا عزيزى . انت اليوم

مريض جدا . . .

— انا اليوم كما كنت بالأمس . اما اذا كان حضورى

يضايقكم فاستطيع ان انصرف .

— ما هذا الكلام . يا فيودور لوكيتش ؟ ما الداعى

لأن تقول هذا ؟ أهلا ومرحبا ! على العموم لسنا نحن اصحاب

الحفل بل انت . بالعكس نحن فى غاية السرور ، بالشرف ! . .

كان كل شىء معدا للاحتفال فى شقة مدير الفابريقة .

ففى غرفة الطعام الكبيرة ، ذات نسخ اللوحات الزيتية الالمانية

على حيطانها وأريج زهور الجيرانيوم ورائحة طلاء الأثاث ،

امتدت طاولتان ، واحدة كبيرة للغداء ، واخرى اصغر منها

للمزات . ومن النافذة المسدلة الستائر تسلك بوهن ضوء الظهيرة

القائظ . . . وبدا ظلام الغرفة الغسقى ، والمناظر السويسرية

على الستائر ، والجيرانيوم ، والمرتدلا المقطعة شرائح رقيقة

فى الاطباق . . بدا كل ذلك مشوبا بالسذاجة وعاطفية

المراهقات ، ويشبه صاحب الشقة نفسه ، ذلك الألماني الصغير البشوش ، ذا الكرش المدور والعينين المداهنتين الودودتين . وكان ادولف اندرييتش برونى (هكذا كان يدعى صاحب الشقة) يهرول بجوار طاولة المزات ، كأنما يطفى حريقا ، ويملاً الكؤوس ، ويضع المزة فى الاطباق ، وهو يسعى بكل جهده الى ارضاء الجميع ، واضحاكهم واظهار مودته . كان يربت على الاكتاف ، ويحديق فى الوجوه ، ويقهقه ، ويفرك راحتيه ، وباختصار كان يتمسح متوددا ككلب طيب .

وقال بصوت متهدج عندما رأى صيسوييف :
— فيودور لوكيتش . . من أرى ! يا لها من سعادة !
لقد جئت رغم مرضك ! . . يا سادة ، اسمحوا لى ان اسعدكم . . فيودور لوكيتش جاء !
كان المربون يتزاحمون حول طاولة المزات وهم يأكلون . وتجهم صيسوييف ، اذ لم يعجبه ان رفاقه بدأوا فى تناول الطعام والشراب ولم ينتظروه . ورأى بينهم لابونوف ، ذلك الذى املى موضوع الاملاء فى الامتحان ، فاقترب منه وقال :
— هذه ليست روحا رفاقية ! نعم ! السادة المحترمون لا يُملون هكذا !

فقال لابونوف مقطبا :
— يا الهى ، ما زلت تتحدث عن نفس الشيء !
ألم تمل ذلك ؟

— نعم ، عن نفس الشيء ! تلميذى بابكين لم يكن يخطئ أبدا ! انا أعرف لماذا أملت بهذه الطريقة . كنت تريد ان يرسب تلاميذى ، لكى تبدو مدرستك افضل .

انا فاهم كل شىء !

فدمدم لابونوف بغضب :

— ما لك تتمحك ! لماذا تتحرش بى بحق الشيطان ؟

فتدخل المفتش بوجه يتصنع البكاء :

— كفاكم يا سادة ! لا داعى للاحتداد من اجل

اشياء تافهة . ثلاثة اخطاء . . . لا اخطاء . . . أليس الامر
سيان ؟

— كلا ، ليس سيان . تلميذى بابكين لم يرتكب ابدا

اى خطأ .

فمضى لابونوف يقول وهو يزفر بانزعاج :

— انه يتحرش بى ! يستغل وضعه كرجل مريض

ويفترس الجميع ! ولكنى يا سيدى لن اراعى انك مريض !

فصاح صيسوييف بغضب :

— دعوا مرضى وشأنه ! ما دخلكم بذلك ؟ الكل

يرددون : مريض ! مريض ! مريض ! لا حاجة بى

الى مواساتكم ! ثم لماذا قررتم اننى مريض ؟ كنت مريضا

قبل الامتحانات ، هذا صحيح ، اما الآن فقد شفيت

تماما ، ولم يبق الا بعض الضعف .

فقال مدرس الدين ، الأب نيقولاى ، وكان قسا

شابا ، يرتدى غفارة بنية أنيقة وسروالا مسدلا فوق الحذاء

الطويل :

— احمد الله انك شفيت . ينبغى ان تفرح ، ولكنك

تفعل وما شابه ذلك .

فقاطعه صيسوييف :

— وانت ايضا فيك الخير ! الاسئلة ينبغى ان تكون

مباشرة ، ، واصححه ، ، لكنت القيت عليهم العار . هذا لا يجوز !

واستطاعوا بعد جهود مشتركة ان يهدئوه ، واجلسوه الى المائدة . وظل طويلا ينتقى اى شراب يشرب ، ثم قطب وجهه وشرب نصف كأس من شراب منزلى اخضر ، وبعدها شد اليه قطعة كعكة وراح يستبعد من حشوتها بعناية قطع البيض والبصل . ومن القضة الأولى خيل اليه ان الكعكة قليلة الملح . فملحها ، وعلى الفور أبعدها عنه بغضب لانها أصبحت زائدة الملح .

اجلسوا صيسويف على الغداء بين المفتش وبرونى . وفور الفراغ من الحساء ، بدأت الانخاب حسب التقليد المتبع من زمان .

ونهض المفتش ، فقال :

— يسرنى ويشرفنى ان اتوجه بالشكر الى رعاة المدرسة الغائبين عن الحفل : الشقيقين دانيلا بتروفتش و... و... و... فذكره برونى :

— وايفان بتروفتش .

— وايفان بتروفتش كوليكين ، اللذين لم يبخلا بالمال على المدرسة ، واقترح ان نشرب هذا النخب فى صحتهما ... فقفز برونى كالملدوغ وقال :

— ومن جانبى اقترح ان نشرب فى صحة مفتش المدارس الشعبية المحترم بافل جناديفتش نداروف . تحركت المقاعد ، وتبسمت الوجوه ، وبدأ قرع الكؤوس المعهود . وكان النخب الثالث مخصصا دائما لصيسويف . وفى هذه المرة ايضا نهض وراح يتكلم . اكتسب وجهه

سيماء الجدية ، وبعد ان تنحج أعلن قبل كل شيء انه لا يملك موهبة الفصاحة ، ولم يستعد لالقاء الكلمة . ثم قال بعد ذلك انه خلال اربعة عشر عاما من الخدمة واجه الكثير من المؤامرات والدسائس بل وحتى الوشائيات ضده ، وانه يعرف اعداءه والواشين به ، ولكنه لا يريد ان يفصح عن اسمائهم «خوفا من ان يفسد شهية البعض» . ورغم المؤامرات فقد احتلت مدرسة كوليكن المركز الاول فى المحافظة كلها ، «ليس من الناحية المعنوية فحسب ، بل ومن الناحية المادية ايضا» .

ومضى يقول :

— فى كل مكان يتقاضى المعلمون ٢٠٠ او ٣٠٠ روبل ، اما انا فأتقاضى ٥٠٠ روبل ، وعلاوة على ذلك فقد جرى تصليح شقتى بل وتأثيثها على حساب الفابريقة . وفى هذا العام غطيت جميع جدران الشقة بالورق الجديد . . . ثم أفاض المعلم بعد ذلك فى الحديث عن السخاء فى تزويد التلاميذ بالادوات المكتبية بالمقارنة مع تلاميذ المدارس الحكومية ومدارس المجالس المحلية . والمدرسة مدينة بكل ذلك ، حسب رأيه ، لا لاصحاب الفابريقة ، المقيمين فى الخارج ولا يعلمون ربما حتى بوجود المدرسة ، بل للشخص الذى يملك ، رغم اصله الالمانى وعقيدته البروتستانتية ، روحا روسية . تحدث صيسويف طويلا ، وهو يتوقف لالتقاط انفاسه ، محاولا ان يضيف على حديثه اسلوبا فخما معقدا ، فجاءت كلمته مقبضة منفرة . وأشار عدة مرات الى اعداء له ، ولجأ الى التلميح ، وكرر ما قاله ، وتنحج بينما كانت اصابعه تتحرك بصورة قبيحة .

وأخيرا أدركه التعب ، وتصبب عرقه ، وأخذ يتنهد بصوت
خافت لاهث ، كأنما يحدث نفسه ، وأنهى حديثه بصورة
مضطربة :

— وهكذا ، اقترح ان نشرب فى صحة برونى ،
اعنى فى صحة ادولف اندريتش الذى يجلس هنا ، بيننا . . .
وعموما . . . ومفهوم .

وعندما أنهى كلمته تنفس الجميع الصعداء ، كأنما
رش احدهم فى الجو رذاذا باردا فدد الحر الخائق . ويبدو
ان برونى وحده هو الذى لم يشعر بالنفور . فقد تهللت
اساريره ، وقلب عينيه العاطفتين ، وهز يد صيسويف بتأثر ،
وتمسح متوددا من جديد كالكلب .

وقال وهو يضع يده اليسرى على قلبه :

— أوه ، أشكرك ! انا سعيد جدا بأنك تفهمنى !
اتمنى لك كل التوفيق ، من صميم قلبى ! لكنى أريد
ان أقول انك تبالغ فى تقدير دورى . المدرسة مدينة بازدهارها
لك ، لك وحدك يا صديقى المبجل فيودور لوكيتش !
لولاك لما تميزت بشيء عن المدارس الاخرى ! انك تظن
ان هذا الألمانى يتحدث مجاملا ، يتكلم بلباقة . ها — ها !
كلا يا عزيزى فيودور لوكيتش ، اننى انسان شريف ولا
أجامل ابدا . واذا كنا ندفع لك خمسمائة روبل فى السنة
فهذا يعنى انك عزيز علينا . أليس كذلك ؟ يا سادة ،
ألست أقول الحق ؟ ما كنا لندفع لاحد غيرك مثل هذا
المبلغ . . . عفوك ، ان المدرسة الجيدة هى شرف للفابريقة !
فقال المفتش :

— أريد ان اعترف لكم بصراحة بأن مدرستكم حقا

غير عادية . لا تظنوا هذا مديحا . على الاقل انا لم ار
مدرسة مثلها طوال حياتي . لقد حضرت الامتحانات عندكم
وكنت طوال الوقت مندهشا . . . ما أروعهم من أولاد !
يعرفون الكثير ، ويجيبون على الاسئلة بطلاقة ، وعلاوة على
ذلك فهم من نوع خاص ، ليسوا مذعورين ، صادقون . . .
ومن الواضح انهم يحبونك يا فيودور لوكيتش . انت مرب
حتى النخاع ، لا بد أنك ولدت معلما . ولديك كل
المؤهلات لذلك : التوجه الموروث ، والخبرة الطويلة ،
وحب المهنة . . . والمرء ليدهش . . فرغم ضعف صحتك
تمتلك كل هذه الطاقة ، وهذه المعرفة العميقة بالعمل ،
وهذه . . . التفهم . . الصلابة والثقة ! صحيح ما قاله احدهم
في مجلس المدرسة من انك شاعر في مهنتك . . . نعم
بالضبط ، شاعر !

وانطلق جميع الحاضرين في صوت واحد يتحدثون
عن موهبة صيسوف البارزة . وكأنما انفجر سد يحجز المياه ،
اذ تدفقت الكلمات الصادقة المعجبة التي لا يقولها المرء
عندما يكون مفيقا يحسب حساب الكلمات ويحترس .
ونسوا كلمة صيسوف ، وطبعه الذي لا يحتمل ، وتعبير
وجهه الشرير الكريه . انطلقت السنة الجميع ، حتى المدرسين
الجدد الصامتين الوجلين ، اولئك الشبان البؤساء المنكمشين ،
الذين لم يكونوا يخاطبون المفتش الا بـ «يا صاحب المعالي» .
وكان من الواضح ان صيسوف في مجاله شخصية مشهورة .
ولما كان قد ألف النجاح والمديح خلال اربعة عشر
عاما من الخدمة ، فقد أصغى بلا مبالاة الى طنين
محييه المعجب .

وبدلاً منه كان برونى يسمع بالأطراء . . . كان الالمانى
يتصيد كل كلمة ، ويتهلل ، ويصفق ، ويتخرج خجلاً ،
كأنما كان المديح موجها اليه لا الى المعلم .
وكان يصيح :

— برافو ؛ برافو ! لقد خمنت أفكارى ! . . ممتاز ! . .
ويحقد فى وجه المعلم كأنما يريد ان يشاركه سعادته .
وفى النهاية لم يطق صبرا فقفز ناهضاً ، وصاح فطغى صوته
الرفيع المعول على جميع الاصوات :

— يا سادة ! اسمحوا لى بكلمة ! هس ! لا أجد
ما أرد به على كل كلماتكم الا ان أقول : ان ادارة الفابريقة
لن تُبقي فى عنقها دين فيودور لوكيتش ! . .
وصمت الجميع . ورفع صيسوييف عينيه نحو وجه
الالمانى المتورد .

ومضى برونى يقول وقد خفض صوته واضفى على وجهه
سيماء الجدية :

— اننا نعرف كيف نقدر الناس . وردا على كل ما قلتموه
أود ان أخبركم بأن . . . اسرة فيودور لوكيتش ستكون مؤمنة ،
وانه فى هذا الصدد قد وضعنا لها رصيда فى البنك منذ
شهر .

نظر صيسوييف مستفهما الى الالمانى ثم الى رفاقه
وكأنما يستغرب : لماذا ستؤمن اسرته وليس هو نفسه ؟
وهنا قرأ فى جميع الوجوه ، وفى جميع العيون الجامدة
المحدقة فيه شيئاً ليس بالمواساة أو الشفقة ، وهو ما لم
يكن يطيقه ، بل شيئاً آخر ، ناعماً ، رقيقاً ، وفى نفس
الوقت منذراً بالشر الى اقصى حد ، شيئاً يشبه الحقيقة

الرهيبه ، بعث على الفور فى جسده كله البرودة ، وفى روحه
يأسا لا يوصف . وفجأة قفز واقفا وقد شحب وجهه وانقلب ،
وأمسك برأسه . ووقف هكذا حوالى ربع دقيقة ، وهو يتطلع
امامه فى رعب ، محدقا فى نقطة واحدة ، كأنما رأى
امامه ذلك الموت القريب الذى تحدث عنه برونى ، ثم
جلس واجهش بالبكاء .

وسمع وهو يبكى اصواتا منفعة :

— كفى ! .. ماذا بك ؟ .. هاتوا ماء ! اشرب قليلا !
وبعد قليل هدأ المعلم ، الا ان المرح السابق لم
يعاود المحتفلين . وانتهى الغداء فى صمت وتجهم وفى
وقت مبكر بكثير عما كان فى السنوات السابقة .
وعندما عاد صيسويف الى البيت كان اول ما فعله
ان نظر فى المرأة .

وقال فى نفسه وهو ينظر الى عينيه بالدوائر السوداء
المحيطة بهما والى خديه الغائرين : «ما كان ينبغى طبعا
ان استسلم للبكاء هناك ! لون وجهى اليوم احسن بكثير
مما كان بالامس . عندى فقر دم والتهاب فى المعدة ،
والسعال بسبب المعدة» .

واذ ارتاح الى ذلك راح يخلع ملابسه ببطء وينظف
بالمقشة حلته السوداء مدة طويلة ، ثم طواها بعناية وأغلق
الكمودينو عليها .

ثم اقترب من الطاولة حيث رصت كومة من دفاتر
التلاميذ ، فانتقى من بينها دفتر بابكين ، وجلس واستغرق
فى تأمل الخط الطفولى الجميل . . .
وفى تلك الاثناء ، وبينما كان يتفحص املاء تلاميذه ،

كان طبيب المجلس المحلي جالساً في الغرفة المجاورة ،
ويقول همسا لزوجته صيسويث انه ما كان يجوز السماح
بالذهاب الى الحفل لرجل لم يبق امامه في الحياة ، على
ما يبدو ، أكثر من اسبوع .

الزوج

توقف احد افواج الخيالة اثناء المناورات للمبيت فى مدينة (ك) الريفية الصغيرة . وَحَدَّثُ مثْل مبيت السادة الضباط يثير دائما مشاعر السكان المحليين الى اقصى درجات الانفعال والحماس . فاصحاب الدكاكين ، الذين يحلمون بتصرف المرتدلا الكاسدة الصدئة و«احسن انواع» السردين المرصوص على الارفف منذ عشر سنوات ، واصحاب الحانات ، وغيرهم من رجال الاعمال ، لا يغلقون ابواب محالهم طوال الليل . ويرتدى الحاكم العسكرى وسكرتيه وجنود الحامية المحلية افضل حللهم . ويهرول رجال الشرطة كالمجانين ، اما النساء فالشيطان وحده يعلم ماذا يحدث لهن !

وعندما سمعت سيدات (ك) باقتراب الفوج ، تركن جانبا قدور المربى الساخنة وهرعن الى الخارج . لم يعبأن بشبابهن المنزلية وهياتهن المشعة وانطلقن لاهثات مبهورات لملاقاة الفوج وهن يصغين بنهم الى انغام المارش . ولو نظرت الى وجوههن الشاحبة المتحمسة لخيّل اليك ان هذه الانغام لم تكن تتردد من أبواق الجنود بل من السماء .

وتصايحن بسرور :

— الفوج ! الفوج قادم !

عرج على المدينة صدفة وسيرحل غدا في الفجر ؟ وفيما
بعد ، حينما وقف السادة الضباط وسط الميدان ، عاقلين
اذرعهم خلف ظهورهم ، وهم يبحثون مسألة الايواء ، كانت
السيدات مجتمعات في شقة زوجة المحقق ويتسابقن في
انتقاد الفوج . ولا يعلم الا الله من اين عرفن ان قائد
الفوج متزوج ، لكنه لا يعاشر زوجته ، وان كبير الضباط
يولد له كل عام اطفال ميتون ، وان الياور غارق في حب
كونتيسة ما بلا امل ، بل حاول الانتحار مرة . كن يعرفن
كل شيء . وعندما مر من امام النوافذ جندى مجدور الوجه ،
في قميص احمر كن يعلمن تمام العلم انه جندى مراسلة
الملازم ريمزوف ، وانه يهرول في المدينة بحثا لسيدة عن
فودكا انجليزية مع تأجيل الدفع . ولم يكن قد رأى الضباط
الا لمحا ، ومن ظهورهم ، الا انهن قد قررن انه لا يوجد
بينهم ضابط واحد جميل أو جذاب . . . وبعد ان شعبن
من الكلام طلبن ان يأتي اليهن الحاكم العسكري ورئاسة
النادي ، وامرنهم باقامة حفل راقص مهما كان الامر .
ونفذت رغبتهن . وفي التاسعة مساء دوت امام النادي
انغام اوركسترا عسكرية ، وفي داخل النادي نفسه كان السادة
الضباط يرقصون مع سيدات مدينة (ك) . واحست السيدات
انهن يحلقن باجنحة . ثملن من الرقص والموسيقى وصليل
المهاميز ، فاستسلمن بكل قلوبهن للتعارف العابر ، ونسين
تماما رجالهن المدنيين . وتجمع اباؤهن وازواجهن ، الذين
تراجعوا الى اقصى خلفية الصورة ، حول البوفيه الهزيل في
المدخل . كان كل هؤلاء الصيارفة والسكرتيرون والمفتشون ،

ذوو الوجوه السقيمة ، والبواسير والملابس المهدلة يدركون
ضآلتهم تمام الادراك فلم يدخلوا الصالة ، بل راحوا يتطلعون
من بعيد الى زوجاتهم وبناتهم وهن يراقصن الضباط المهرة
ذوى الاجسام الرشيقة .

وكان من بين الازواج مأمور ضرائب رسوم الانتاج
كيريل بتروفتش شاليكوف ، وهو مخلوق ثمل ، ضيق وخبيث ،
ذو رأس كبير حليق وشفتين سميتين متدليتين . كان فى
وقت ما طالبا فى الجامعة ، يقرأ بيسارييف ودوبرولوبوف * ،
ويغنى الاغانى ، اما الآن فيقول عن نفسه أنه مساعد
اعتبارى ** ولا شىء اكثر . وقف مرتكزا على قائم الباب
دون أن يحول نظره عن زوجته . وكانت زوجته ، أنا بافلوفنا ،
وهى سيدة صغيرة ، سوداء الشعر ، طويلة الانف ، فى
حوالى الثلاثين ، حادة الذقن ، مزينة بالمساحيق ومشدودة
بالكورسيه ، ترقص بلا توقف الى درجة الاعياء . وقد ارهقها
الرقص ، ولكن التعب كان تعباً جسدياً لا روحياً . . . كانت
هيئتها كلها تطفح بالاعجاب والاستمتاع . كان صدرها
يختلج ، ولمعت على خديها بقع حمراء ، وكانت كل
حركاتها فاترة ، ناعمة . وبدا واضحاً انها كانت ، وهى
ترقص ، تتذكر الماضى ، ذلك الماضى البعيد ، عندما

* ديمترى بيسارييف (١٨٤٠ — ١٨٦٨) ونيقولاى دوبرولوبوف
(١٨٢٦ — ١٨٦١) ناقدان أدبيان وصحفيان من كبار ممثلي الثوريين
الديمقراطيين فى القرن التاسع عشر . المغرب .
** من الرتب المدنية الدنيا فى روسيا القيصرية . المغرب .

كانت ترقص وهي طالبة في المعهد وتحلم بحياة مترفة مريحة ،
وعندما كانت واثقة من انها ستتزوج حتما من بارون أو أمير .
وأخذ مأمور الضرائب يتطلع اليها مقطب الوجه من
الغيظ . . . لم يكن يشعر بالغيرة ، الا انه كان متضايقا
من انه : أولا ، بسبب الرقص ، لم يكن هناك مكان
للعب الورق ، وثانيا لأنه كان لا يطيق الموسيقى ، وثالثا
لأن السادة الضباط ، كما بدا له ، كانوا يعاملون المدنيين
باهمال وتعال بالغبين ، ورابعا ، وهو الأهم ، فقد أثار
سخطه وأجج غضبه تعبير الغبطة على وجه زوجته . . .
ودمدم :

— منظر كرهه ! عما قريب ستبلغ الأربعين ، لا
مال ولا جمال ، ومع ذلك تزينت وتصففت ، ولبست
الكورسيه ! تتدلل وتتقصع ، وتظن ان ذلك يبدو جميلا . . .
يا سلام ، ما أروعك يا سيدتي !
استسلمت أنا بافلونا للرقص تماما ، حتى انها لم
تنظر الى زوجها نظرة واحدة .

وقال المأمور بكراهية :

— طبعا ، وماذا نكون نحن الفلاحين ! نحن الآن
خارج الهيئة . . . نحن افيال بحر ، دبية ريفيون ! اما
هي فأميرة الحفل . ما زالت تحتفظ بشبابها الى درجة انها
تثير اهتمام الضباط ، بل وربما وقع أحدهم في غرامها .
وثناء رقصة المازوركا تقلص وجه المأمور تماما من شدة
الغيظ . كان هناك ضابط اسود الشعر ، جاحظ العينين
ذو وجنتين تترتين بارزتين يراقص أنا بافلونا . وكان يعمل
بساقيه في جدية ، وقد اكتسى وجهه بتعبير صارم ، وأخذ

يلوى ركبتيه بشدة حتى انه كان مثل الدمية الخشبية التي
يشدونها بالخيوط فتتحرك . اما آنا بافلوفنا فكانت شاحبة
مرتجفة ، وقد ثنت قوامها بفتور وقلبت عينيها ، محاولة
ان تبدو وكأنها لا تكاد تلمس الأرض ، والظاهر انه خيل
اليها انها ليست على الأرض ، في ناد ريفي ، بل في
مكان بعيد ، فوق السحاب ! لم يكن وجهها وحده الذي
يعبر عن الغبطة بل جسدها كله . . . ولم يعد في وسع مأمور
الضرائب ان يحتمل . أحس برغبة في السخرية من هذه
الغبطة ، واشعار آنا بافلوفنا بأنها غابت عن وعيها ، وبان
الحياة ليست أبدا بهذه الروعة التي تبدو لها الآن وهي سكرى
بالنشوة . . .

ودمدم قائلا :

— مهلا ، سوف أريك كيف تبسمين بغبطة !
لست طالبة او بنتا صغيرة . الشمطاء يجب ان تعرف انها
شمطاء !

تحركت في صدره كما تتحرك الفئران احاسيس خسيصة
بالغيرة والحق ، والكبرياء المهان ، والكراهية الريفية المحدودة ،
تلك الكراهية التي تعشش في نفوس الموظفين الصغار بسبب
الفودكا وحياة الجلوس الى المكاتب . . . وانتظر حتى انتهت
المازوركا ثم دخل الصالة واتجه نحو زوجته . كانت آنا
بافلوفنا في ذلك الوقت جالسة مع مراقصها وهي تخفق
بالمروحة ، وتزر عينيها بدلال وتروى كيف رقصت في وقت
ما في بطرسبرج . (كانت تزم شفيتها على شكل قلب وتلفظ
الحروف هكذا : «عندنا في بيوتورسبيورج») .

وقال المأمور بصوت متحشرج :

وعندما رأت آنا بافلوفنا زوجها أمامها انتفضت فى البداية
وكأنما تذكرت ان لديها زوجا ، ثم تضرجت خجلا . شعرت
بالخجل من ان لها زوجا سقيما ، عبوسا ، عاديا كهذا . . .
وكرر المأمور :

— هيا الى البيت !

— لماذا ؟ الوقت مبكر .

فقال المأمور متباطئا وبوجه شرير :

— هيا الى البيت أرجوك !

فسألت آنا بافلوفنا بقلق :

— لماذا ؟ هل حدث شيء ؟

— لم يحدث شيء ، ولكنى أريد ان تعودى الى

البيت حالا . . . أريد وكفى ، وأرجوك لا داعى للكلام !

لم تكن آنا بافلوفنا تخاف زوجها ، ولكنها شعرت

بالخجل امام مراقصها الذى كان ينظر الى المأمور بدهشة

وسخرية . فنهضت وانتحت بزوجها جانبا . قالت له :

— ماذا دهاك ؟ لماذا أعود الى البيت ؟ الساعة

لم تبلغ حتى الحادية عشرة بعد !

— أنا أريد وانتهينا ! تفضلى عودى وكفى !

— دعك من هذه الحماقات ! اذهب انت اذا

أردت .

— حسنا ، سأثير فضيحة !

رأى المأمور كيف تلاشى تعبير الغبطة شيئا فشيئا من

وجه زوجته ، وكيف كانت تشعر بالخجل وتعانى ، فأحس

بشيء من الراحة .

وسالته زوجته :

— ما حاجتك اليّ الآن ؟

— لست بحاجة اليك ، ولكنى أريد ان تبقى فى البيت . أريد وكفى .

لم ترغب آنا بافلوفنا حتى فى السماع ، ولكنها راحت بعد ذلك تتوسل الى زوجها ان يسمح لها بالبقاء ولو نصف ساعة . ثم أخذت تعتذر وتقسم وهى لا تدرى لماذا تفعل ذلك . كانت تتحدث فى همس وتبتسم ، حتى لا يظن الحاضرون ان هناك خلافا بينها وبين زوجها . ومضت تؤكد له انها لن تبقى طويلا ، فقط عشر دقائق ، فقط خمس دقائق . بيد ان الأمور أصر على موقفه بعناد .

— كما تشائين ، ابقى ! ولكنى سأثير فضيحة . وبينما كانت آنا بافلوفنا تتحدث مع زوجها ضمرت وهزلت وشاخت . ومضت الى المدخل شاحبة وهى تعض شفيتها وتكاد تبكى ، وبدأت ترتدى معطفها .

وأبدت سيدات (ك) دهشتهم فسألن :

— الى أين ؟ آنا بافلوفنا ، الى أين يا عزيزتى ؟ فرد المأمور نيابة عنها :

— عندها صداع .

وبعد ان خرج الزوجان من النادى سارا فى صمت حتى بلغا البيت . كان المأمور يسير خلف زوجته . وبينما كان ينظر الى قامتها المحنية الذليلة التى هدها الحزن ، تذكر غببتها التى أثارت حنقه فى النادى ، فامتلاً قلبه باحساس الظفر عندما أدرك ان هذه الغبطة قد تلاشت . كان سعيدا وراضيا ، وفى الوقت نفسه أحس بأن شيئا ما

ينقصه ، ، وراودته رغبة في أن يعود الى السادى ليصنع سينا
يجعل الجميع يشعرون بالملل والمرارة ، وبضالة هذه الحياة
وسطحيتها عندما تسير هكذا فى ظلام الشارع وتسمع بقبقة
الوحل تحت قدميك ، وعندما تعرف أنك ستستيقظ غدا
فى الصباح فلا تجد امامك شيئا آخر سوى الفودكا وأوراق
اللعب ! اوه ، ما أفظع ذلك !

اما أنا بافلوفنا فكانت تخطو بالكاد . . . كانت لا
تزال تحت تأثير الرقص والموسيقى والاحاديث والبريق والصخب .
وسارت وهى تسأل نفسها : ما الذى جنته ليعاقبها الله هذا
العقاب ؟ كانت تشعر بالمرارة والمهانة وتكاد تختنق من
الحقد الذى اعتمل فى صدرها وهى تسمع خطوات زوجها
الثقيلة . ولزمت الصمت وهى تحاول ان تعثر على أكثر
الكلمات اهانة ووخزا وسما لترمى بها زوجها ، وفى الوقت
نفسه كانت تدرك ان مأمورها لا تؤثر فيه اية كلمات . فماذا
تعنى الكلمات بالنسبة له ؟ ولم يكن فى وسع اعدى الاعداء
ان يضعها فى حالة اشد عجزا من هذه الحالة .
بينما كانت الموسيقى تدوى ، والظلمة مشبعة بأكثر
الانغام رقصا واثارة .

توافه الحياة

توجه نيقولاى ايليتش بليايف ، أحد أصحاب العقارات فى بطرسبرج ، ومن المترددين كثيرا على سباق الخيل ، وهو رجل شاب ، فى حوالى الثانية والثلاثين ، ممتلئ الجسم ، وردى البشرة ، توجه ذات مساء الى السيدة أولجا ايفانوفنا ايرنينا التى كان يعاشرها ، أو التى كانت له معها ، على حد تعبيره ، قصة طويلة مملة . وبالفعل ، فالصفحات الأولى من هذه القصة ، تلك الصفحات التى كانت شيقة ملهمة ، قد فرغ من قراءتها منذ أمد بعيد ، وامتدت الصفحات الآن ببطء ، خلوة من أى شىء جديد أو شيق . وعندما لم يجد بطلنا أولجا ايفانوفنا فى البيت ، استلقى على أريكة فى غرفة الجلوس ، وشرع ينتظرها . وسمع صوتا طفوليا يقول :

— مساء الخير يا نيقولاى ايليتش . ماما ستعود قريبا .

لقد ذهبت مع سونيا الى الخياطة .

فى غرفة الجلوس ذاتها استلقى على الكنبه أليوشا ابن أولجا ايفانوفنا . وهو صبى فى حوالى الثامنة ، رشيق ، معتنى به ، يرتدى سترة مخملية وجوريا طويلا . من التريكو الأسود حسب أحدث موضة . كان راقدا على وسادة من الحرير الأطلسى ، ويبدو انه كان يقلد لاعب الاكروبات

الذى راه مؤحرا فى السيرك ، فقد كان يرفع عاليا ساقيه بالتناوب . وعندما تتعب ساقاه الرشيقتان ، يطلق العنان ليديه ، أو يقفز بحدة ويجثم على أربع محاولا أن يقف على يديه . وكان يفعل ذلك كله بوجهه فى غاية الجدية ، وهو يزحر بمعاناة ، وكأنما كان هو نفسه غير راض اذ وهبه الله هذا الجسد القلق .

فقال بلياييف :

— آه ، مرحبا يا صديقى . أهو أنت ؟ لم ألاحظ وجودك . هل ماما بصحة طيبة ؟

تشقلب أليوشا ، الذى أمسك بمشط قدمه اليسرى بيده اليمنى واتخذ وضعاً غير عادى تماما ، ثم قفز واقفا ، وأطل على بلياييف من خلف أباجرة كبيرة منتفخة . وقال وهو يهز كتفيه :

— ماذا أقول لك ؟ ماما فى الواقع لا تشعر بنفسها فى صحة طيبة أبدا . فهى امرأة ، والمرأة ، يا نيقولاى ايليتش ، لديها دائما شىء ما مريض .

ولما لم يكن لدى بلياييف ما يفعله ، فقد راح يتأمل وجه أليوشا . فطوال فترة معرفته بأولجا ايفانوفنا لم يعر الصبى أدنى اهتمام ، ولم يلاحظ وجوده أبدا . . . مجرد صبى يلوح لناظريه ، أما ما سبب وجوده هنا ، وأى دور يؤديه ، فهذا ما لم يشأ ، لأمر ما ، أن يفكر فيه .

وفى عتمة الغسق ذكره وجه أليوشا ذو الجبين الشاحب والعينين السوداوين غير الברاقنتين ، ذكره على غير توقع بأولجا ايفانوفنا عندما كانت فى أولى صفحات القصة . فأحس برغبة فى ملاطفة الصبى .

فقال له :

— تعال هنا يا صغير ! دعنى انظر اليك عن قرب .
وقفز الصبى من فوق الكنبه وركض الى بلياييف .
ووضع نيقولاى ايليتش يده على كتف الصبى النحيلة

وقال :

— حسنا ؟ ماذا ؟ كيف الحال ؟
— ماذا أقول لك ؟ كان الحال فى السابق أفضل
بكثير .

— لماذا ؟

— بسيطة جدا ! فى السابق كنت أنا وسونيا ندرس
الموسيقى والقراءة فقط ، أما الآن فعلينا أن نحفظ اشعارا
بالفرنسية . أنت حلقت منذ وقت قريب .

— نعم ، منذ وقت قريب .

— لقد لاحظت ذلك . أصبحت لحيتك أقصر .

اسمحي لى أن ألمسها . . . ألا يؤلمك ؟

— كلا ، لا يؤلمنى .

— وما السبب انك عندما تشد شعرة واحدة تشعر

بالألم وعندما تشد شعرا كثيرا لا تشعر أبدا بأى ألم ؟
ها—ها ! أتدرى ، خسارة أنك لا تطلق سؤالك . لو
حلقت هنا قليلا ، اما هنا ، من الجنبين ، فترك الشعر . . .

والتصق الصبى ببلياييف وراح يعبث بسلسلته . وقال :

— عندما أدخل المدرسة ستشترى لى ماما ساعة .

وسأطلب منها أن تشتري لى سلسلة مثل هذه . . . أوه ،

يا لها من مدلاة ! بابا عنده مدلاة مثلها بالضبط ، ولكن
عندك هنا خطوط أما هو فعنده حروف . . . وفى الوسط

- ليست حلقات ، بل شريطا . . .
- ومن أين عرفت ؟ هل تقابل بابا ؟
- أنا ؟ مم . . . لا ! أنا . . . لا
- أحمر أليوشا وراح يخدش المدلاة بظفره باهتمام وهو
فى ارتباك شديد من اكتشاف كذبه . وصدق بلياييف فى
وجهه مليا ثم سأله :
- هل تقابل بابا ؟
- لا . . . لا !
- لا ، خبرنى بصراحة . . . فأنا أرى من وجهك انك
تكذب . . . ما دمت قد ثرثرت فلا داعى اذن للمراوغة .
قل ، هل تراه ؟ خبرنى كأصدقاء .
- واستغرق أليوشا فى التفكير . ثم سأل :
- ألن تقول لماما ؟
- وهل هذا معقول !
- كلمة شرف ؟
- كلمة شرف .
- اقسم !
- أوه يا لك من صعب ! من تظننى ؟
- تلقت أليوشا حواليه ، واتسعت عيناه وقال هامسا :
- لكن استحلفك ألا تقول لماما . . . وعموما لا
تقل لأحد لأنه سر . لو عرفت ماما ، لا قدر الله ، فسيحل
العقاب بى وبسونيا وبيلاجيا . . . حسنا ، اسمع . أنا وسونيا
نقابل بابا كل ثلاثاء وجمعة ، عندما تصحبنا بيلاجيا للتنزه
قبل الغداء ، نذهب الى محل حلوى «أبفل» ، وهناك

يكون بابا فى انتظارنا . . . وهو دائما يجلس فى غرفة مستقلة ،
أتدرى ، تلك الغرفة التى بها طاولة مرمرية وطفاية على شكل
أوزة بدون ظهر . . .

— وماذا تفعلون هناك ؟

— لا شيء ! فى البداية نتبادل التحية ، ثم نجلس
جميعا الى الطاولة ويضيفنا بابا قهوة وشطائر . أتدرى ،
سونيا تأكل شطائر باللحم ، أما أنا فلا اطيق شطائر اللحم !
انا احب الشطائر بالكربن والبيض . ونأكل حتى الشبع ،
الى درجة اننا فيما بعد ، اثناء الغداء ، نحاول أن نأكل
أكثر حتى لا تلاحظ ماما أننا سبق أن أكلنا .

— وعم تتحدثون هناك ؟

— مع بابا ؟ عن كل شيء . وهو يقبلنا ويعانقنا ،
ويروى لنا مختلف النكات والحوادث المضحكة . أتدرى ،
انه يقول أننا عندما نكبر فسوف يأخذنا اليه . وسونيا لا
تريد ، أما أنا فموافق . بالطبع سأشتاق الى ماما ، ولكنى
سأكتب لها رسائل ! شيء غريب . . . سيكون بامكانى
أن أزورها فى الأعياد ، أليس كذلك ؟ ويقول بابا ايضا
انه سيشتري لى حصانا . شخص طيب جدا ! أنا لا
أدرى لماذا لا تدعوه ماما للعيش معنا وتحرم علينا مقابلته .
انه يحب ماما جدا . ودائما يسألنا عن صحتها وعما تفعله .
وعندما كانت مريضة امسك رأسه بيديه هكذا و . . . أخذ
يهول . . . ودائما يطلب منا أن نطيعها ونحترمها . اسمع ،
هل صحيح أننا تعساء ؟

— هم . . . ولماذا ؟

— بابا يقول هذا . يقول : أنتم أطفال تعساء .

غريب أن نسمع منه هذا الكلام . يقول : انتم نساء ،
وأنا تعيس ، وماما تعيسة . صلوا لله من أجلكم ومن
أجلها .

وتوقفت نظرة أليوشا على طائر محنط ، واستغرق في
التفكير .

وقال بلياييف بصوت كالخوار .
— هكذا . . . اذن فأنتم تعقدون المؤتمرات في محلات

الحلوى . وماما لا تعرف ؟
— لا . . . ومن أين تعرف ؟ بيلاجيا لا يمكن أن
تقول لها . وأول أمس ضيفنا بابا كمثرى . حلوة كالمربى !
أنا أكلت اثنتين .

— هم . . . وهذا . . . اسمع ، وبابا لا يقول عنى
شيئا ؟

— عنك ؟ ماذا أقول لك ؟
حذق أليوشا في وجه بلياييف متفحصا ثم هز كتفيه .
— لا يقول شيئا ذا بال .

— وتقريبا ، ماذا يقول ؟
— ألن تغضب ؟

— هل هذا معقول ! أهو يسبنى ؟
— لا يسبك ، ولكن ، أتدرى . . . غاضب عليك .

يقول ان ماما تعيسة بسبك ، وأنت . . . قضيت عليها .
انه كما تعلم غريب ! اننى أحاول ان افهمه انك طيب ،
ولا تصرخ فى ماما أبدا ، ولكنه فقط يهز رأسه .

— اذن فهو يقول أننى قضيت عليها ؟
— نعم ، لا تغضب يا نيقولاى ايليتش !

بعض بليائف ، ووقف قليلا ، ثم اُخذ يدرع غرفه
الجلوس .

ودمدم وهو يهز كتفيه ويتسم بسخرية .
— هذا غريب و . . . مضحك ! هو المذنب في
كل شيء ومع ذلك فأنا الذى قضيت عليها ، هه ؟ انظروا ،
يا له من حمل وديع . اذن فقد قال لك اننى قضيت
على أمك ؟

— نعم ، ولكن . . . لقد قلت انك لن تغضب !
— أنا لست غاضبا و . . . وليس هذا شأنك ! لا ،
هذا . . . ان هذا مضحك ! أنا الذى وقعت فى مطب ،
ثم اذا بى أنا المذنب !

ودق جرس الباب . فوثب الصبى من مكانه وانطلق
خارجا . وبعد دقيقة دخلت غرفة الجلوس سيدة ومعها طفلة
صغيرة . . . كانت تلك أولجا ايفانوفنا ، والدة أليوشا .
وتبعها أليوشا وهو يقفز ويغنى بصوت عال ويهز ذراعيه .
واوماً بليائف برأسه محييا ، ثم واصل سيره فى الغرفة .
ودمدم وهو يزفر :

— طبعا ، من غيرى الآن يمكن توجيه الاتهام
اليه ؟ انه محق ! انه زوج مهان !
فسألت أولجا ايفانوفنا :

— عم تتحدث ؟
— عم ؟ . . . اذن فلتسمعى المواعظ التى يلقيها زوجك
الموقر ! لقد ظهر أننى وغد وشرير ، قضيت عليك وعلى
الأولاد . كلكم تعساء ، وأنا السعيد الوحيد ! سعيد الى
درجة فظيعة ، فظيعة !

— أنا لا أفهم يا نيقولاى ! تحدث !
فقال بلياييف مشيرا الى أليوشا :
— فلتسمعى اذن هذا السنيور الصغير !
احمر اليوشا ، ثم امتقع فجأة ، وتقلص وجهه كله
من الفرع .

وهمس بصوت عال :
— نيقولاى ايليتش ! هس !
ونظرت أولجا ايفانوفنا بدهشة الى أليوشا ، ثم الى
بلياييف ، ثم الى اليوشا مرة أخرى .
واستطرد بلياييف يقول :
— هيا اسأليه ! خادمتك بيلاجيا ، هذه الحمقاء ،
تتردد على محلات الحلوى وترتب اللقاءات هناك مع الوالد
المحترم . ولكن ليست هذه هي القضية ، القضية هي
ان الوالد المحترم ضحية ، اما أنا فشرير ، سافل ، حطمت
حياتكم

فتأوه أليوشا :
— نيقولاى ايليتش ! لقد اعطيتنى كلمة شرف !
فأشاح بلياييف بيده :
— ايه ، دعنى ! الأمر الآن أهم من أية كلمات
شرف . ما يشير سخطى هو الرياء ، الكذب !
فقالت أولجا ايفانوفنا وقد ترقرت الدموع فى عينيها :
— أنا لا أفهم ! — وخاطبت ابنها : — اسمع يا
لولكا ، هل تقابل أباك ؟
بيد أن أليوشا لم يكن يصغى اليها بل كان يحدق
فى بلياييف بارتياح .

وقالت الأم :

— مستحيل ! سأذهب الى بيلاجيا واستجوبها .
وخرجت أولجا ايقانوفنا .

فقال اليوشا وبدنه كله يرتجف :

— اسمع ، ألم تعطينى كلمة شرف !

فأشاح بليايف نحوه بيده ومضى يذرع الغرفة . كان
مستغرقا في غضبه ولم يعد يلاحظ وجود الصبى كما في
السابق . لقد كان — وهو الرجل الجاد الكبير — في شغل
عن الصبيان . أما اليوشا فقد انزوى في الركن ، واخذ
يروى لسونيا بارتياح كيف خدع . كان يرتجف ويتلجلج ،
ويبكي ، . . . كانت تلك اول مرة في حياته يصطدم بالكذب
وجها لوجه ، وبهذه الفظاظه . لم يكن يعرف من قبل
انه يوجد في هذه الدنيا ، بالاضافة الى الكمثرى الحلوة
والشطائر والساعات الثمينة ، كثير من الأشياء الأخرى التي
لا أسماء لها في لغة الأطفال .

كلخاس

استيقظ الممثل الكوميدي فاسيلي فاسيليفتش سفيتلوفيدوف ، وهو عجوز ممتلئ الجسم ، قوى البدن ، فى الثامنة والخمسين من عمره ، وتطلع حوله بدهشة . فعلى جانبى مرآة صغيرة أمامه كانت تشتعل بقايا شمعتين . واضاء اللهب الثابت الكسول بوهن غرفة صغيرة بجدران خشبية مطلية معبأة بدخان السجائر وعتمة الغبش . وظهرت فى كل ما يحيط به آثار اللقاء القريب بين ديونيس وملبومينا * ، ذلك اللقاء الذى تم سرا ، ولكنه كان عاصفا وقيحا كالرذيلة . فعلى الأرض وفوق الكراسى تناثرت سترة وسروال ، وأوراق صحف ومعطف ذو بطانة زاهية وقبعة اسطوانية . وعمت الفوضى والاضطراب المائدة : فقد ازدحمت هنا وأختلطت الزجاجات الفارغة والاكواب ، وثلاثة اكاليل ، وعلبة سجائر مذهبة ، وحامل كوب ، وورقة يانصيب رابحة من سحب القرض الثانى مبللة الحافة ، وعلبة بدبوس ذهبى . وكان هذا الخليط المتناثر

* ديونيس — اله الخمر والمرح ، وملبومينا — ربة التراجيديا فى الاساطير الاغريقية . المغرب .

مغطى بسحاء باعصاب السجائر ورمادها ، وبقطع صغيرة من
رسالة ممزقة . أما سفيتلوفيدوف نفسه فكان جالسا فى كرسى
فوتيل وفى حلة كلخاس * . وقال الممثل الكوميدي وهو
يتطلع حوله :

— يا ربى ، اننى فى غرفة الملابس ! أما حكاية !
متى نعست يا ترى ؟

وأصاخ السمع . كان الصمت مطبقا كصمت القبور .
وذكرته علبة السجائر وورقة اليانصيب الرابعة على الفور بأن
اليوم كان يوم حفلة «البنيفيس» * ، وانه حظى بنجاح كبير ،
وانه شرب الكثير من الكونياك والبييد الأحمر فى فترات الاستراحة
مع محبيه الذين كانوا يقتحمون عليه غرفة الملابس .
وكرر تساؤله :

— متى نعست يا ترى ؟ آه ، يا لى من عجوز
مخرف ! ماذا ايها الكلب العجوز ! أل هذه الدرجة تسكر
حتى تنام جالسا فى المقعد ! شاطر !
وأحس الممثل الكوميدي بالمرح . انفجر فى ضحك
ثمل يتخلله السعال ، وتناول احدى الشمعتين ، وخرج من
غرفة الملابس . كانت خشبة المسرح خاوية ومظلمة . ومن
عمق الخشبة وجانيها ، ومن الصالة هب نسيم خفيف ولكنه

* الكاهن كلخاس — احدى شخصيات أوبريت «هيلينا الرائعة»
لأوفينباخ مقامر ، عرييد يعشق الذهب المعرب .
** حفلة يخصص ايرادها (او جزء منه) لصالح الممثل .
المعرب .

محسوس . كانت تيارات الهواء تجول كالأرواح فوق الحشبة
وهي تتصادم وتدوم وتداعب لهيب الشمعة . وتراقص اللهب
وتلوى في جميع الاتجاهات ملقيا ضوء ضعيفا تارة على
صف الأبواب المفضية الى غرف الملابس ، وتارة على
الكواليس الحمراء حيث كان ثمة دلو ، وتارة على اطار
كبير ملقى وسط الخشبة .

وصاح الممثل :

— يجوركا ، يجوركا ، ايها الشيطان ، بتروشكا !

نام الشياطين عليهم اللعنة ! يجوركا !

ورد الصدى :

— آ . . . آ . . . آ . . .

وتذكر الممثل أنه قد منح كلا من يجوركا وبتروشكا
ثلاثة روبلات ليشربا فودكا بمناسبة «البنيفيس» . ومن غير
المحتمل ، بعد هذه المنحة السخية ، ان يمكثا في المسرح
للمبيت .

تأوه الممثل وجلس على كرسى بلا مسند ، ووضع
الشمعة على الأرض . كان رأسه ثقيلًا ثملا ، وقد بدأت
الكمية الهائلة التي شربها من البيرة والنبيد والكونياك «تحترق»
لتوها في جسده كله ، وأحس بالضعف والخوار بسبب نومه
جالسا .

ودمدم وهو يبصق :

— سرية خيالة باتت في فمي . . . آه ، يالى من

عجوز أحرق ! ما كان يجب ان اشرب ! ما كان يجب !

ظهرى يؤلمنى ، ورأسى يكاد ينفجر ، وجسدى كله يرتجف . . .

انها الشيخوخة .

ونظر أمامه . . . كانت تلوح بالكاد كوشة الملقن
والمقصورات الخاصة وحاملات النوت الموسيقية ، أما الصلاة
كلها فكانت تبدو كحفرة سوداء بلا قرار ، كشدق مفغور
تطل منه ظلمة باردة صارمة . . . كانت الصلاة عادة متواضعة
مريحة ، الا انها بدت الآن ، ليلا ، عميقة بلا حدود ،
مقفرة كالقبر ، قاسية . . . وحديق الممثل فى الظلام ثم
فى الشمعة ومضى يقول بتذمر :

— نعم ، الشيخوخة . . . مهما لففت ودرت ، وتصنعت
الشجاعة ، ومهما تغايبت ، فقد بلغت الثامنة والخمسين . .
خلاص ! قل على الحياة السلام ! نعم يا فاسنكا * . . .
لقد خدمت على الخشبة ٣٥ سنة ، ولكنى فيما يبدو أرى
المسرح ليلا لأول مرة . . . يالها من مفارقة ، أى والله . . .
نعم ، لأول مرة ! شىء مرعب ، يا للشيطان ! . . —
وصاح وهو ينهض — يجوركا !

ورد الصدى :

— آ . . آ . . آ . .

ودوت مع الصدى فى وقت واحد أجراس صلاة الصبح
فى مكان بعيد ، وكأنما انبعثت من أعماق الشدق المفغور .
ورسم كلخاس علامة الصليب . ثم صاح :

— بتروشكا ! اين انتم ايها الشياطين ؟ يا الهى
لماذا اذكر اسم الشيطان ؟ دع عنك هذه الكلمات ، كف
عن الشراب فقد هرمت ، آن أن تموت ! فى الثامنة

* تدليل من الاسم الكامل فاسيلي . المعرب .

والخمسين يذهب الناس لصدارة الصبح ، يستعدون لمراقبة الموت . . . وأنت . . . أوه يا الهى !

ودمدم :

— الرحمة يارب ، هذا مرعب ! لو قضيت الليلة هنا بهذه الصورة فقد أموت من الخوف . هذا هو المكان الحقيقى لتحضير الارواح !

وازداد رعبا عند ذكر كلمة «الأرواح» . . . أثارت التيارات المتجولة وذبذبة البقع الضوئية خياله وألهبته الى أقصى درجة . . . فانكمش وضمر ، وانحنى ليلتقط الشمعة ، وللمرة الاخيرة تطلع خلصة وبخوف طفولى الى الحفرة المظلمة . كان وجهه الذى شوهه المكياج متبلدا خاليا من أى معنى تقريبا . وقبل ان تصل يده الى الشمعة قفز واقفا وحملق فى الظلام بنظرة جامدة . وقف صامتا حوالى نصف دقيقة ، ثم أمسك برأسه وخبط بقدميه وقد تملكه فرع غير عادى . . .

وصرخ الممثل بصوت حاد غير طبيعى :

— من أنت ؟ من أنت ؟

فى احدى المقصورات الخاصة وقف شبح بشرى أبيض . وعندما كان الضوء يسقط ناحيته يصبح من الممكن ان تميز فيه يدين ورأسا بل ولحية بيضاء .

وكرر الممثل بصوت يائس :

— من أنت ؟

رفع الشبح الأبيض ساقه وعبر حاجز المقصورة وقفز الى موضع الاوركسترا ، ثم سار نحو خشبة المسرح بلا صوت كالظل .

وتتم وهو يصعد الى الخشبة :

— انه انا !

فصرخ كلخاس وهو يتراجع :

— من ؟

— أنا . . أنا . . نكيثا ايفانيتش . . . الملغن . عفوا ،

لا داعى للقلق .

تهالك الممثل على المقعد خائر القوى وطأطأ رأسه .
كان يرتجف وقد افقده الرعب صوابه .

اقترب منه رجل طويل ، معروق ، أصلع ، بلحية
شيياء ، حافى القدمين وفى الملابس الداخلية فقط ، وقال :
— انه أنا ! انه انا ! الملغن .

فنطق الممثل وهو يمسح براحته على جبينه ويتنفس
بصعوبة :

— يا الهى . . . أهو انت يا نيكيتوشكا ؟ * . . لماذا . . .
لماذا أنت هنا ؟

— انا هنا أبيت فى المقصورة الخاصة . . . ليس
عندى مكان آخر للمبيت . . . لكن أرجوك ألا تقول لأليكسى
فوميتش .

— هذا أنت يا نيكيتوشكا . . . — دمد الممثل الخائر
مادا يده المرتعشة نحوه — يا الهى ، يا الهى ! . . . طلبونى
للظهور ست عشرة مرة ، وحملوا لى ثلاثة أكاليل وهدايا
كثيرة . . . كانوا جميعا معجبين ، ولكن لم يوقظ أحد العجوز
السكران ولم يحمله الى البيت . أنا عجوز يا نيكيتوشكا .

* تدليل من الاسم الكامل نكيثا . المعرب .

عمرى ٥٨ سنة . مريض ! روحى الضعيفه لتعذب .
وهمّ الممثل نحو الملقن وأطبق على يده وبدنه كله
يرتعش .

ودمدم وكأنما يهذى :
— لا تتركنى يا نيكيتوشكا . . . انا عجوز ، ضعيف . . .
على وشك الموت . . انا خائف !
فقال نيكيتوشكا برقة :
— آن لك ان تذهب الى البيت يا فاسيلي فاسيليتش !
— لن أذهب . لا بيت لى . كلا ، كلا !
— رحماك يارب ! لقد نسيت أين تسكن ؟
— لا أريد ان اذهب الى هناك ، لا أريد . . . —
دمدم الممثل فى لوعة . — هناك أنا وحيد . . ليس عندى
أحد يا نيكيتوشكا ، لا أهل ، ولا زوجة ، ولا أولاد . . .
وحيد كالريح فى الخلاء . . . لو مت فلن يذكرنى أحد .
انتقلت عدوى الرعشة من الممثل الى نيكيتوشكا . . .
كان العجوز الثمل المنفعل يهز يد الملقن وهو يعصرها بعصبية
ويلوثها بخليط المكياج والدموع . وانكمش نيكيتوشكا من
البرد وطوى كتفيه .

ودمدم كلخاس :
— انا خائف من وحدتى . . . ليس هناك من يلاطفنى
أو يعزىنى ، أو يضعنى ، انا الثمل ، فى الفراش . لمن
انا ؟ من بحاجة الى ؟ من يحبنى ؟ لا أحد يحبنى يا
نيكيتوشكا !

— الجمهور يحبك يا فاسيلي فاسيليتش !
— الجمهور انصرف ، وهو الآن نائم . . كلا ، لا

أحد بحاجة الى ، لا أحد يحبني . . . لازوجة لي ولا اطفال .
— يا سلام ، وجدت ما تأسف عليه .
— ولكنى انسان ، حتى . . . أنا نبيل يا نيكيتوشكا ،
من أصل كريم . . . قبل أن اسقط فى هذه الحفرة كنت
فى الخدمة العسكرية ، فى سلاح المدفعية . كنت
فتى وأى فتى ، كنت جميلا ، مندفعاً ، جريئاً . . . وأيّ
ممثّل كنت ، يا الهى ، يا الهى ! أين ذهب ذلك كله ،
اين ذلك العهد ؟

نهض الممثل معتمدا على يد الملقن ، وطرقت عيناه
بشدة كأنه خرج من الظلام الى غرفة ساطعة النور . وسالت
على خديه دموع غزيرة مخلفة خطوطاً من أصابع الماكياج . . .
واستطرد يهذى :

— يا له من عهد ! نظرت لتوى الى هذه الحفرة
فتذكرت كل شيء . . . كل شيء ! هذه الحفرة ابتلعت ٣٥
سنة من عمرى يا نيكيتوشكا ! انظر اليها الآن فأرى كل
شيء بأدق تفاصيله كما أرى وجهك ! . . اذكر عندما
كنت ممثلاً شاباً ، وبدأت تملكنى وقدة الحماس ، احببتنى
احداهن لأدائى . . . كانت جميلة ، رشيقة كشجرة حور ،
فتية ، بريئة ، ذكية ، حارة كفجر صيفى ! كنت على
يقين من أنه لو اختفت الشمس من السماء فستبقى الارض
رغم ذلك منيرة ، لأنه ما كان بوسع أي ظلام أن يصمد
أمامها !

كان كلخاس يتحدث بحرارة وهو يهز رأسه ويده . . .
وأمامه وقف نيكيتوشكا يصغى اليه حافيا وفى ملابسه الداخلية
فقط . ولفهما كليهما الظلام الذى لم يكن ضوء الشمعة

الواهن قادرا على تبديده . . . كان ذلك مشهدا غريبا ، حزين

عادي ، لم ير مثله أى مسرح فى العالم ، ولم يكن
هناك من مشاهدين سوى الحفرة السوداء الصماء . . .

ومضى كلخاس يقول مختنقا :

— لقد أحبتنى ، ثم ماذا ؟ اذكر وقفتى أمامها كما
أقف أمامك الآن . . . كانت رائعة فى تلك المرة كما لم
تكن أبدا من قبل ، وكانت تنظر الىّ بعينين لن أنساها حتى
الممات ! الرقة ، المخمل ، بريق الشباب ، العمق !
كنت ثملا بالنشوة ، سعيدا ، فجثوت أمامها على ركبتى
سائلا السعادة . . .

التقط الممثل انفاسه وقال بصوت خائر :

— قالت لى : اترك المسرح ! هل تفهم ؟ كانت
تستطيع أن تحب ممثلا ، أما ان تصبح زوجته فلا ،
مستحيل ! اذكر اننى فى ذلك اليوم كنت أمثل ال . . .
كان دورا حقيرا ، دور مهرج . وكنت أمثل بينما احشائى
تتمزق أسى وقلقا . . . لم اهجر المسرح ، كلا ، ولكن
الحقيقة تكشفت لى آنذاك ! . . ادركت انى عبد ، لعبة فى
أيدى أناس فارغى البال ، وانه ليس هناك فن مقدس ،
بل كل ذلك هذيان وخداع . فهمت ما هو الجمهور !
ومنذ ذلك الوقت لم أعد أصدق التصفيق أو الأكاليل أو
الاعجاب ! نعم يا أخى ! المتفرج يصفق لى ، ويشترى
صورتى بروبل ، ومع ذلك فأنا غريب بالنسبة له ، أنا
عنده قذارة ، غانية تقريبا ! وهو يريد التعرف بى ارضاء
لغوره ، لكنه لن يهين نفسه بتزويجى أخته أو ابنته !
أنا لا أصدق ، امقته ، انه غريب بالنسبة لى !

فقال الملقن بوجل :

— آن لك ان تعود الى البيت .

فصاح كلخاس مهددا الحفرة السوداء بقبضته :

— افهمهم تمام الفهم ! . . . من يومها فهمت . . .

سقطت الغشاوة عن عيني شابا فرأيت الحقيقة . . . ودفعت

ثمن هذه الصحوة غاليا يا نيكييتوشكا . . . اصبحت بعد

تلك الواقعة ، بعد تلك الفتاة ، اصبحت أهيم بلا معنى ،

أعيش دون جدوى ، ولا أنظر للمستقبل . . . لعبت أدوار

المهرجين ، وسخرت ، وأفسدت العقول . . . ابتذلت لسانی

وشوهرته ، أضعت نفسي وكرامتي . . . ايه ، ايه ! التهمتني

هذه الحفرة . لم أشعر بذلك قبلا ، أما اليوم . . . عندما

استيقظت ، نظرت الى الوراء ، فاذا ورائي ٥٨ سنة !

الآن فقط أحسست بالشيخوخة ! ضاع العمر !

وظل كلخاس يرتعش ويختنق . . . وبعد ذلك بفترة ،

عندما قاده نيكييتوشكا الى غرفة الملابس وراح يتزع عنه

ملابسه ، تداعى كلخاس ونحار ، لكنه لم يكف عن الدمدمة

والبكاء .

الخطيب

ذات صباح رائع جرى دفن المساعد الاعتبارى كيريل
ايفانوفتش فافيلونوف ، الذى توفى من جراء مرضين جد
منتشرين فى بلادنا : الزوجة الشريرة ، وادمان الخمر .
وعندما تحرك موكب الجنازة من الكنيسة الى المقابر ، استقل
أحد زملاء المتوفى ، المدعو بوبلافسكى ، عربة وانطلق
الى صديقه جريجورى بتروفتش زابويكين ، وهو رجل شاب
ولكنه مشهور الى حد كبير . وزابويكين ، كما يعرف كثير
من القراء ، رجل ذو موهبة نادرة فى ارتجال خطب الزفاف
والمناسبات اليوبيلية والتأبين . وبوسعه ان يخطب فى أى
وقت : اثر الاستيقاظ مباشرة ، وعلى الريق ، وفى حالة
السكر الفظيع ، وأثناء الحمى . وينساب كلامه ناعما ،
سلسا كما يسيل الماء من ميزاب ، وغزيرا . وفى قاموسه
الخطابى من كلمات الرثاء أكثر مما فى أية حانة من صراصير.
وخطبه دائما فصيحة ، طويلة حتى انهم احيانا ، وخاصة
فى أعراس التجار ، يضطرون للجوء الى الشرطة لايقافه عن
الكلام .

وقال بوبلافسكى عندما وجده فى البيت :
— اننى اقصدك يا أخى ! البس بسرعة وهيا بنا .

لقد توفي احد زملائنا ، والان نشيعه الى العالم الآخر ،
ومطلوب يا أخى ان تقول فى وداعه بعض الهراء . . . الأمل
كله فيك . لو كان المتوفى من صغار الموظفين لما أزعجناك ،
ولكنه سكرتير . . . يعنى من أعمدة الادارة . ومن غير اللائق
أن ندفن هذا الرأس الكبير بدون خطبة .

فقال زابويكين متثابا :

— آه ، السكرتير ! أهو ذلك السكير ؟

— نعم ، السكير . ستكون هناك شطائر ومزات . . .
وستمنح أجرة العربة . هيا يا عزيزى ! فلتلق على قبره
خطبة عصماء أفصح من خطب شيشرون ، وستلقى كل
الشكر !

وافق زابويكين عن طيب خاطر . نكش شعره ،
وأضفى على وجهه سيماء الكآبة وخرج مع بوبلافسكى .
وقال وهما يجلسان فى العربة :

— أعرف سكرتيركم هذا . قلَّ أن تجد أفاقا وشيطانا
مثله ، عليه الرحمة .

— لا يصح يا جريشا أن تشتم الموتى .

— أنت محق ، طبعاً aut mortuis nihil bene*

ولكنه مع ذلك محتال .

لحق الصديقان بركب الجنازة وانضما اليه . وكانوا

* تعبير محرف عن اللاتينية ومعناه هنا «لا يذكر الموتى

الا بسوء» وأصله فى اللاتينية de mortuis aut bene aut nihil

ومعناه «اما ان تذكر الموتى بالحسنى او لا تذكرهم بشيء» . المعرب .

يحملون المتوفى ويسرون به ببطء فتمكن الصديقان قبل بلوغ المقابر من أن يعرجا ثلاث مرات على الحانات ويشربا في ذكرى المرحوم .

واقامت صلاة الميت في المقابر . وجريا على العادة بكت زوجته وأختها وحماته كثيرا . وعندما انزل التابوت الى القبر صاحت زوجته «ادفوني معه !» لكنها لم تنزل الى القبر وراء زوجها ربما لأنها تذكرت المعاش . وانتظر زابويكين حتى عمّ الهدوء ، ثم تقدم الى الأمام ، وطاف على الحاضرين بنظراته ، وقال :

— هل نصدق سمعنا وأبصارنا ؟ أليس حلما رهيبا هذا التابوت وهذه الأوجه الباكية ، وهذا الأنين والنحيب ؟ يا للحسرة ، هذا ليس حلما ، وأبصارنا لا تخدعنا ! ان ذلك الذى رأيناه منذ وقت قريب مكتمل الصحة ، فى أوج شبابه وبهائه ونضارته ، ذلك الذى رأيناه منذ وقت قريب يضع ، كالنحلة ، عسله فى الخلية العامة لبناء الدولة ، ذلك الذى . . . هو بعينه أصبح الآن ترابا ، أصبح سرايا ماديا . لقد أطبقت عليه قبضة الموت الذى لا يرحم عندما كان ، رغم عمره المتأخر ، مفعما بالقوة المتأججة والأحلام المشرقة . فيالها من خسارة لا تعوض ! من ذا الذى يعوضنا عنه ؟ لدينا الكثير من الموظفين الممتازين ، ولكن بروكوفى أوسيبوفتش كان الوحيد بينهم . لقد كان مخلصا من صميم قلبه لواجبه الشريف ، ولم يرحم نفسه ، لم ينم الليل ، وكان مثلا للتفانى والنزاهة . . . كم كان يحتقر أولئك الذين يحاولون رشوته على حساب المصلحة العامة ، أولئك الذين حاولوا بخيرات الحياة المغرية دفعه الى خيانة

واجبه ! نعم ، لقد راينا باعيننا كيف كان بروكوفى أوسيبوفتش
يوزع راتبه الصغير على رفاقه المعوزين ، وها قد سمعتم الآن
عويل الأرامل واليتامى الذين كانوا يعيشون على حسناته .
لقد كان مخلصا لواجبه الوظيفى ولأعمال الخير فلم يذق
ملذات الدنيا ، بل حرم نفسه حتى من سعادة الحياة العائلية .
فأنتم تعرفون انه ظل عازبا حتى آخر ايام عمره ! ومن
ذا الذى يعوضنا عنه رفيقا ؟ كأنى أرى الآن وجهه الحليق
البشوش الذى يهل علينا بابتسامة طيبة ، وكأنى أسمع الآن
صوته الناعم الودود الرقيق . طيب الله ثراك يا بروكوفى
أوسيبوفتش ! فلتنعم بالسكينة أيها الكادح الشريف النبيل !
ومضى زابويكين يخطب بينما أخذ المستمعون يتوششون .
أعجب الجميع بالخطبة ، التى استدرت بعض الدموع ،
ولكن الكثير فيها بدا لهم غريبا . فأولا : لم يكن مفهوما
لماذا دعا الخطيب المرحوم باسم بروكوفى أوسيبوفتش بينما
كان اسمه كيريل ايفانوفتش . وثانيا : كان الجميع يعرفون
ان المرحوم ظل طوال حياته يصارع زوجته الشرعية ، وبالتالي
فلا يمكن ان يكون عازبا . وثالثا : فقد كانت لديه لحية
غزيرة حمراء ، ولم يحلق ذقنه قط ، ولذا فلم يكن مفهوما
لماذا وصف الخطيب وجهه بالحليق . أبدى السامعون استغرابهم
وتبادلوا النظرات ، وهزوا اكتافهم .
ومضى الخطيب يقول بحماس وهو ينظر فى القبر :
— يا بروكوفى أوسيبوفتش ! لم يكن وجهك جميلا ،
بل حتى كان قبيحا ، متجهما صارما ، ولكننا كنا نعرف
جميعا ان هناك ، تحت هذه القشرة الظاهرة ، ينبض
قلب شريف ودود !

وسرعان ما بدأ السامعون يلاحظون شيئاً غريباً على
الخطيب نفسه . فقد ثبت بصره على نقطة واحدة ، ثم
أخذ يتململ بقلق ، وراح يهز كتفيه . وفجأة صمت ،
وفغر فاه بدهشة ، والتفت الى بوبلافسكى .

وقال وهو ينظر برعب :

— اسمع ، انه حيّ !

— من الحيّ ؟

— بروكوفى أوسيبوفتش ! ها هو يقف هناك بجوار

التمثال !

— انه لم يمت أصلا ! كيريل ايفانيتش هو الذى

مات !

— ألم تقل لى أن سكرتيركم مات ؟

— كيريل ايفانيتش كان سكرتيرا . يا لك من مضحك ،

لقد خلطت الأمور ! صحيح أن بروكوفى أوسيبوفتش كان
سكرتيرا ولكنه نقل منذ عامين الى القسم الثانى رئيس قلم .

— آه ، الشيطان وحده يفهمكم !

— وما لك توقفت ، أكمل ، لا تخرجنا !

والتفت زابويكين نحو القبر وواصل حديثه المنقطع بنفس

البلاغة السابقة . وبالفعل كان بروكوفى اوسيبوفتش ، وهو
موظف عجوز ، بوجه حليق ، يقف بجوار التمثال . وكان
يتطلع الى الخطيب وقد قطب حاجبيه بغضب .

وضحك الموظفون اثناء عودتهم من المقابر مع زابويكين :

— ما الذى دهاك ؟ تدفن شخصا حيا !

ودمدم بروكوفى اوسيبوفتش :

— عيب عليك ايها الشاب ! ربما كانت خطبتك

مناسبة للمرحوم ، ولكنها محض سخرية بالنسبة لشخص
حى ! ما هذا الذى قلته ؟ متفان ، نزيه ، لا يقبض
رشاوى ! هذا الكلام عن شخص حى ليس الا سخرية !
كما ان احدا لم يطلب منك يا سيدى أن تفيض فى
وصف وجهى . غير جميل ، قبيح ، فليكن ، ولكن ما
الداعى لعرض وجهى فرجة امام الجميع ؟ هذا مهين !

تحفة فنية

تصنع ساشا سميرنوف ، وحيد أمه ، الحزن وهو يدلف الى عيادة الدكتور كوشيلكوف وقد وضع تحت ابطه شيئا ملفوفا فى العدد ٢٢٣ من جريدة «اخبار البورصة» .

واستقبله الدكتور قائلا :

— أهلا بالفتى العزيز ! حسنا ، كيف صحتنا ؟ ماذا

لديك من اخبار طيبة ؟

طرف ساشا بعينه ، ووضع يده على قلبه وقال بصوت

منفعل :

— ماما تبلغكم تحياتها يا ايفان نيقولايفتش ، وطلبت

منى أن اشكركم . . . انا وحيد أمى ، وانتم انقذتم حياتى . . .

شفيتمنى من مرض خطير و . . . ولا نعرف كيف نشكركم . . .

فقاطعه الدكتور وهو يسترخى من السرور :

— كفى يا فتى . انا لم أفعل الا ما كان يجب

أن يفعله أى شخص آخر لو كان مكانى .

— أنا وحيد أمى . . . ونحن فقراء ، ولا نستطيع

بالطبع ان نكافئكم على تعبكم و . . . نحن فى غاية الخجل

يا دكتور ، وان كنا ، ماما وانا . . . وحيد أمى ، نرجوكم رجاء

حارا ان تقبلوا منا ، رمزا لامتناننا . . . هذه الهدية التى . . .

انها تحفة ثمينة ، من البرونز القديم . . . تحفة فنية نادرة .
فامتعض الدكتور :
— لا لزوم لذلك ! ما الداعى ؟
فمضى ساشا يدمدم وهو يفك اللفة :
— لا ، أرجوكم ، لا ترفضوها . ان رفضكم سيكون
اهانة لى ولماما . . . انها قطعة ممتازة . . . من البرونز القديم .
تركها لنا المرحوم بابا فاحتفظنا بها كذكرى غالية . . . كان
بابا يشتري التحف البرونزية القديمة ويبيعها للهواة . . . والآن
نزاول ماما وأنا نفس الشيء . . .

فك ساشا اللفة ووضع التحفة على الطاولة بحفاوة .
كانت شمعدانا متوسط الارتفاع ، من البرونز القديم ، مصاغا
بصورة فنية . وكان يصور مجموعة : فعلى القاعدة وقف جسدان
نسائيان فى لباس حواء وفى وضع لا تكفينى لوصفه لا
الشجاعة ولا الحمية الكافية . كان الجسدان يتسمان بدلال ،
وكان يلوح من منظرهما ، انه لولا ما ألقى عليهما من
مسئولية رفع الشمعدان لقفزا من القاعدة وعربدا فى الغرفة
بصورة لا يليق حتى التفكير فيها ايها القارئ .

وبعد ان تأمل الدكتور الهدية ، حك خلف أذنه ببطء ،
وتنحنح ، ثم تمخط بتردد . ودمدم :

— نعم ، تحفة رائعة فعلا ، ولكنها . . . كيف أقول . .
ليست يعنى . . . غير أدبية ابدا . . . ليس هذا حتى ديكولتيه ،
بل الشيطان يعلم ما هذا . . .

— ماذا تقصد ، لماذا ؟

— شيطان الغواية نفسه لا يستطيع أن يبتكر شيئا
أفزع من هذا . ان وضع هذا الهراء على الطاولة معناه

تدنيس الشقة كلها .

فقال ساشا غاضبا :

— ما أغرب نظرتك الى الفن يا دكتور . انها تحفة
فنية ، انظر جيدا ! فيها من الجمال والرشاقة ما يملأ
النفس بمشاعر الرهبة ، ويدفع الى الحلق بغصة البكاء !
وعندما ترى هذا الجمال تنسى كل ما هو دنيوى . . . انظر
أية حركات ، وأية شفافية وأية قوة تعبيرية !
فقاطعه الدكتور قائلا :

— أعرف كل ذلك جيدا يا عزيزى ، ولكنى رجل
متزوج ، وأولادى يلعبون هنا ، وتزورنا سيدات محترمات .
فقال ساشا :

— طبعا اذا نظرنا من وجهة نظر الغوغاء ، فان هذه
التحفة الفنية السامية ستبدو لنا بالطبع بصورة مختلفة . . .
ولكن يا دكتور ، فلتعل فوق مستوى الغوغاء ، خاصة وأن
رفضك للهدية سيحزننى وماما كثيرا . انا وحيد أُمى . . وقد
أنقذت حياتى . . . اننا نهديك أعز شيء علينا . . . و . . .
ولا يؤسفنى الا انه لا يوجد لديك شمعدان مماثل ليناسب
هذا الشمعدان . . .

— شكرا يا عزيزى ، انا ممتن جدا . . بلغ تحياتى
لماما ، ولكن فى الحقيقة . . انظر بنفسك . . الأولاد يلعبون
هنا ، وتزورنا سيدات محترمات . . على العموم دعها ،
فلتبق ! فلن تفهم مهما شرحت لك .
فقال ساشا مسرورا :

— لا داعى لأى شرح . ضع الشمعدان هنا ،
بجوار المزهرية . من المؤسف انه لا يوجد شمعدان مماثل !

مؤسف جدا ! حسنا ، وداعا يا دكتور .
وبعد انصراف ساشا ظل الدكتور يحدق طويلا في
الشمعدان ، ثم حك خلف اذنه ومضى يفكر .
وقال لنفسه : «تحفة رائعة ، لا شك في هذا ،
يعز عليّ أن أرميها . . . كما ان الاحتفاظ بها مستحيل .
هم ! . . . يا لها من مسألة محيرة ! ترى لمن يمكن
اهدائها او التبرع بها ؟»
وبعد تفكير طويل تذكر صديقه الطيب ، المحامي
أوخوف ، الذي كان مدينا له بأتعاب قضية .
فقرر الدكتور :

— ممتاز ! انه محرج كصديق من أن يتقاضى مني
أجرا ، وسيكون من اللائق تماما لو أهديته هذه التحفة .
فلأحمل اليه هذه المصيبة ! وبالمناسبة فهو أعزب وأرعن . . .
ومضى الدكتور بلا تسويف فارتدى ملابسه ، وأخذ
الشمعدان ورحل الى أوخوف .

وجد المحامي في البيت فحياء :
— مرحبا يا صديقي ! ها قد جئتك . . لكى اشكرك
يا أخى على مجهوداتك . . . اذا لم تكن تريد ان تأخذ
منى نقودا ، فلتأخذ على الأقل هذه التحفة . . . انها يا
أخى تحفة فخمة !
وحيثما رأى المحامي التحفة تملكه اعجاب لا يوصف .
وقال وهو يقهقه :

— يا لها من تحفة ! يا للملاعين ، انظر كيف
يبتكر هؤلاء الشياطين اشياء كهذه ! رائعة ! خلاصة ! من
أين حصلت على هذه الفتنة ؟

وبعد ان سكب المحامى اعجابه نظر الى الباب بخوف
وقال :

— ولكن احمل يا أخى هديتك من هنا . لن آخذها . . .
فسأل الدكتور بذعر :

— ولماذا ؟

— هكذا . . . والدتى تأتى الى هنا ، والزبائن . . .
بل حتى الخدم سأشعر بالحرَج أمامهم .
فأشاح الدكتور بيديه :

— لا يمكن ، ابدا ! . . . اياك أن تجرؤ على
رفضها ! سيكون ذلك خسة من جانبك ! هذه تحفة
فنية . . . انظر أية حركات . . . اية قوة تعبيرية . . . انا لا
أقبل أى نقاش ! سأغضب منك !
— لو أنها كانت مدهونة ، أو مستورة بأوراق

التوت . . .

ولكن الدكتور اشاح بيديه أكثر ، وانطلق راكضا من
شقة أوخوف ، ومضى الى البيت سعيدا بأنه أفلح فى التخلص
من الهدية . . .

وبعد خروجه تفحص المحامى الشمعدان وتحسسه بأصابعه
من جميع الجوانب ، وراح مثل الدكتور يفكر طويلا فيما
يفعله بهذه الهدية .

وقال لنفسه : «انها تحفة رائعة ، يعز على أن أرميها ،
كما ان الاحتفاظ بها لا يليق . أحسن شيء أن أهديها
لأحد ما . . . نعم ، فلأحمل هذا الشمعدان مساء اليوم
الى الممثل الكوميدي شاشكين . هذا اللئيم يحب امثال
هذه الاشياء ، وبالمناسبة ، فاليوم حفلته «البنيفيس» . .

وهذا ما كان . ففى المساء قدم الشمعدان الملفوف
بعناية الى الممثل شاشكين . وتعرضت غرفة الملابس الخاصة
بالممثل طوال المساء لهجوم الرجال الذين جاءوا للتفرج
على الهدية . وتردد فى الغرفة طوال الوقت هدير الاعجاب
والضحكات الشبيهة بصهيل الخيل . وعندما كانت احدى
الممثلات تقترب من باب الغرفة وتسال : «هل استطيع
ان أدخل» ، تسمع على الفور صوت الممثل الأبح :

— كلا ، كلا يا عزيزتى ! لم البس بعد !
وبعد الحفل هز الممثل كتفيه واشاح بيديه وقال :
— حسنا ، وماذا أفعل بهذه النجاسة ؟ اننى اسكن
شقة مؤجرة ! والممثلات يزرننى ! وليست هذه صورة بحيث
يمكن اخفاؤها فى درج المكتب !

وقال له الحلاق وهو يزيل عنه المكياج :
— بعها يا سيدى . . توجد هنا فى الضاحية سيدة
عجوز تشتري البرونز القديم . . . اذهب الى هناك واسأل عن
سميرنوف . . . الجميع يعرفونها .

واتبع الممثل النصيحة . . . وبعد يومين كان الدكتور
كوشيلكوف جالسا فى عيادته وقد وضع اصبعه على جبينه
وهو يفكر فى الأحماض الصفراوية . وفجأة فتح باب الغرفة
واندفع ساشا سميرنوف داخلا . كان يتسم متهللا ، وقد
طفحت هيئته كلها بالسعادة . . . وكان فى يده شئ
ملفوف .

وقال وهو يكاد يختنق :
— يا دكتور ! تصور مدى فرحتى ! لحسن حظك
استطعنا ان نحصل على شمعدان مماثل لشمعدانكم ! . .

ماما فى غاية السعادة . . . انا وحيد ماما . . . لقد انقذت
حياتى . . .

ووضع ساشا الشمعدان امام الدكتور وهو يرتجف من
الفرحة . وفغر الدكتور فمه ، واراد ان يقول شيئا ما ولكنه
لم ينبس بشيء . . . اذ فقد النطق .

١٨٨٦

فانكا

فى ليلة عيد الميلاد لم ينم الصبى فانكا جوكوف
ابن الاعوام التسعة والذى اعطوه منذ ثلاثة اشهر للاسكافى
ألياخين ليعمل صبيا لديه . وانتظر حتى انصرف اصحاب
البيت والاسطوات الى الصلاة فأخرج من صوان الاسكافى
محبرة وقلما بسن صدى ، وفرش أمامه ورقة مجمدة وراح
يكتب . وقبل ان يخط اول حرف نظر الى الباب والنوافذ
بحذر ، وتطلع بطرف عينه الى الأيقونة الداكنة التى امتدت
عن جانبيها أرفف محملة بالنعال ، وزفر زفيرا متقطعا .
كانت الورقة مبسوطة على الارىكة ، اما هو فقد جثا على
ركبتيه امامها . وكتب :

«جدي العزيز قسطنطين مكاريتش ! انا اكتب اليك
خطابا . اهنتكم بعيد الميلاد وارجو لك من الله كل الخير .
انا ليس لديّ أب او أم ، ولم يبق لي غيرك وحدك» .
وحول فانكا بصره الى النافذة المظلمة التى عكست
ضوء شمعته المتذبذب ، وتخيل بوضوح جده قسطنطين
مكاريتش الذى يعمل حارسا ليليا لدى السادة آل جيفارف .
هو عجوز صغير نحيل الا انه خفيف الحركة بصورة غير
عادية ، فى حوالى الخامسة والستين ، ذو وجه باسم دائما



وعينين ثملتين . كان نهارا ينام فى مطبخ الخدم أو يثرثر مع الطاهيات ، أما فى الليل فيطوف حول بيت السادة متدثرا بمعطف فضفاض من جلد الحمل ويدق على صفيحة . ومن خلفه يسير مطأطأى الرأسين الكلبة العجوز «كاشتانكا» ، والكلب «فيون» الذى سمي هكذا للونه الاسود وجسده الطويل كالنمس . كان هذا الـ«فيون» مهذبا ورقيقا بصورة غير عادية ، وكان ينظر بنفس الدرجة من التأثر سواء لأصحابه أم للغرباء ، ولكنه لم يكن يحظى بالثقة . كان يخفى تحت تهذيبه واستكانته خبثا غادرا الى اقصى حد . فلم يكن هناك من هو أحسن منه فى التلصص فى الوقت المناسب ليعض الساق ، أو التسلل الى المخزن ، أو سرقة دجاجة من بيت فلاح . وقد حطموا له ساقيه الخلفيتين غير مرة ، وعلقوه مرتين ، وكانوا يضربونه كل اسبوع حتى الموت ، ولكنه كان يبعث من جديد .

وربما يقف الجد الآن امام البوابة ويزر عينيه وهو يتطلع الى نوافذ كنيسة القرية الساطعة الحمرة ، ويثرثر مع الخدم وهو يدق الارض بحذائه اللباد . والصفيحة التى يدق عليها معلقة الى خصره . ويشيح بيديه ثم يتململ من البرد ، ويضحك ضحكة عجوز ويقرص الخادم تارة والطاهية تارة اخرى .

ويقول وهو يقدم للفلاحات كيس تبغه :

— ألا ترغبين فى استنشاق التبغ ؟

وتستنشق الفلاحات ويعطسن ، ويستولي على الجد

اعجاب لا يوصف ويقهقه بمرح ويصيح :

— بقوة والا لزقت !

ويقدمون التبغ للكلاب لتشمه . وتعطس «كاشتانكا» ،
وتلوى بوزها ، وتبتعد مغضبة . اما «فيون» فلا يعطس تأدباً ،
بل يهز ذيله . والجو رائع . الهواء هادئ وشفاف ومنعش .
والليل حالك ومع ذلك تلوح القرية كلها بأسقف منازلها
البيضاء واعمدة الدخان المنبعثة من المداخن ، والاشجار
وقد كساها الثلج ثوبا فضيا ، واكوام الثلج . والسماء كلها
مرصعة بنجوم تتراقص بمرح ، ويبدو درب التبانة واضحا
وكأنما غسلوه قبل العيد ودعكوه بالثلج . . .
وتنهذ فانكا ، وغمس الريشة في الحبر ومضى يكتب :
«بالأمس ضربوني علة . شدني المعلم من شعري
الى الحوش وضربني بقالب الاحذية لأنني كنت أهز ابنه
فى المهد فنعت غصبا عنى . وفى هذا الاسبوع أمرتنى
المعلمة ان أقشر فسيخة ، فبدأت اقشرها من ذيلها ،
فشدت منى الفسيخة وأخذت تحك رأسها فى وجهى .
والاسطوات يسخرون منى ويرسلوننى الى الخمارة لشراء الفودكا
ويأمروننى ان أسرق الخيار من بيت المعلم ، والمعلم يضربنى
بكل ما يقع فى يده . وليس هناك أى طعام . فى الصباح
يعطوننى خبزاً ، وفى الغداء عصيدة ، وفى المساء أيضا
خبزا ، أما الشاي أو الحساء فالسادة وحدهم يشربونه .
ويأمروننى أن أنام فى المدخل ، وعندما يبكي ابنهم لا
أنام أبدا وأهز المهد . يا جدي العزيز ، اعمل معروفا لله
وخذني من هنا الى البيت فى القرية . لم أعد احتمل
ابدا . . . اتوسل اليك وسوف اصلى لله دائما ، خذني من
هنا والا سأموت . . .»

وقلص فانكا شفثيه ومسح عينيه بقبضته السوداء وأجهش .

ومضى يكتب : «سأطحن لك التبغ ، وأصلي لله ،
وإذا بدر مني شيء اضربني كما يضرب الكلب . وإذا كنت
تظن انه ليس لى عمل فسأرجو الخولي بحق المسيح ان
يأخذني ولو لتنظيف حذائه ، او أعمل راعيا بدلا من فيدكا .
يا جدي العزيز ، لم أعد احتمل ابدا ، لا شيء سوى
الموت . أردت أن اهرب الى القرية ماشيا ولكن ليس لدي
حذاء واخشى الصقيع . وعندما أصبح كبيرا فسوف اطعمك
مقابل هذا ولن أسمح لأحد أن يمسك ، وإذا مُتَّ يا
جدي فسأصلي من أجل روحك كما أصلي من أجل أمي
بيلاجيا .

وموسكو مدينة كبيرة . والبيوت كلها بيوت اكابر ،
والخيول كثيرة ، وليس هناك غنم ، والكلاب ليست شريرة .
والأولاد فى العيد لا يطوفون بالبيوت منشدين ولا يسمح
لأحد بالذهاب للترتيل فى الكنيسة . ومرة رأيت فى أحد
الدكاكين ، فى الشباك ، صنانير تباع بخيوطها لصيد كل
أنواع السمك ، عظيمة جدا ، بل وتوجد صنارة تتحمل
قرموطا وزنه بود * . ورأيت دكاكين فيها مختلف انواع البنادق
التي تشبه بنادق السادة ، ويمكن الواحدة منها تساوى مائة
روبل . . . وفى دكاكين اللحوم يوجد دجاج الغابة وأرانب ،
ولكن الباعة لا يقولون اين يصطادونها .

يا جدى العزيز ، عندما يقيم السادة شجرة عيد الميلاد
خذ لى جوزة مذهبة وخبئها فى الصندوق . قل للآنسة اولجا
اجناتيفنا انها من اجل فانكا» .

* البود — وحدة وزن روسية تساوى ١٦,٣٨ كيلوجراما . المغرب .

وتنهذ فانكا وسمر عينيه فى النافذة من جديد . وتذكر
ان جده كان دائما يذهب للغابة لاحضار شجرة عيد الميلاد
ويصحب معه حفيده . ياله من عهد سعيد ! كان الجد
يتنحنج والثلج يتنحنج وفانكا يتنحنج مثلهما . وكان يحدث
ان الجد ، قبل ان يقطع الشجرة ، يجلس ليدخن الغليون ،
ويشم التبغ طويلا وهو يضحك من فانكا المقرور . . وشجيرات
عيد الميلاد الشابة تقف ملفعة بالثلج وساكنة وهى تنتظر
ايها التى ستموت ؟ وفجأة يمرق أرنب كالسهم عبر اكوام
الثلج . . . ولا يستطيع الجد ان يمسك نفسه عن الصياح :
— امسك ، امسك . . . امسك ! آه ، يا شيطان
يا ملعون !

ثم يسحب الجد الشجرة المقطوعة الى منزل السادة ،
حيث يشرعون فى تزيينها . . . وكانت الآنسة اولجا اجناتيفنا
التى يحبها فانكا ، هى التى تنشغل اكثر الجميع . وعندما
كانت أم فانكا بيلاجيا على قيد الحياة وتعمل خادما لدى
السادة ، كانت اولجا اجناتيفنا تعطى لفانكا الحلوى ، ولما
لم يكن لديها ما تعمله فقد علمته القراءة والكتابة والعد
حتى مائة ، بل وحتى رقصة الكادريل . ولما ماتت بيلاجيا ،
ارسلوا فانكا اليتيم الى جده فى المطبخ مع الخدم ، ومن
المطبخ الى موسكو عند الاسكافي ألياخين . . .
ومضى فانكا يكتب : «احضر يا جدي العزيز .
استحلفك بالمسيح الرب ان تأخذني من هنا . اشفق عليّ
انا اليتيم المسكين ، لأن الجميع يضربونني ، وأنا جوعان
جدا ، ولا أستطيع ان اصف لك وحشتي ، وأبكي طول
الوقت . ومن مدة ضربني المعلم بالنعل على رأسي حتى

وقعت ولم أفق الا بالعافية . ما أضيع حياتي ، اسوأ من
حياة أي كلب تحياتي لأليونا ويجوركا الأحول ، والحوذى ،
ولا تعط الهارمونيكا لأحد . حفيدك دائما ايفان جوكوف ،
احضر يا جدي العزيز» .

وطوى فانكا الورقة المكتوبة اربع مرات ووضعها في
مظروف كان قد اشتراه من قبل بكوبيك وفكر قليلا
ثم غمس الريشة وكتب العنوان :

الى قرية جدى

وحك رأسه وفكر ، ثم اضاف : «قسطنطين مكاريتش» .
وارتدى غطاء الرأس وهو سعيد لأن احدا لم يعقه عن
الكتابة ، ولم يضع المعطف على كتفيه ، بل انطلق الى
الخارج بالقميص فقط

كان الباعة فى دكان الجزار الذين سألهم من قبل
قد اخبروه ان الرسائل تلقى فى صناديق البريد ، ومن الصناديق
تنقل الى جميع انحاء الارض على عربات بريد بحوزية
سكارى وأجراس رنانة . وركض فانكا الى اول صندوق بريد
صادفه ، ودس الرسالة الغالية فى فتحة الصندوق

وبعد ساعة كان يغط فى نوم عميق وقد هدهدت
الآمال الحلوة روحه وحلم بالفرن . كان جده جالسا على
الفرن مدليا ساقيه العريانتين وهو يقرأ الرسالة للطاهيات
وبجوار الفرن يسير «فيون» ويهز ذيله

الاعداء

فى حوالى الساعة العاشرة من مساء مظلم فى شهر سبتمبر توفى بالدفتيريا الابن الوحيد لدى الطبيب الريفى الدكتور كيريلوف ، الطفل اندريه ذو الستة اعوام . وعندما جثت زوجة الدكتور على ركبتها امام سرير الصبى الميت وقد دهمتها اول نوبة يأس ، دوى فى المدخل بحدة رنين الجرس .

كان الخدم جميعا قد صرفوا منذ الصباح بسبب الدفتيريا . فذهب كيريلوف ليفتح الباب بنفسه ، كما هو ، بدون سترة ، فى صدىرى مفكوك الازرار ، ودون ان يمسح وجهه المبلل ويديه المبللتين اللتين كواهما حامض الكربوليك . كان المدخل مظلما فلم يميز فى الشخص القادم سوى قامة متوسطة وملحفة بيضاء ، ووجه كبير بالغ الشحوب الى درجة بدا معها ان المدخل اضاء قليلا بظهوره . . .

وسأل القادم بسرعة :

— الدكتور موجود ؟

فاجاب كيريلوف :

— انا موجود . ماذا تريدون ؟

— آه ، اهو انت ؟ سعيد جدا ! — قال القادم

بفرح وراح يبحث فى الظلام عن يد الدكتور حتى وجدها
فضغط عليها بقوة بين كفيه . — سعيد جدا . . . جدا !
انا معارف ! . . . انا ابوجين . . . تشرفت برؤيتكم صيفا
عند آل جنوتشيف . سعيد جدا اذ وجدتك . . . اتوسل
اليك ان تأتى معى الآن . . . زوجتى فى حالة خطرة . . .
معى عربة . . .

بدا واضحا من صوت القادم وحركاته انه كان فى
حالة انفعال شديد . كان يتكلم بسرعة وبصوت مرتعش
وهو لا يكاد يقوى على كتم لهائه ، وكأنما افزعه حريق
او كلب مسعور ، ولاحت فى حديثه نبرة جبن غير مفتعلة .
وكلل المذعورين والمذهولين كان يتكلم بجمل قصيرة حادة
ويتفوه بكلمات زائدة كثيرة لا دخل لها اطلاقا بالموضوع .
ومضى يقول :

— خشيت الا اجدك . . . تعذبت كثيرا وانا فى الطريق
اليك . . . ارجوك البس ثيابك وهيا بنا . . . حدث ذلك هكذا :
جاءنى بابتشينسكى ، الكسندر سيميونوفتش ، انت تعرفه . . .
وتحدثنا . . . ثم جلسنا نشرب الشاى . وفجأة صرخت زوجتى ،
وامسكت بقلبها وسقطت على ظهر الكرسي . وحملناها الى
الفراش و . . . دلكت صدغيها بالنشادر ، ورششتها بالماء . . .
ولكنها ترقد كالميتة . . . اخشى ان يكون ذلك أنورسما * . . .
هيا بنا . . . لقد مات والدها بالأنورسما . . .
كان كيريلوف يصغى اليه صامتا ، وبدا وكأنه لا
يفهم الروسية .

* تمدد مرضى فى شرايين القلب . المعرب .

وعندما ذكر ابوجين مرة اخرى بابتشينسكى ووالد زوجته ،
وراح من جديد يبحث فى الظلام عن يد الدكتور ، هز
هذا رأسه وقال بتبلد وهو يمط كل كلمة :
— عفوا ، انا لا استطيع ان اذهب . . . منذ خمس
دقائق . . . مات ابنى . . .

فهمس ابوجين وهو يتراجع خطوة :
— كيف ؟ ! يا الهى ، فى اية ساعة مشؤومة جئت !
يا له من يوم منحوس . . . منحوس بصورة غريبة ! ما هذا
التوافق . . . كأنما عن عمد !
امسك ابوجين بمقبض الباب وطأ رأسه متفكرا .
ويبدو انه كان مترددا ولا يدرى ماذا يفعل : هل ينصرف
ام يواصل الالحاح على الدكتور .

ثم قال بحرارة وهو يشد كيريلوف من ذراعه :
— اسمع ، اننى افهم حالتك تماما ! ويشهد الله
كم اخجل وانا اسعى فى هذه اللحظات الى الاستحواذ
على اهتمامك ، ولكن ماذا افعل ؟ احكم بنفسك . . الى
من استطيع ان اتوجه ؟ ليس هنا طبيب غيرك . اتوسل
اليك ان تأتى معى ! انا لا اطلب شيئا لنفسى . . . لست
انا المريض !

وساد الصمت . استدار كيريلوف موليا ظهره الى ابوجين ،
ووقف قليلا ، ثم خرج ببطء من المدخل الى الصالة .
وبدا من مشيته الآلية غير الواثقة ، ومن الاهتمام الذى سوى
به الabajورة الكثة على المصباح المنطفى فى الصالة والذى
قلب به صفحات كتاب سميك ملقى على الطاولة ، انه
لم تكن لديه فى هذه اللحظة اية نوايا او رغبات ، ولم

يكن يفكر فى شىء ، وربما لم يعد يذكر ان هناك شخصا غريبا ينتظر فى المدخل . ويبدو ان عتمة الصالة وسكونها قد زادا من ذهوله . وعندما سار من الصالة الى غرفة مكتبه كان يرفع قدمه اليمنى اعلى مما ينبغى ، ويبحث بيديه عن قوائم الابواب ، وفى تلك اللحظة افصحت هيئته كلها عن نوع من الحيرة وكأنما دخل شقة غريبة ، او انه سكر بشدة لأول مرة فى حياته فاستسلم فى حيرة لهذا الاحساس الجديد . وعلى احد جدران غرفة المكتب ، وعبر خزانات الكتب امتد شريط ضوئى عريض . وكان هذا الضوء قادما مع رائحة الكربوليك والاثير الثقيلة الخانقة من الباب الموارب المفضى من المكتب الى غرفة النوم . . . وغاص الدكتور فى الكرسى امام الطاولة . ونظر بعينين ناعستين الى كتبه المضاءة حوالى دقيقة ، ثم نهض ومضى الى غرفة النوم .

وهنا ، فى غرفة النوم ، اطبق سكون الموت . كان كل شىء ، بأدق تفصيلاته ، يدل بجلاء على العاصفة التى مرت منذ قليل ، وعلى الارهاق ، ثم اخلد كل شىء الآن الى الراحة . واضاءت الغرفة بسطوع الشمعة الموضوعة على الكرسى فى زحمة القوارير والعلب والبرطمانات ، والمصباح الكبير على الكمودينو . وعلى السرير ، بجوار النافذة مباشرة ، تمدد الصبى بعينين مفتوحتين وتعبير دهشة على وجهه . كان ساكنا بلا حراك ، ولكن بدا ان عينيه المفتوحتين تظلمان اكثر مع كل لحظة وتغوصان داخل الجمجمة .

وجثت امه على ركبتها امام السرير وقد وضعت يديها على جسده ودفنت وجهها فى طيات الفراش . كانت مثل الصبى ساكنة ، ولكن اية حركة حية تجلت فى ثنايا جسدها وفى

ذراعيها ! كانت ملتصقة بالسريـر بكل كيانها ، وبقوة ونهم ،
كأنما كانت تخشى ان تتحرك فتخل بهذا الوضع الساكن
المريح الذى وجدته اخيرا لجسدها المنهك . كان كل شىء
جامدا . . . البطاطين ، والخرق ، والطسوت ، وبرك المياه
على الارضية ، والفرش والملاعق المتناثرة فى كل مكان ،
وزجاجة المحلول الجيرى البىضاء ، والهواء نفسه ، الخانق
الثقيل . . . وبدا كل ذلك غارقا فى السكينة .
توقف الدكتور بجوار زوجته ، ودس يديه فى جيبى
سرواله وامال رأسه جانبا وحدث فى ابنه . وكان وجهه يعبر
عن اللامبالاة ، ومن القطرات الدقيقة فحسب التى كانت
تلمع فى لحيته كان واضحا انه بكى منذ قليل .
لم يكن فى الغرفة ذلك الرعب الذى يراود الذهن
عند الحديث عن الموت . ففى ذلك الجمود الشامل ،
وفى وضع الام ، وفى لامبالاة وجه الدكتور كان ثمة شىء
جذاب ، يأسر القلب ، وهو بالذات ذلك الجمال المرهف
الذى لا يكاد يلحظ للمأساة الانسانية ، ذلك الجمال الذى
لن يعرف الناس قريبا كيف يفهمونه ويصفونه ، والذى لا
يحسن التعبير عنه ، فيما يبدو ، سوى الموسيقى . وكان
هذا الجمال ملموسا ايضا فى السكون الجهم . وكان كيريلوف
وزوجته صامتين ، لا يبيكان ، كأنما يدركان ، الى جانب
وطأة المصاب ، كل وجدانية وضعهما : فكما انقضى
شبابهما فى حين ما ، يمضى الآن ، مع رحيل ولدهما ،
الى الابد وبلا رجعة حقهما فى انجاب الاطفال ! فالدكتور
فى الرابعة والاربعين ، وقد شاب شعره واصبح اشبه بالعجوز .
اما زوجته المنطفئة المريضة ففى الخامسة والثلاثين . ولم

يكن اندريه ابنهما الوحيد فحسب ، بل والاخير ايضا .
وعلى عكس زوجته كان الدكتور ينتمى الى ذلك الطراز
من الشخصيات التى تشعر فى حالة الالم النفسى بالحاجة
الى الحركة . فبعد ان وقف بجوار زوجته حوالى خمس دقائق ،
خرج من غرفة النوم وهو يرفع قدمه اليمنى عاليا ، ودلف
الى غرفة صغيرة تشغل نصفها كنبه كبيرة عريضة . ومنها
انتقل الى المطبخ . وتسكع قليلا بجوار الفرن وفراش الطاهية ،
ثم انحنى وخرج من باب صغير الى المدخل .

وهنا رأى ثانية الملحقة البيضاء والوجه الشاحب .
وتنهذ ابوجين وهو يمسك بمقبض الباب وقال :
— اخيرا ! فلنرحل لو سمحت !

انتفض الدكتور ، ثم تطلع اليه فتذكر . . .
وقال له وهو يستعيد حيويته :

— اسمع ، لقد قلت لك اننى لا استطيع الذهاب !
ما اغرب هذا !

فقال ابوجين بصوت ضارع واضعا يده على صدره :
— يا دكتور ، انا لست بليد الاحساس ، واقدر
وضعك تماما . . . كم آسى لك ! لكنى لا اطلب شيئا
لنفسى . . . زوجتى تحتضر ! لو انك سمعت تلك الصرخة
ورأيت وجهها ، لادركت سبب الحاحى ! يا الهى ، لقد
ظننت انك ذهبت لترتدى ثيابك ! الوقت ضيق يا دكتور !
فلنذهب ارجوك .

فقال كيريلوف ببطء :

— لا استطيع ان اذهب !
وخطا نحو الصالة .

ومضى ابوجين فى اثره وامسك بكمه .
— لديك فجیعة ، انا ادرك ذلك ، ولكنى لا ادعوك
لعلاج اسنان ولا لوضع تقرير فنى ، بل لانقاذ حياة بشرية ! —
ومضى يتوسل اليه كالشحاذ . — هذه الحياة فوق اية فجیعة
شخصية ! حسنا ، اننى اسألك النخوة ، اسألك بطولة !
باسم المحبة الانسانية !

فقال كيريلوف بعصیة :

— المحبة الانسانية سكين ذو حدين . وباسم المحبة
الانسانية نفسها ارجوك ان تتركنى . حقا شىء غریب !
انا لا اكاد اقوى على الوقوف بينما تخوفنى بالمحبة الانسانية !
انا لا اصلح لشىء الآن . . . لن اذهب مهما كان ، وكيف
اترك زوجتى ؟ لمن ؟ كلا ، كلا . . .
ولوح كيريلوف بيديه وعاد ادراجه .

ومضى يقول بفرع :

— لا . . . لا تطلب ! اعذرنى . . . نعم ، حسب
المجلد الثالث عشر لمجموعة القوانين يتوجب على ان ارحل
معك ، ومن حقت ان تجرجرنى من قفاى . . . هيا ،
تفضل جرجرنى ، ولكن . . . انا غير صالح . . . لا اقدر
حتى على الكلام . . . اعذرنى . . .

فقال ابوجين وهو يمسك الدكتور من كفه ثانية :

— لا داعى لان تتحدث معى بهذه اللهجة يا دكتور .

دعنا من هذا المجلد الثالث عشر ! ليس من حقى ابدًا
ان اجبرك على شىء . اذا شئت ان ترحل فلترحل ، واذا
لم تشأ سامحك الله . لكنى لا اخاطب ارادتك بل اخاطب
مشاعرك . هناك امرأة شابة تحتضر ! لقد قلت ان ابنك

مات الآن ، فمن غيرك يستطيع ان يفهم بلواي ؟
كان صوت ابوجين يرتعش من الانفعال . وكان في
هذه الرعدة وفي نبرة الصوت من قوة الاقناع اكثر مما في
كلماته . كان ابوجين صادقا ، ولكن الملفت للانتباه انه
مهما قال من عبارات ، فقد كانت كلها تبدو جوفاء ،
بلا نبض ، او زاهية بصورة لا تليق وكأنما تهين جو شقة
الدكتور والمرأة المحتضرة بعيدا . وحتى هو احس بذلك ،
ولهذا فقد حاول بكل قواه ، خشية الا يفهم ، ان يضيف
على صوته نعومة ورقة كي يؤثر في الطبيب ان لم يكن
بالكلمات ، فبصدق النبرة على الاقل . وعموما فالكلمات
مهما كانت جميلة وعميقة فانها لا تؤثر الا في ذوى النفوس
اللامبالية ولا تستطيع دائما ان ترضى السعداء او التعساء .
ويبدو ان اسمى تعبير عن السعادة او التعاسة هو في اغلب
الاحوال الصمت . فالعشاق يفهمون بعضهم بعضا عندما
يصمتون ، اما الخطبة الحارة المشبوبة الملقاة على القبر
فلا تؤثر الا في الغرباء ، بينما تبدو لأرملة المتوفى واولاده
باردة تافهة .

وقف كيريلوف صامتا . وعندما تفوه ابوجين ببضع
عبارات اخرى عن رسالة الطبيب السامية ، وعن التضحية
بالنفس وما الى ذلك ، سأله الطبيب عابسا :

— هل المسافة بعيدة ؟

— حوالى ١٣ — ١٤ فرسخا . خيولى ممتازة يا دكتور !

اعدك بشرفى ان احملك الى هناك واعود بك فى ساعة
واحدة . ساعة واحدة فقط !

اثرت الكلمات الاخيرة على الدكتور بأقوى من الاستشهاد

بمحبة البشر ورسالة الطبيب . ففكر قليلا ثم قال متنهدا :
— حسنا ، لنذهب !

ومضى نحو مكتبه بسرعة ، بخطوة اصبحت وثيقة ،
ثم عاد بعد قليل فى سترة طويلة . وساعده ابوجين المسرور
وهو يدور حوله ويحك الارض بقدميه على ارتداء المعطف
وخرج معه من البيت .

كان الجو فى الخارج مظلما وان كان اخف ظلمة
من المدخل . وبدأت فى الظلام بوضوح قامة الدكتور الطويلة
المحنية بلحيته الطويلة الضيقة وانفه المعقوف . اما ابوجين ،
فقد اصبح ظاهرا منه الآن ، بخلاف شحوبه ، رأسه الكبير
وعليه طاقة طلاية صغيرة لا تكاد تغطى يافوخه . وكانت
الملحفة تلوح من الامام فقط ، اما من الخلف فقد اختفت
خلف شعره المرسل .

ودمدم ابوجين وهو يساعد الدكتور على ركوب العربة :

— ثق يا دكتور اننى سأعرف كيف اقدر شهامتك .

سنصل بسرعة . هيا يا لوقا ، يا عزيزى ، انطلق بأسرع
ما يمكن ! ارجوك !

وساق الحوذى العربة بسرعة . ساروا فى البداية بحذاء
صف من المباني البائسة على امتداد فناء المستشفى ، وساد
الظلام الا فى عمق الفناء ، حيث انبعث ضوء ساطع من
احدى النوافذ عبر الحديقة ، ولاحت ثلاث نوافذ فى الطابق
الاعلى من مبنى المستشفى اكثر شحوبا من الجو . ثم دلفت
العربة فى ظلام كثيف ، وفاحت رائحة رطوبة فطرية وتناهى
همس الاشجار . وجفلت الغربان النائمة وسط اوراق الشجر
وقد ايقظها ضجيج العجلات واطلقت نعيقا شاكيا قلقا ،

كأنما كانت تعلم ان الدكتور قد مات ابنه وان ابوجين زوجته مريضة . ثم ومضت اشجار متفرقة ثم حرش ، وتلألأت بركة جهمة ارتمت فوقها ظلال طويلة سوداء ، وانسابت العربية فى سهل منبسط . وتناهى نعيق الغربان مكتوما بعيدا من ورائهم ، ثم سرعان ما تلاشى تماما .

ظل كيريلوف وابوجين صامتين طوال الوقت . مرة واحدة تنهد ابوجين بعمق وتمتم :

— يا له من عذاب ! انك لا تحب اقرباءك الى هذه الدرجة الا عندما تواجه بخطر فقدانهم .

وعندما عبرت العربية النهر بهدوء انتفض كيريلوف كأنما افزعته طرشة الماء وتململ بقلق .

ثم قال بأسى :

— اسمع ، اتركنى ارجوك . سأتى اليك فيما بعد . اريد فقط ان ارسل الممرض الى زوجتى . انها وحدها !

لزم ابوجين الصمت . ومرت العربية فوق الشاطئ الرملى وهى تهتر وتضطرب بالاحجار ، ثم واصلت سيرها . واستبدت الوحشة بكيريلوف فنظر حوله بقلق . على ضوء النجوم الشحيح

لاح من خلفهم الطريق وصفصاف الشاطئ المتلاشى فى الظلام . والى اليمين ترمى سهل منبسط بلا حدود كالسما

ايضا . وفى اطرافه البعيدة تناثرت اضواء كايية هنا وهناك ، ربما من غازات مستنقعات تحترق . والى اليسار ، بحذاء

الطريق ، امتد تل مدغل بالاحراش الخفيفة ، وفوق التل انتصب بلا حراك هلال كبير احمر ، تلفه غلالة ضبابية

رقيقة ، وتحيط به سحب صغيرة ، بدت وكأنها ترقبه من جميع الجهات وتحرسه كيلا يغيب .

ولاح في الطبيعة كلها شيء ما ميثوس منه ومريض .
وكابدت الارض ، مثل امرأة ساقطة تجلس وحدها في
غرفة مظلمة وتحاول الا تفكر في الماضي ، كابدت ضنى
ذكريات الربيع والصيف ، وراحت تنتظر في فتور وتبلد مجيء
الشتاء المحتم . حيثما جال البصر تبدت الطبيعة حفرة
مظلمة سحيقة الاغوار وباردة ، حفرة لن يستطيع
الخروج منها لا كيريلوف ، ولا ابوجين ، ولا الهلال
الاحمر . . .

وكلما اقتربت العربية من الهدف ازداد فروغ صبر ابوجين .
كان يتململ ، ويقفز واقفا ، وينظر الى الامام من فوق
كتفى الحوذى . وحينما توقفت العربية اخيرا عند سلم المدخل
المغطى بكسوة مخططة جميلة ، وعندما نظر الى النوافذ
المضاءة في الطابق الثانى ، اصبح مسموعا اضطراب انفاسه .
وقال وهو يدخل مع الدكتور الى الردهة ويفرك راحتيه
بانفعال .

— لو حدث لها شيء ف . . . لن احتمل . — ثم
اضاف وهو يصيح السمع الى السكون : — ولكنى لا اسمع
جلبة ، اذن فالامور على ما يرام حتى الآن .
لم تسمع فى الردهة اصوات او وقع اقدام ، وبدا
البيت كله نائما رغم الانوار الساطعة . واصبح الآن فى
وسع الدكتور وابوجين ، اللذين لم يريا بعضهما البعض الا
فى الظلام ، ان يتأمل كل منهما الآخر . كان الدكتور
طويلا ، محنى القامة ، مهمل الثياب ، ولم يكن جميل
الوجه ، وكانت شفثاه الغليظتان كشفاه الزنوج ، وانفه المعقوف ،
ونظرته الذابلة اللامبالية تعبر عن شيء حاد منفر وقاس .

وكان رأسه المشعث ، بصدغيه الغائرين ، والشيب المبكر
فى لحيته الطويلة الضيقة ، التى كان ذقنه يلوح من بين
شعرها ، ولون بشرته الرمادى الشاحب ، وحركاته الخرقاء
الحادة . . . كان كل ذلك يبعث بغلاظته على الاعتقاد بأنه
عانى من الفاقة والبؤس ، وارهقته الحياة والناس . ولم يكن
من الممكن ان تصدق ، عندما تنظر الى قامته الجافة ،
ان لدى رجل كهذا زوجة ، وانه يمكن ان يبكى على
ابنه المتوفى . اما ابوجين فكان شيئا آخر . كان رجلا متين
الجسم ، رصينا ، اشقر ، كبير الرأس ، وكانت تقاطيع
وجهه ضخمة ولكنها ناعمة ، ولباسه انيق حسب آخر موضة .
ولاح فى قامته ، وفى سترته المزرة المحبوكة ، وفى عرفه
المسدل ، وفى وجهه ، شىء ما نبيل كما فى الاسود .
وكان يسير منتصب الرأس ، منفوخ الصدر ، ويتحدث
بنغمة «باريتون» لطيفة ، وتجلت فى الطريقة التى نزع بها
ملحفته وسوى بها شعر رأسه رشاقة مرهفة ، نسائية تقريبا .
وحتى شحوبه ، والذعر الطفولى الذى كان يتطلع به الى
اعلى الدرج وهو يخلع ملابسه الثقيلة ، لم يفسدا هيئته ،
ولم ينتقصا من الشبع والصحة والثقة التى كان جسمه يطفح
بها .

وقال وهو يصعد الدرج :

— ليس هناك احد ولا اسمع شيئا . ليس هناك

جلبة . استر يا رب !

وقاد الدكتور من الردهة الى صالة كبيرة لاح فيها معزف

اسود وتدلّت من سقفها نجفة ملفوفة فى كيس ابيض .

ومن هنا دلفا معا الى غرفة جلوس صغيرة ولكنها مريحة

جدا جميلة ومعبأة بعنمة وردية لطيفة .

وقال ابوجين :

— اجلس هنا يا دكتور . . سأعود حالا . سأذهب

لأنظر وانبههم .

وبقى كيريلوف وحده . ويبدو ان فخامة غرفة الجلوس والعنمة المريحة ، ووجوده هو نفسه في بيت غريب غير معروف ، هذا الوجود الذى كان اشبه بمغامرة ، كل ذلك لم يحرك فيه شيئا . جلس فى المقعد وراح يتأمل يديه اللتين كواههما حامض الكربوليك . ولمح ابا جورة قانية الحمرة ، وصندوق فيولنشيلى ، ونظر بطرف عينه الى الجهة التى كانت تصدر منها تكتكة ساعة فلاحظ ذئبا محنطا ، وكان مهيبا وشبعان مثل ابوجين نفسه .

ساد الهدوء . . . وفى مكان ما ، فى الغرف المجاورة صاح احدهم بصوت عال : «آه» ، ورن باب زجاجى ، ربما باب صوان ، ثم هدأ كل شيء ثانية . وانتظر كيريلوف حوالى خمس دقائق ، ثم كفّ عن تأمل يديه ، ورفع عينيه الى الباب الذى اختفى ابوجين خلفه .

عند عتبة ذلك الباب وقف ابوجين ، ولكنه كان ابوجين آخر . اختفت من وجهه دلائل الشبع والرشاقة المرهفة ، وشوه وجهه ويديه ووقفته تعبير بشع لا يعرف ان كان من الرعب ام من الالم البدنى المصنئ . كان انفه وشفتاه وشواربه وكل ملامحه تتحرك ، وبدا كأنها تريد ان تنفصل عن وجهه ، اما عيناه فكأنما كانتا تضحكان الما . . . وتقدم ابوجين بخطوات ثقيلة واسعة الى وسط الغرفة ، وانحنى وتأوه وهز قبضتيه .

— خَدَعْتَنِي ! — صاح مشددا على آخر الكلمة —
خدعتنى ! هربت ! ادّعت المرض وارسلتنى فى طلب
الدكتور فقط لكى تهرب مع هذا المهرج بابتشينسكى !
يا الهى !

اقرب ابوجين من الدكتور بخطوات ثقيلة ، ومد نحو
وجهه قبضتيه البيضاوين الطريتين وهو يهزهما ، ومضى يقول :
— هربت ! خدعتنى ! فما الداعى لهذا الكذب ؟
يا الهى ! يا الهى ! ما الداعى لهذا التحايل القدر ، لهذه
التمثيلية الشيطانية الافعوانية ؟ ماذا فعلت لها ؟ هربت !
وطفرت الدموع من عينيه . ودار على قدم واحدة ،
ومضى يذرع الغرفة . اصبح الآن ، بسترته القصيرة ، وسرواله
العصرى الضيق الذى بدت فيه ساقاه نحيلتين بما لا يتفق
مع جسمه ، وبرأسه الكبير وعرفه ، اصبح شبيها بالاسد الى
حد كبير . واشرق وجه الدكتور اللامبالى بفضول . فنهض
وطاف على ابوجين بعينه . وسأله :

— عفوا ، ولكن اين المريضة ؟

— المريضة ! المريضة ! — صرخ وهو يضحك ويبكى
ويواصل هز قبضتيه . — هذه ليست مريضة بل ملعونة !
يا للدناءة ! يا للوضاعة ! الشيطان نفسه لا يمكن ان
يهتدى الى شىء احط من ذلك ! ابعدتنى لكى تهرب ،
تهرب مع مهرج ، مع بهلوان بليد ، مع عاهر ! يا
الهى ، كان افضل لو ماتت ! لن احتمل ! انا لن احتمل !
شد الدكتور قامته . وطرفت عيناه وامتلأتا بالدموع ،
وتحركات لحيته الضيقة يمينا ويسارا مع فكه .
وسأل وهو يتلفت حوله بفضول :

— عفوا ، كيف هذا ؟ ابني مات ، وزوجتي تعاني
الفجيرة ، وحيدة في البيت . . . وانا لا اكاد اقوى على
الوقوف ، لم انم ثلاث ليالٍ . . . ثم ماذا ؟ يضطرونني
الى اللعب في كوميديا مبتذلة ، لعب دور الديكور ! انا . .
انا لا افهم !

بسط ابوجين احدى قبضتيه وقذف على الارض برسالة
مجعدة وداس عليها بقدميه كما يداس على حشرة بغية
سحقها .

وقال من بين اسنانه المطبقة وهو يهز احدى قبضتيه
امام وجهه وبتعبير شخص داس احدهم على اصبع قدمه
المريضة :

— وانا لم ار شيئا . . لم افهم ! لم الاحب انه
يزورنا كل يوم ، لم الاحب انه جاء اليوم في عربة ! لماذا
جاء في عربة ؟ لم افطن ، يا لى من زكية !
ودمدم الدكتور :

— لا افهم . . ما معنى هذا ؟ هذه سخرية بالناس ،
امتهان للعذاب الانساني ! هذا شيء لا يعقل . . . اول
مرة في حياتي ارى هذا !

هز الدكتور كتفيه واشاح بيديه بدهشة متبلدة لانسان
بدأ يفهم لتوه فقط انه اهين اهانة بالغة ، وهو لا يدري
ماذا يقول او ماذا يفعل ، فتهالك على المقعد باعياء .
ومضى ابوجين يقول بصوت باك :

— لنفرض انك لم تعودى تحبيننى واحببت شخصا
آخر ، لك الله ، ولكن ما الداعى للخداع ، ما الداعى
لهذه الحيلة الدنيئة الغادرة ؟ ما الداعى ؟ وعلام ؟ ماذا

فعلت لك ؟ اسمع يا دكتور ، — قال بحرارة وهو يقترب من كيريلوف . — لقد كنت بالصدفة شاهدا على بلوى . ولن اخفى عنك الحقيقة . اقسم لك اننى احببت هذه المرأة ، احببتها بخنوع كالعبد . من اجلها ضحيت بكل شيء : تخاصمت مع اهلى ، هجرت الوظيفة والموسيقى ، وغفرت لها ما لم اكن استطيع ان اغفره حتى لأمي او اختي . . . لم انظر اليها ابدا نظرة شذرة . . . لم يبدر عنى اى مبرر ، فلماذا هذا الكذب ؟ انا لا اطالبها بالحب . ولكن ما الداعى لهذا الخداع المقرف ؟ اذا كنت لا تحبين فلتقولى ذلك مباشرة ، بشرف ، خاصة وانت تعرفين نظرتي الى هذه الامور . . .

كان ابوجين يفضى بما فى قلبه للدكتور بصدق ، والدموع تملأ عينيه ، وجسده كله يرتعش . كان يتكلم بحرارة ، ضامما كلتا يديه الى قلبه ، ويفشى كل اسراره العائلية دون ادنى تردد ، بل وبدا وكأنه سعيد بأن هذه الاسرار قد انطلقت اخيرا لتخرج من صدره . ولو انه تكلم هكذا ساعة او ساعتين ، ولو انه فضفض عن نفسه لاحس قطعاً بارتياح . ومن يدرى ، فلو ان الدكتور اصغى اليه ، وواساه بمودة فربما ، وكما يحدث كثيرا ، اذعن لبلواه دون تذمر ، ودون ان يرتكب حماقات لا داعى لها . . . ولكن الامور سارت بشكل آخر . فبينما كان ابوجين يتكلم تغير الدكتور المهان تغيرا ملحوظا . تراجعت اللامبالاة والدهشة من على وجهه شيئا فشيئا ليحل محلها تعبير الالهانة المرة والسخط والغضب . اصبحت ملامحه اكثر حدة وخشونة ونفورا . وعندما قرب ابوجين من عينيه صورة امرأة شابة

بوجه جميل ولكنه جاف غير معبر كوجه الراهبة ، وسأله هل تستطيع بالنظر الى هذا الوجه ان تتصور انه يمكن ان يعبر عن الكذب ، قفز الدكتور فجأة ، ولمعت عيناه ، وقال وهو يضغط على كل كلمة بخشونة :

— لماذا تقول لى كل هذا ؟ انا لا ارغب فى سماعه ! لا ارغب ! — صرخ وهو يدق الطاولة بقبضته . — لست بحاجة الى اسرارك المبتذلة ، عليها اللعنة ! اياك ان تقول لى هذه الاشياء الوضيعة ! ام انك تظن اننى لى أَهْنُ بما فيه الكفاية ؟ أننى خادم يمكن اهانتة بلا نهاية ؟ نعم ؟ تراجع ابوجين مبتعدا عن كيريلوف وهو يحدق فيه بذهول .

ومضى الدكتور يقول ولحيته تهتر .
— لماذا جئت بى الى هنا ؟ اذا كنتم من الشعب تتزوجون ، ومن الشعب تركبكم الشياطين فتختلقون الميلودرامات ، فما دخلى انا ؟ ما لى انا بقصصكم الغرامية ؟ دعونى وشأنى ! تمرنوا على المشاجرات النبيلة ، تصوروا انكم اصحاب افكار انسانية ، اعزفوا (ونظر الدكتور الى صندوق الفيولنشيلو) اعزفوا على الكونتراباس ، وعلى البوق ، اسمنوا كالديوك المعلقة ، لكن اياكم والسخرية بكرامة الناس ! اذا لم يكن فى وسعكم ان تحترموها فاعفوها على الاقل من اهتمامكم !

فسأل ابوجين وهو يتضرع :
— اسمح لى ، ما معنى هذا ؟
— معناه انه من الحقارة والانحطاط ان تهزؤا بالناس الى هذه الدرجة ! اننى طبيب ، وانتم تعتبرون الاطباء ،

والعمال عموما ، الذين لا تنبعث منهم روائح العطور والدعارة ،
تعتبرونهم خدما لكم وقليلى الذوق ، حسنا ، فلتعتبروهم كما
تشاءون ، لكن احدا لم يعطكم الحق فى ان تجعلوا من
شخص يعانى قطعة ديكور !

— كيف تجرؤ على ان تقول لى هذا ؟ — سأل ابوجين
بصوت خافت ، واحمر وجهه ثانية من الغضب فى هذه
المرة .

— بل كيف جرؤت انت على المجيء بى الى هنا ،
لاسمع هذه الاشياء الوضيعة ، وانت تعلم مدى فجيعتى . —
صرخ الدكتور ودق الطاولة بقبضته ثانية . — من الذى اعطاك
الحق فى السخرية بآلام الآخرين الى هذا الحد ؟
فصرخ ابوجين :

— انت جننت ! ليس هذا كرم اخلاق ! انا نفسى
تعيس جدا و

فضحك الدكتور ضحكة احتقار قصيرة وقال :
— تعيس دع هذه الكلمة فهى لا تخصك .
فالعاطلون الذين لا يجدون ما يسددون به كمبيالاتهم يعتبرون
انفسهم ايضا تعساء . والديك المعلوف ، الذى يخنقه الدهن ،
ايضا تعيس . يا للنفوس الحقيرة !
فصرخ ابوجين محتدا :

— قف عند حدك يا سيد ! مثل هذه الكلمات
تستوجب . . . الضرب ! فاهم ؟

ودس ابوجين يده فى جيبه بسرعة ، واخرج منه
محفظته ، واستل منها ورقتين مائيتين والقى بهما على
المائدة .

وقال ومنخاراه يرتعشان :

— خذ ، هذه اتعابك !

فصاح الدكتور وهو يكنس النقود بيده من على الطاولة

الى الارض :

— اياك ان تعرض علىّ نقودا ! الالهانة لا يدفع

ثمنها نقودا !

وقف ابوجين والدكتور وجها لوجه ، وراحا فى سورة

الغضب يكيلان بعضهما البعض الالهانات الباطلة . ويبدو

انهما لم يتفوها فى حياتهما ابدا ، ولا حتى فى الهذيان ،

بمثل هذه الكلمات الظالمة والقاسية والخرقاء . لقد تكشفت

فى كل منهما بقوة انانية التعساء . فالتعساء انانيون ، شريرون ،

ظالمون ، قساة ، واقل من الحمقى قدرة على فهم بعضهم

بعضا . التعاسة لا تجمع بين الناس بل تفرقهم ، وحتى

فى تلك الاحوال التى قد يخيل لك فيها ان تشابه البلوى

ينبغى ان يربط بين الناس ، يرتكب من المظالم والشور

اكثر بكثير مما فى اوساط الهانئين نسبيا .

وصاح الدكتور وهو يختنق :

— لتأمر بتوصيلي الى البيت !

فقرع ابوجين الجرس بحدة . وعندما لم يأت احد

تلبية لطلبه قرع الجرس مرة ثانية ثم القى به على الارض

فى غضب . وارتطم الجرس بالبساط بصوت مكتوم وصدر

عنه انين شاك كأنما لفظ آخر انفاسه . وجاء الخادم .

فانفجر فيه ابوجين وهو يشد قبضتيه :

— اين اختفيتم ايها الملاعين ؟ اين كنت الآن ؟

امش من هنا وقل لهم ان يعدوا العربة لهذا السيد ويعدوا

لى الحنطور ! — وصاح عندما استدار الخادم لينصرف . —
انتظر ! اياك ان يبقى الى الغد اى واحد من الخونة فى
البيت ! كلکم مطرودون ! سأستأجر غيرکم ! ايها الاوغاد !
لزم ابوجين والدكتور الصمت فى انتظار العربات .
وعادت الى الاول مظاهر الشبع والرشاقة الرهيفة . واخذ يذرع
غرفة الجلوس وهو يهز رأسه برشاقة ويدبر ، فيما يبدو ،
امرا ما . لم تخمد سورة غضبه بعد ، ولكنه حاول ان
يبدو وكأنه لا يلاحظ عدوه . . . اما الدكتور فكان واقفا ،
مرتكزا باحدى يديه على حافة الطاولة وهو ينظر الى ابوجين
بذلك الاحتقار العميق الوقح بعض الشيء والقبیح ، الذى
لا ينظر به سوى الفاجعة والبؤس عندما يريان امامهما الشبع
والرفاهية .

وفىما بعد ، عندما استقل الدكتور العربة ورحل ،
ظلت عيناه تنظران بنفس الاحتقار . كان الجو مظلماً ،
اشد ظلاماً بكثير مما كان منذ ساعة . واختفى الهلال
الاحمر خلف تل ، وانتشرت السحب التى كانت تحرسه
واستقرت بجوار النجوم بقعا داكنة . ودق الحنطور ذو الفوانيس
الحمراء بعجلاته على الطريق ولحق بالدكتور وسبقه . كان
يركبه ابوجين الذى رحل ليحتج ويرتكب حماقات ما . . .
وظل الدكتور طوال الطريق يفكر لا فى زوجته ولا فى
ابنه اندريه ، بل فى ابوجين وسكان البيت الذى تركه
منذ قليل . وكانت افكاره ظالمة وقاسية بصورة لا انسانية .
كان فى تفكيره يدين ابوجين وزوجته وبابتشينسكى وكل من
يعيشون فى العتمة الوردية ويتضوعون عطرا ، وظل طوال
الوقت يمقتهم ويحتقرهم الى حد الالم فى القلب . واستقر

فى ذهنه اعتقاد راسخ حول هؤلاء الاشخاص .
وسوف يمر الزمن ، وسوف تمر فجيرة كيريلوف ، بيد
ان هذا الاعتقاد الظالم ، غير الجدير بالقلوب البشرية لن
يزول ، وسيبقى فى ذهن الدكتور حتى الممات .

فى البيت

— جاء رسول من آل جريجورىف يطلب كتابا ،
ولكنى قلت انكم لستم فى المنزل . وحمل ساعى البريد
جرائد ورسالتين . وبالمناسبة يا يفجينى بتروفيتش ارجو ان
تولوا اهتمامكم الى سيريوجا . فقد لاحظت اليوم ، واول
امس ، انه يدخن . وعندما بدأت اوبخه سد اذنيه كالعادة
واخذ يغنى بصوت عال لكيلا يسمع ما اقول .
كان يفجينى بتروفيتش بيكوفسكى وكيل نيابة الناحية ،
قد عاد لتوه من جلسة المحكمة وفرغ من نزع قفازه فى
غرفة مكتبه ، فنظر الى المربية التى كانت تبلغه هذا التقرير
وضحك .

وقال وهو يهز كتفيه :

— سيريوجا يدخن . . . اننى اتخيل منظر هذا الصغير
والسيجارة فى فمه ! ولكن كم عمره ؟
— فى الساعة . قد يبدو لكم هذا غير جدى ،
ولكن التدخين فى سنه عادة سيئة ومضرة ، والعادات السيئة
ينبغى القضاء عليها فى بدايتها .
— انت على حق تماما . ومن اين يحصل على التبغ ؟
— من درج مكتبكم .

— حقا ؟ فى هذه الحالة ارسله الى .
وبعد انصراف المربية جلس بيكوفسكى فى المقعد
امام مكتبه ، واغمض عينه ، وراح يفكر . ولسبب ما
رسم فى خياله صورة لابنه سيريوجا وفى فمه سيجارة ضخمة
طويلة ، وتلفه سحب دخان السجائر ، فجعلته هذه الصورة
الكارىكاتيرية يبتسم . وفى الوقت نفسه اثار وجه المربية
الجاد المهموم فى نفسه ذكريات الماضى البعيد ، المنسي
تقريبا ، عندما كان التدخين فى المدرسة او فى غرفة الاطفال
يشير فى نفوس المدرسين والآباء رعبا غريبا ، غير مفهوم
تقريبا . كان ذلك رعبا بالفعل . وكانوا يضربون الاولاد
بقسوة ، ويفصلونهم من المدرسة ، ويفسدون عليهم مستقبلهم ،
رغم ان احدا من المدرسين او الآباء لم يكن يعلم بالضبط
ما هو الضرر من التدخين وما هى الجريمة فى ذلك . وحتى
اذكى الاشخاص لم يترددوا فى مكافحة الرذيلة التى لم
يكونوا يفهمونها . وتذكر يفجينى بتروفيتش ناظر مدرسته ،
ذلك العجوز المثقف جدا والطيب القلب والذى كان يمتلكه
الرعب الى درجة الشحوب عندما يضبط تلميذا يدخن ،
فيجمع على الفور مجلس المربين ويحكم على المذنب بالفصل .
يبدو ان تلك هى طبيعة قانون الحياة المشتركة : فكلما
ازداد الشر غموضا اصبحت مقاومته اكثر ضراوة وفظاظة .
وتذكر وكيل النيابة اثنين او ثلاثة من المفصولين ،
وتابع مجرى حياتهم بعد ذلك ، فلم يستطع ان يمنع
نفسه من التفكير بأن العقاب كثيرا ما يعود بشر اكثر من
الجريمة نفسها . فالجسم الحى يملك القدرة على التكيف
السريع والتعود والتأقلم مع اى وسط ، والا لكان على الانسان

ان يشعر فى كل لحظة بمدى انعدام الحكمة فى اساس نشاطه الحكيم ، وبضالة الحقيقة المستوعبة والثقة ، حتى فى تلك الأنشطة المسئولة وذات الآثار الخطيرة كالنشاط التربوى ، والقانونى والادبى

اخذت مثل هذه الافكار الخفيفة الغائمة ، والتي لا تراود الا الذهن المتعب ساعة الراحة ، تدور فى رأسى يفجئنى بتروفتش . كانت تظهر من حيث لا يعرف ولسبب لا يدريه ، وتبقى فى رأسه قليلا ، فيبدو وكأنها ترحف فوق المخ دون ان تغوص عميقا فيه . وبالنسبة للشخص الذين يتوجب عليهم ان يفكروا بطريقة رسمية ، وفى اتجاه واحد لساعات طويلة وربما لايام ، تمثل مثل هذه الافكار المنزلية الحرة نوعا من الراحة والاستجمام اللذيذ .

كانت الساعة حوالى التاسعة مساء . وفوق غرفة المكتب ، فى الطابق الثانى ، وراء السقف ، كان شخص ما يسير من ركن لركن ، واعلى من ذلك ، فى الطابق الثالث تردد عزف ثنائى على البيانو . واضفت خطوات ذلك الشخص الذى كان ، حسبما بدا من مشيته العصبية ، يعذبه التفكير ، او يعانى من الم فى اسنانه ، والانغام الرتيبة ، اضفت على هدوء المساء جوا ناعسا يبعث على الاستسلام للتفكير الكسول . وعبر غرفتين تنهى حديث المربية مع سيريوجا فى غرفة الاطفال .

واخذ الصبى يغنى :

— يا . . . يا وصل ! يا . . . يا وصل . . . !

يا . . . يا . . . يا !

وصرخت المربية بصوت رفيع كطائر مذعور :
Votre père vous appelé, allez vite! اننى اخاطبك !
وقال يفجينى بتروفتش لنفسه : «ولكن ماذا اقول له ؟»
وقبل ان يهتدى الى شىء دخل غرفة المكتب ابنه
سيريوجا ، الصبى ذو السبعة اعوام . كان شخصا لا يمكن
الحكم على جنسه سوى من ملبسه . . . قليل الحجم ،
شاحب الوجه ، هشا . . . كان ذابل الجسم مثل نبات
دفيئة ، وبدا كل شىء فيه رقيقا وناعما جدا : حركاته ،
وشعره المجعد الخصلات ، ونظرتة ، وسترته المخملية .
وقال بصوت ناعم وهو يعتلى ركبتى ابيه ويقبله فى
عنقه بسرعة :

— مرحبا يا بابا ! هل دعوتنى ؟
فاجاب وكيل النيابة وهو ينحيه عنه :
— اسمح لى ، اسمح لى يا سيرجى يفجينيتش * .
قبل القبلات ينبغى علينا ان نتحدث ، ونتحدث بجدية . . .
اننى غاضب منك ولم اعد احبك . نعم ، فلتعلم يا
اخى اننى لا احبك ، وانك لست ابنى . . . نعم .
تطلع سيريوجا الى ابيه باهتمام ، ثم حول نظره الى
الطاولة وهز كتفيه .

* والدك يدعوك ، هيا بسرعة (بالفرنسية فى الأصل) .
** المخاطبة بالاسم الكامل واسم الاب تستخدم مع الكبار
للاحترام . ويريد الاب هنا ان يضيف على حديثه مع ابنه الصغير
طابع الجدية . المعرب .

ثم سأل بدهشة وعيناه تطرفان :

— وماذا فعلت لك ؟ انا لم ادخل مكتبك اليوم

ولا مرة ، ولم المس شيئا .

— اشتكت لى نتاليا سيميونوفنا الآن من انك تدخن . . .

هل هذا صحيح ؟ هل تدخن ؟

— نعم ، دخنت مرة . . . هذا صحيح !

فقال وكيل النيابة عابسا ليخفى ابتسامته :

— انظر ، ها انت فوق ذلك تكذب . لقد رأتك

نتاليا سيميونوفنا تدخن مرتين . اذن فأنت قد ضبطت متلبسا

بثلاثة اعمال سيئة : فأنت تدخن ، وتأخذ تبغا ليس لك

من المكتب ، وتكذب . ثلاثة ذنوب !

فقال سيريوجا متذكرا بينما ابتسمت عيناه :

— آه ، نعم ! هذا صحيح ، صحيح ! انا دخنت

مرتين : اليوم ومن قبل .

— هل رأيت ؟ اذن مرتين وليس مرة واحدة . . . انا

غير راض عنك ابدا ، ابدا ! كنت صبيا طيبا من قبل ، اما

الآن فأرى انك فسدت واصبحت سيئا .

وسوى يفجيني بتروفيتش ياقة سيريوجا وفكر :

«ماذا اقول له بعد ؟»

ثم استطرد يخاطبه :

— نعم ، هذا امر سيئ . لم اكن اتوقع ذلك منك .

فأولا ، لا يحق لك ان تأخذ تبغا ليس ملكك . من حق

كل انسان ان يستخدم فقط ما يملكه ، اما اذا استولى

على ما ليس له فهو . . . فهو انسان سيئ ! (وفكر يفجيني

بتروفيتش : «ليس هذا هو المطلوب قوله !») فمثلا نتاليا

سيميونوفنا عندها صندوق ملابس . انه صندوقها ، ولا يحق لنا ، اقصد انا وانت ، ان نمسه ، لانه ليس صندوقنا . ليس كذلك ؟ وانت لديك لعب وصور . . . وانا لا استولى عليها ، ليس كذلك ؟ ربما كنت اريد ان استولى عليها . . . ولكنها ليست لى ، بل لك !

فقال سيريوجا وقد رفع حاجبيه :

— خذها اذا كنت تريد ! لا تخجل يا بابا من فضلك ، خذها ! هذا الكلب الاصفر على مكتبك هو كلبى ، ولكنى لا اقول شيئاً . . فليبق على مكتبك ! فقال بيكوفسكى :

— انت لا تفهمنى . هذا الكلب انت اهديتنيه ، فهو الآن ملكى ، وبوسعى ان افعل به ما اريد . ولكنى لم اعطك التبغ ! التبغ ملكى انا ! (وفكر وكيل النيابة : «ليس هذا ما ينبغى ان اوضحه ! ليس هذا ابدا !») ولو اردت انا ان ادخن تبغا ليس لى ، فعليّ قبل كل شيء ان استأذن . . .

اخذ بيكوفسكى يشرح لابنه ما معنى الملكية ، وهو يشبك العبارة بالعبارة فى كسل ويتصنع لهجة الاطفال . وكان سيريوجا يصغى اليه باهتمام وهو يحدق فى صدره (كان يحب التحدث مع ابيه فى اوقات المساء) ، ثم اتكأ على طرف المكتب وزر عينيه القصيرتى النظر محدقاً فى الاوراق والمحبرة . وطافت نظراته على المكتب ثم توقفت على زجاجة صمغ عربى .

وسأل فجأة وهو يقرب الزجاجة من عينيه :

— بابا ، مم يصنع الصمغ ؟

فأخذ بيكوفسكى الزجاجة منه ووضعها فى مكانها ،
وأكمل :

— وثانيا انت تدخن . . . وهذا شىء سيئ جدا !
فاذا كنت انا ادخن فهذا لا يعنى ابدا ان التدخين مسموح
به . انا ادخن واعرف ان ذلك ليس من الحكمة ، واوبخ
نفسى ولا احبها بسبب ذلك . . . (وفكر بيكوفسكى : «يا
لى من مرب مكار !») . — التبغ ضار جدا بالصحة ،
ومن يدخن يموت مبكرا . والتدخين ضار بصفة خاصة
بالصغار امثالك . فصدرك ضعيف ، وانت لم تصبح قويا
بعد ، والتدخين يصيب الضعفاء بالسل وغيره من الامراض .
عمك اجناتى مثلا مات بالسل . لو لم يكن يدخن فربما
عاش حتى اليوم .

تطلع سيريوجا مفكرا الى المصباح ، وتحسس الاباجورة
باصبعه وتنهد .

وقال :

— كان عمى اجناتى يعزف جيدا على الكمان !
كمانه الآن عند آل جريجورىف !

واتكأ سيريوجا ثانية على طرف المكتب واستغرق فى
التفكير . وعلى وجهه الشاحب استقر تعبير وكأنما كان يصغى
او يتابع سير افكاره الخاصة . وبدا فى عينيه الواسعتين اللتين
لا تطرفان حزن او شىء اشبه بالذعر . ربما كان يفكر الآن
فى الموت الذى اختطف منذ زمن قريب امه وعمه اجناتى .
فالموت يحمل الى العالم الآخر الامهات والاعمام ، بينما
يبقى اولادهم وكماناتهم على الارض . ويعيش الموتى فى
السماء ، فى مكان ما قرب النجوم ، وينظرون من هناك

الى الارض . ترى هل يتحملون الم الفراق ؟
وفكر يفجيني بتروفتش : «ماذا اقول له ؟ انه لا
يصغي اليّ . يبدو انه لا يعير اهمية لا لذنوبه ولا لحججى .
كيف اقنعه ؟»

ونفض وكيل النيابة واخذ يذرع غرفة المكتب . وراح
يفكر :

«فى الماضى ، على ايامى ، كانت هذه المسائل
تحل بمنتهى البساطة : كانوا يجلدون الصبى المتلبس بالتدخين .
وكان الجبناء وضعفاء القلوب يقلعون فعلا عن التدخين .
اما الاكثر شجاعة وذكاء فكانوا ، بعد العلكة ، يخبثون
التبغ فى رقبة الحذاء العالى ويدخنون فى الحظيرة . وعندما
يضبطون الصبى فى الحظيرة ويجلدونه ثانية ، كان يذهب
الى شاطئ النهر ليدخن . . . وهكذا دواليك حتى يكبر .
كانت امى تغدق عليّ النقود والحلوى حتى لا ادخن . اما
الآن فتعتبر هذه الوسائل تافهة ولا اخلاقية . فالمربى
الحديث ، وقد تسلح بالمنطق ، يحاول ان يجعل الطفل
يتقبل المبادئ الخيرة لا بدافع الخوف او الرغبة فى التميز
او طمعا فى مكافأة ، بل عن وعى» .

وبينما كان يتمشى ويفكر ، اعتلى سيريوجا الكرسي
الموضوع بجوار المكتب وبدأ يرسم . وحتى لا يلوث الاوراق
الرسمية ويعبث بالمحبرة وضعت على المكتب رزمة من الورق
المقصوص خصيصا له وقلم ازرق .

وقال وهو يرسم بيتا ويلعب حاجبيه :

— جرحت الطباخة اليوم اصبعها عندما كانت تخرط
الكرب . وصرخت عاليا لدرجة اننا خفنا جميعا وركضنا

الى المطبخ . اما غبية ! نصحتها نتاليا سيميونوفنا بأن
تبلل اصبعها بالماء البارد ، لكنها اخذت تمصه . . . كيف
يمكن ان تضع فى فمها هذا الاصبع القذر ؟ اليس هذا
عييا يا بابا ؟

ثم روى بعد ذلك انه اثناء الغداء اتى الى الفناء
عازف جوال ومعه فتاة كانت تغنى وترقص على انغام الموسيقى .
وفكر وكيل النيابة : «ان لديه تيار افكاره الخاصة !
لديه فى رأسه عالمه الصغير الخاص ، وبطريقته الخاصة
يعرف ما هو المهم وغير المهم . ولا يكفى للاستحواذ على
انتباهه وادراكه ان تتصنع لهجته ، وانما ينبغى كذلك ان
تعرف كيف تفكر بطريقته . كان من الممكن ان يفهمنى
تماما لو اننى بالفعل كنت آسفا على التبغ ، لو اننى غضبت
وبكيت . . . ولهذا فالامهات لا غنى عنهن فى التربية لانهن
قادات على الاحساس بما يحس به الاطفال ، وعلى البكاء
والضحك معهم . . . ولن تصل الى شىء بالمنطق والوعظ .
حسنا ، فماذا اقول له ؟ ماذا ؟»

وبدا ليفجينى بتروفتش غريبا ومضحكا انه ، وهو
القانونى المحنك ، والذى قضى نصف عمره فى التمرس
بشتى انواع المنع والانذار والعقوبة ، اصبح مرتبكا تماما
ولا يعرف ماذا يقول للصبي .

واخيرا قال :

— اسمع ، اعطنى كلمة شرف بأنك لن تدخن
بعد الآن .

فقال سيريوجا مغنيا ، وهو يضغط بشدة على القلم
وينحنى فوق الرسم :

— كد . . مة شر . . ف ! كد . . م . . ة شر . . ف !

رف . . رف . .

وسأل بيكوفسكى نفسه : «وهل هو يعرف ما معنى كلمة شرف ؟ كلا ، اننى مرب سىء . لو ان احدا من المربين او من زملائى القضية اطل الآن فى رأسى لاعتبرنى خرقه ، بل وربما اتهمنى بالافراط فى التحذلق . . . ولكن المشكلة ان كل هذه القضايا الخبيثة تحل فى المدرسة او المحكمة على نحو ايسر بكثير مما فى البيت . فأنت هنا تتعامل مع مخلوقات تحبها بجنون ، والحب يفرض متطلباته ويعقد المسألة . لو لم يكن هذا الصبى ابنى ، لو كان تلميذى او احد المتهمين لما ترددت هكذا ، ولما تشتت افكارى ! . .»

جلس يفجئنى بتروفتش الى المكتب وتناول احد رسومات سيويوجا . كان الرسم يصور منزلا بسقف معوج ودخانا يتصاعد من المدخنة حتى طرف الورقة على شكل تعرجات حادة كالبرق . وبجوار المنزل وقف جندى يحمل بندقية بحربة على شكل رقم (4) ، وبنقطتين بدلا من العينين .

وقال وكيل النيابة :

— الانسان لا يمكن ان يكون اعلى من المنزل .

انظر . . السقف لديك يصل الى كتف الجندى .
وتسلق سيويوجا ركبتيه وظل يتحرك طويلا ليتخذ وضعاً مريحاً .

وقال بعد ان تأمل رسمه :

— لا يا بابا ! لو رسمت الجندى صغيرا فلن تظهر

عيناه .

فهل كان عليه ان يجادله ؟ لقد اقتنع وكيل النيابة من واقع ملاحظاته اليومية لابنه ان لدى الاطفال ، مثلما لدى الاقوام المتوحشة ، نظرتهم الفنية الخاصة ومتطلباتهم المتميزة التى تستعصى على فهم الكبار . وربما لو راقب احد الكبار سيريوجا بانتباه لبدا له صبيا شاذا . فقد كان يعتبر من الممكن والمعقول ان يرسم الناس اعلى من المنازل ، ويعبر بالقلم ، الى جانب الاشياء ، عن احساسه الخاصة . فقد كان يصور مثلا انغام الاوركسترا على شكل بقع دخانية دائرية ، ويصور الصغير على شكل خيط لولبى . . . كان الصوت فى مفهومه يرتبط ارتباطا وثيقا بالشكل واللون ، فعندما يلون الحروف كان دائما يصبغ حرف (اللام) باللون الاصفر ، وحرف (الميم) باللون الاحمر ، وحرف (الالف) باللون الاسود ، وهلم جرا .

والقى سيريوجا بالرسم وتململ فى جلسته ثانية متخذا وضعا مريحا ، ثم راح يعبث بلحية ابيه . فى البداية مسدها بعناية ، ثم فرق شعرها واخذ يمشطه ليجعله مثل السوالف .

ودمدم :

— الآن اصبحت تشبه ايفان ستيبانوفتش . اما الآن فتشبه . . . بوابنا . بابا ، لماذا يقف البوابون بجوار الابواب ؟ لكى يمنعوا اللصوص من الدخول ؟

احس وكيل النيابة بأنفاس سيريوجا على وجهه ، وكان خده يلمس شعره بين الحين والحين ، فاحس فى قلبه

بدفء ونعومة ، كأنما لم تكن يداه فحسب بل وروحه
كلها تستلقى على مخمل سترة سيريوجا . وصدق فى عيني
الصبى الواسعتين السوداوين ، فخيل اليه انه قد اطلت
عليه من الحدقتين الواسعتين امه وزوجته وكل من احبهم
فى يوم ما .

وقال فى نفسه : «فلتحاول اذن ان تجلده . . . هيا
ابتكر عقابا لو استطعت ! كلا ، اين نحن من المربين .
قبلا كان الناس بسطاء ، يفكرون اقل ، ولذلك كانوا يحسمون
القضايا بجرأة . اما نحن فنفكر اكثر من اللازم ، والمنطق
قد اغرقنا تماما . . . كلما كان الانسان اكثر تطورا وتفكيرا
وغوصا فى دقائق الامور ، اصبح اقل جرأة واكثر وسوسة ،
واشد وجلا فى التصدى للمسألة . وبالفعل ، لو امعنا التفكير ،
فأية شجاعة وثقة فى النفس ينبغى ان تكون لدى المرء
لكى يقدم على تعليم الآخرين ، والحكم عليهم ، وتأليف
الكتب السميكة . . . » .

ودقت الساعة العاشرة .

فقال وكيل النيابة :

— حسنا يا بنى ، حان وقت النوم . ودّعنى وانصرف .

فعبس سيريوجا وقال :

— لا يا بابا . سأبقى قليلا . احك لى شيئا .

احك لى حكاية !

— طيب ، لكن بعد الحكاية تذهب الى الفراش

فورا .

كان من عادة يفجيني بتروفتش فى الامسيات الخالية
ان يحكى الحكايات لسيريوجا . ومثل معظم الاشخاص

العمليين لم يكن يحفظ قصيدة شعر واحدة ، ولا يذكر
حكاية واحدة ، ولهذا كان يلجأ الى الارتجال فى كل مرة .
وفى العادة كان يبدأ بالعبارة التقليدية : «كان يا ما كان ،
فى سالف العصر والاوان» ، ثم يحشد كماً من الهراء البريء
ولا يعرف ابدا عندما يبدأ كيف سيكون وسط الحكاية ونهايتها .
كان يعتمد على الحظ والبديهة فى رسم الصور والاشخاص
والظروف . اما الموضوع والموعظة فينبثقان تلقائيا ، دون
علاقة بارادة الراوى . وكان سيريوجا يهوى كثيرا هذه القصص
المرتجلة ، ولاحظ وكيل النيابة انه كلما جاء الموضوع بسيطا
دون تعقيد ، كان تأثيره على الصبى اقوى .

وبدأ يحكى وقد رفع نظره الى السقف :

— اسمع . . . كان يا ما كان ، فى سالف العصر
والاوان ، كان هناك ملك عجوز عجوز ، بلحية شيباء طويلة
و . . . وبشوارب هائلة . وكان يعيش فى قصر زجاجى يلمع
ويتلألأ فى الشمس مثل قطعة كبيرة من الجليد النقى .
اما القصر يا اخى فكان وسط حديقة ضخمة ، حيث كانت
تنمو ماذا ؟ . . . اشجار البرتقال . . . والكمثرى . . . والكرز . . .
وتزهر ازهار الاقحوان ، والورود ، والسوسن ، وتنشد الطيور
الزاهية الالوان . . . نعم . . . وكانت تتدلى من الاشجار اجراس
زجاجية صغيرة ، وعندما تهب الريح ، ترن بصوت رقيق ،
يخلب الالباب . فالزجاج يصدر صوتا ارق وانعم من
المعدن . . . حسنا ، وماذا كان هناك ايضا ؟ كانت النافورات
تتدفق فى الحديقة . . . اذكر النافورة التى رأيتها فى دار
خالتك سونيا الريفية ؟ مثلها بالضبط كانت النوافير فى حديقة
الملك ، ولكنها اكبر بكثير ، وكانت تيارات الماء المتدفقة

منها تصل الى قمة اعلى شجرة حور . . .

وفكر يفجيني بتروفتش قليلا ثم استطرد :

— وكان لدى الملك العجوز ابن وحيد ، هو وريث

العرش والمملكة . كان صبيا صغيرا هكذا مثلك . وكان

ولدا طيبا . لم يكن يتدلل ابدا ، وكان ينام مبكرا ،

ولا يلمس شيئا على المكتب . . . وعموما كان ولدا شاطرا .

لم يكن يعيبه الا شيء واحد : لقد كان يدخن . . .

اصغى سيريوجا بتركيز وهو يحدق في عيني ابيه بعينين

لا تطرفان . ومضى وكيل النيابة يحكى وهو يفكر : «وماذا

بعد ؟» وبعد ان لت وعجن كثيرا ، كما يقال ، انتهى

الحكاية هكذا :

— ومن التدخين مرض ولى العهد بالسل ومات وهو

في العشرين من عمره . واصبح الملك العجوز ، المريض

المهدم ، بلا معين . ولم يعد هناك من يرعى شئون المملكة

ويحمى القصر . فجاء الاعداء وقتلوا الملك العجوز ، وهدموا

القصر ، ولم يعد فيه الآن كرز او طيور او اجراس . . .

هكذا يا اخي . . .

بدت هذه النهاية ليفجيني بتروفتش نفسه مضحكة

وساذجة ، الا ان الحكاية بمجملها تركت في نفس سيريوجا

اثرا قويا . وعاد الحزن وشيء اشبه بالرعب يلف عينيه .

وظل حوالى دقيقة يحدق في النافذة المظلمة وهو مستغرق

في التفكير ، ثم انتفض وقال بصوت متهدج :

— لن ادخن مرة ثانية . . .

وبعد ان ودع اباه وانصرف لينام ، اخذ الاب يذرع

الغرفة بهدوء من ركن لركن وهو يتسم .

وفكر في نفسه : «قد يقال ان ما أثر عليه هو الجمال
والشكل الفني . فليكن ، ولكن هذا ليس بشيء مطمئن .
انه مع ذلك ليس وسيلة حقيقية . . . لماذا ينبغي تقديم
الموعظة والحقيقة ليس بصورتها المجردة ، النية ، بل
بالخلطات ، وبقشرة سكرية مذهب كحبات الدواء ؟ ليس
هذا طبيعيا . . . انه خداع ، تزوير . . . تحايل . . .»
وتذكر القضاة المحلفين ، الذين لا بد ان تسمعهم
«خطبة عصماء» ، وعامة الناس الذين لا يستوعبون التاريخ
الا من خلال الملاحم والسير والروايات التاريخية ، وتذكر
نفسه ، هو الذي استقى خبرة الحياة لا من المواعظ والقوانين ،
بل من الحكايات والروايات والاشعار . . .
«ينبغي ان يكون الدواء حلوا ، والحقيقة جميلة . . .
وهذه النزوة قد اباحها الانسان لنفسه منذ عهد آدم . . .
وعموما . . . ربما كان كل ذلك طبيعيا وهكذا ينبغي للامور
ان تكون . . . وهل تخلو الطبيعة من الخداع المفيد
والاوهام . . .» .

وشرع يعمل ، بينما ظلت الافكار المتزلية الكسولة
تهوم في رأسه طويلا . ولم تعد انغام العزف تسمع ولكن
ساكن الطابق الثانى ظل يخطو من ركن لركن . . .

فولوديا

فى يوم أحد صيفى ، وفى حوالى الساعة الخامسة مساء كان فولوديا ، الفتى ذو السبعة عشر عاما ، القبيح الوجه ، العليل والخجول ، جالسا فى عريشة بحديقة دار آل شوميخين الريفية ، مستسلما للضجر . وجرت أفكاره المقبضة فى ثلاثة اتجاهات . فأولا : كان عليه غدا ، الاثنين ، ان يؤدى امتحان الرياضيات . وكان يعرف أنه اذا لم يوفق غدا فى حل المسألة التحريرية ، فسوف يفصلونه لانه قضى سنتين فى الصف السادس ، وكانت درجة أعمال السنة فى الجبر لديه $23/4$ * . وثانيا : كان وجوده عند آل شوميخين ، هؤلاء الاغنياء مدعي الارستقراطية يثير فى نفسه شعورا مستمرا بالمهانة . كان يخيل اليه ان مدام شوميخينا وبنات اخواتها ينظرن اليه والى maman نظرتهم الى الأقارب الفقراء والطفيليين ، وأنهن لا يحترمن maman

* وفق نظام التعليم الروسى كانت النهاية العظمى للدرجات هى خمس درجات ، والحاصل على أقل من ٣ درجات يعتبر راسبا .
المعرب .

ويسخرن منها . وذات مرة سمع صدفة مدام شوميخينا وهي تتحدث في الشرفة مع ابنة خالتها أنا فيودوروفنا وتقول ان maman ما زالت تتصابى وتتزوق ، وأنها لا تسدد ابدا خسائرها في اللعب ولديها ولع بأحذية الغير وتبغهم . وكان فولوديا يتوسل كل يوم الى maman ألا تذهب الى آل شوميخين ، ويوضح لها الدور المهيمن الذى تلعبه عند هؤلاء السادة ، وكان يحثها ويتناول عليها ، ولكن هذه المرأة المدللة الطائشة ، التى بددت فى حياتها ثروتين ، ثروتها وثروة زوجها ، والميالة دوما الى المجتمع الراقى ، لم تكن تفهمه ، فكان على فولوديا أن يصحبها مرتين فى الأسبوع الى الدار الريفية المقيمة .

وثالثا : لم يكن فى وسعه أن يتخلص لحظة واحدة من شعور غريب غير مريح ، كان جديدا عليه تماما . . . فقد خيل اليه أنه قد وقع فى حب أنا فيودوروفنا ، ابنة خالة مدام شوميخينا وضيفتها . كانت سيدة نشطة ، عالية الصوت ومازحة ، فى حوالى الثلاثين ، عفية ، قوية ، وردية البشرة ، ذات كتفين مستديرتين ، وذقن مستدير سمين ، وابتسامة دائمة على شفثيها الدقيقتين . لم تكن جميلة او صبية ، وكان فولوديا يدرك ذلك جيدا ، ولكنه لسبب ما لم يستطع أن يمنع نفسه من التفكير فيها والنظر اليها ، عندما كانت ، وهى تلعب الكروكيت ، تهز كتفيها المستديرتين وتحرك ظهرها الأملس ، او عندما كانت تنهالك فى المقعد بعد ضحك طويل وركض على السلم ، وتغمض عينيها وهى تلهث مدعية انها تشعر فى صدرها بالضيق والاختناق . وكانت متزوجة . وكان زوجها ، وهو معمارى رصين ، يحضر

مرة فى الاسبوع الى الدار الريفية ، فيشبع نوما ، ثم يعود
أدراجه الى المدينة . وقد بدأ هذا الشعور الغريب يراود فولوديا
عندما وجد نفسه ، بلا سبب ، يمقت هذا المعمارى ،
وفى كل مرة يرحل فيها هذا الرجل الى المدينة يحس بالفرح .
وها هو الآن ، وهو جالس فى العريشة يفكر فى
امتحان الغد وفى maman التى يسخرون منها ، يشعر برغبة
قوية فى رؤية نيوتا (هكذا كان آل شوميخين يدعون أنا
فيودوروفنا) ، وفى سماع ضحكها وحفيف فستانها . . . ولم
تكن هذه الرغبة تشبه ذلك الحب النقى ، الشاعرى ،
الذى كان يعرفه من الروايات ويحلم به كل مساء عندما
يأوى الى الفراش ؛ بل كانت رغبة غريبة ، غير مفهومة ،
يخجل منها ويخشأها ، كأنها شىء قبيح للغاية وملوث ،
من الصعب أن يعترف به حتى لنفسه . . .
وقال لنفسه :

— ليس هذا حبا . لا أحد يقع فى حب سيدات
فى الثلاثين ومتزوجات . . . هذه مجرد قصة غرامية صغيرة . . .
نعم قصة غرامية . . .

وبينما مضى يفكر فى هذه القصة الغرامية تذكر خجله
الذى لا يقهر ، وخلو وجهه من الشارب ، وامتلاءه بالنمش ،
وعينه الضيقتين ، ووضع نفسه فى الخيال بجوار نيوتا ، فبدأ
له اجتماع هذا الزوج مستحيلا . عندئذ سارع الى تخيل
نفسه جميلا ، جريئا ، حاضر البديهة ، متأنقا حسب
آخر موضة . . .

وفى قمة أحلامه ، وهو جالس فى زاوية العريشة المظلمة
متكورا يحدق فى الارض ، تردد وقع خطوات خفيفة .

كان أحدهم يسير في الممر على مهل . وسرعان ما خفت
الخطوات ولاح شيء أبيض عند مدخل العريشة .
وسأل صوت نسائي :
— هل يوجد هنا أحد ؟

وعرف فولوديا هذا الصوت فرفع رأسه مذعورا .
— من هنا ؟ — سألت نيوتا وهي تدخل العريشة . —
آه ، أهو أنت يا فولوديا ؟ ماذا تفعل هنا ؟ تفكر ؟ كيف
يمكن ان تفكر ، تفكر ، تفكر طول الوقت . . . بهذه
الطريقة ستصاب بالجنون !

نهض فولوديا ونظر الى نيوتا مرتبكا . كانت عائدة
لتوها من السباحة . وتدلّت على كتفها ملاءة وفوطة ، وبرزت
من تحت منديل رأسها الحريري الابيض خصلات شعرها
المبتلة الملتصقة بجبينها . وفاحت منها رائحة رطبة منعشة ،
رائحة النهر وصابون زيت اللوز . وكانت تلهث من السير
السريع . وكان زر بلوزتها العلوى مفكوكا فرأى فولوديا عنقها
وصدرها .

وسألت نيوتا وهي تشمل فولوديا بنظرتها :
— ما لك ساكت ؟ ليس من الأدب أن تصمت
عندما تكلمك سيدة . يا لك من عجل يا فولوديا ! دائما
تجلس صامتا وتفكر ، كأنك أحد الفلاسفة . ليس فيك
حيوية او نار أبدا ! حقا انت كريح . . . في مثل سنك
ينبغي ان تعيش ، وتقفز ، وتثرثر ، وتغازل النساء ، وتعشق .
حذق فولوديا في الملاءة التي تثبتها ذراع بيضاء ممتلئة ،
وراح يفكر . . .

وقالت نيوتا باستغراب :

— انه ساكت ! هذا غريب فعلا . . . اسمع ،
كن رجلا ! حسنا ، ابتسم على الاقل ! أف ، يا لك
من فيلسوف كريبه ! — وضحكت . — أتدرى يا فولوديا لماذا
أنت عجل هكذا ؟ لأنك لا تغازل النساء . فلماذا لا
تغازلهن ؟ صحيح ليس هنا آنسات ، ولكن لا شيء يمنعك
من مغازلة السيدات ! لماذا لا تغازلنى مثلا ؟
أصغى فولوديا وأخذ يحك صدغيه بتفكير صعب متوتر .
واستطردت نيوتا تقول وهى تنزع يده عن صدغه :
— المتكبرون وحدهم هم الذين يصمتون ويحبون
العزلة . أنت متكبر يا فولوديا ! لماذا تنظر الى شزرا ؟
من فضلك انظر مباشرة فى وجهى ! هيا ، هيا يا عجل !
وقرر فولوديا أن يتكلم . ورغبة منه فى أن يبتسم أرعش
شفته السفلى وطرف بعينه ، ومد يده ثانية الى صدغه .
ودمدم :

— أنا . . . أنا أحبك !
رفعت نيوتا حاجبيها بدهشة وضحكت .
وغنت مثل مغنيات الاوبرا عندما يسمعن شيئا فظيعا :
— ما الذى أسمع ؟ كيف ؟ ماذا قلت ؟ أعد . . .

أعد . . .
فأعاد فولوديا :
— أنا . . . أنا أحبك !
وتقدم نصف خطوة نحو نيوتا مسلوب الارادة وهو لا
يفهم ولا يدرك شيئا ، وأمسك بذراعها فوق المرفق . وغامت
عيناه ودمعتا ، وتركز العالم كله فى فوطة كبيرة فاحت منها
رائحة النهر .

وسمع ضحكاً مرحاً وصوتا يقول :
— برافو ، برافو ! لماذا سكت ؟ أنا أريدك ان
تتكلم ! هيا !

وعندما رأى فولوديا أن نيوتا لا تمنعه من الإمساك
بذراعيها تطلع الى وجهها الضاحك ، ثم احاط خصرها
بذراعيه بطريقة فجأة غير مريحة ، والتقى ساعدها خلف
ظهرها . كان ممسكا بها من خصرها بكلتا يديه ، بينما
رفعت هي ذراعيها الى قفاها فلاحت غمازتان في مرفقيها ،
واخذت تسوى شعرها تحت المنديل وتقول بصوت هادئ :
— ينبغي يا فولوديا أن تكون ماهرا ، مهذبا ، رقيقا ،
ولن تستطيع ان تكون كذلك الا تحت تأثير الصحبة
النسائية . أوه ، ولكن ما هذا الوجه المقبض . . الشرير .
ينبغي أن تتكلم ، وتضحك . . . نعم يا فولوديا ، لا تكن
فظا ، فأنت شاب وما زال أمامك الوقت لتشبع من الفلسفة .
هيا دعنى ، سأذهب ! قلت لك دعنى !

وخلصت خصرها بسهولة ، وخرجت من العريشة وهى
تدندن بلحن ما . وبقي فولوديا وحده . سوى شعره وابتسم ،
وذرع العريشة عدة مرات من ركن لركن ، ثم جلس على
الاريكة ، وابتسم مرة اخرى . كان يشعر بخجل لا يطاق ،
حتى انه دهش من ان الخجل البشرى يمكن ان يبلغ
هذه الدرجة من الحدة والقوة . ومن الخجل راح يبتسم
ويتمتم بكلمات غير مترابطة ويشيح بيديه .

كان خجلا من انه عومل منذ لحظات كما يعامل
الاطفال ، كان خجلا من وجهه ، والاهم من ذلك ،
لأنه تجاسر على تطويق خصر امرأة فاضلة متزوجة ، بالرغم

من انه لا عمره ، ولا مميزاته الخارجية ، ولا وضعه الاجتماعي ، لم تكن تعطيه ، كما بدا له ، اى حق فى ذلك .

وهب واقفا ، وخرج من العريشة ، ومضى دون ان يتلفت الى داخل الحديقة بعيدا عن الدار .
وفكر وهو يمسك برأسه : «أوه ، لو نرحل بسرعة من هنا ! يا الهى ، بسرعة !»

كان القطار الذى ينبغى ان يستقله فولوديا مع maman يتحرك فى الساعة الثامنة والدقيقة الاربعين . وبقي الى موعد القطار حوالى ثلاث ساعات ، ولكن فولوديا كان يود بكل سرور لو رحل الى المحطة الآن ، دون انتظار maman .
وقبيل الساعة الثامنة توجه الى الدار . واكتسبت هيئته كلها طابع الحزم : فليكن ما يكون ! وقرر ان يدخل الدار بجرأة ، وينظر فى العيون مباشرة . ويتكلم بصوت عال مهما كان الامر .

عبر الشرفة ، والصالة الكبيرة ، وحجرة الجلوس ، وهناك توقف قليلا ليسترده أنفاسه . ومن هنا سمع اصوات السيدات وهن يتناولن الشاي فى غرفة الطعام المجاورة . كانت مدام شوميخينا و maman ونيوتا يتحدثن عن شىء ما ويضحكن .

وأصاخ فولوديا السمع .
كانت نيوتا تقول :

— صدقنى ! . . أنا لم أصدق عينى ! عندما

أخذ يبوح لى بحبه ، بل وتصورن ، أحاط بخصرى ، لم أعرف فيه فولوديا القديم . وبالمناسبة ، انه مهذب !

عندما قال انه يحبني كان في عينيه شيء وحشي ، كما
في عيون الشرکس .

وتأوهت maman :

— معقول ؟ — وأغرقت في ضحك طويل . — معقول ؟

كم يذكرني بأبيه .

وهول فولوديا راجعا ، وأفلت من الدار الى الهواء

الطلق .

وقال في نفسه وهو يتمزق ويشيح بيديه ويحدق في
السماء برعب : «كيف يجروُن على الكلام عن ذلك علانية !

يتحدثن علانية ، بأعصاب باردة . . . و maman تضحك . . .

maman يا الهى ، لماذا وهبتنى هذه الأم ؟ لماذا ؟»

ومع ذلك كان عليه ان يذهب الى الدار ويدخل

مهما كان الأمر . وذرع الممر عدة مرات حتى هدا قليلا

ثم دخل الدار .

وسأله مدام شوميخينيا بصرامة :

— لماذا لا تأتى لشرب الشاي في الموعد ؟

فدمدم دون أن يرفع عينيه :

— آسف . . . أنا . . . ينبغي أن أرحل . maman ،

الساعة بلغت الثامنة !

فقالت maman ساهمة :

— اذهب أنت يا عزيزى . . . سأبقى للمبيت عند

ليلي . وداعا يا صديقى . . . دعنى أباركك . . .

ورسمت عليه علامة الصليب ، وقالت بالفرنسية لنيوتا :

— انه يشبه ليرمونتوف قليلا * . . . اليس كذلك ؟
ودعهن فولوديا كيفما اتفق ، دون أن ينظر الى وجوههن ،
وخرج من غرفة الطعام . وبعد عشر دقائق كان فى الطريق
الى المحطة ، وكان سعيدا بذلك . لم يعد يشعر بالرهبة
او الخجل ، وأحس بأنفاسه تتردد بخفة وطلاقة .
وعلى بعد نصف كيلومتر من المحطة جلس على حجر
بقرب الطريق وراح يتطلع الى الشمس التى اختفت الى
أكثر من نصفها وراء جسر الخط الحديدى . وفى المحطة
أشعلت المصابيح هنا وهناك ، وومض ضوء أخضر غائم
وحيد ، ولكن القطار لم يظهر بعد . كان فولوديا مرتاحا الى
جلوسه هكذا دون حراك وهو يصغى الى اقتراب المساء شيئا
فشيئا . وتجلى ظلام العريشة ، ووقع الخطوات ، ورائحة
النهر ، والضحك والخصر . . . تجلى كل ذلك فى مخيلته
بوضوح مذهل ، ولم يعد كل ذلك مخيفا وكبير الاهمية
كما كان من قبل . . .

وفكر فى نفسه : «هراء . . . لم تنزع يدى ، بل
وضحكت عندما أمسكت بخصرها ، اذن فقد أعجبها ذلك .
لو ضايقتها ذلك لغضبت منى . . .»
وأحس فولوديا الآن بالأسى لأنه لم يكن جريئا كما
يجب هناك فى العريشة . وأسف على انه يرحل هكذا ،

* ميخائيل ليرمونتوف (١٨١٤ — ١٨٤١) شاعر روسى كبير ،
خلف بوشكين على عرش الشعر . وله ايضا رواية نثرية مشهورة «بطل
من هذا الزمان» . المعرب .

بطريقة غبية ، واصبح واثقا من انه لو تكررت هذه الفرصة
لكان اكثر جرأة ، ولنظر الى الامور نظرة أبسط .
حسنا ، ليس من الصعب ان تتكرر الفرصة . قال
شوميخين يتنزهون طويلا بعد العشاء . ولو ذهب فولوديا
للتنزه مع نيوتا فى الحديقة المظلمة فستكون تلك هى الفرصة !
وقال فى نفسه : «سأعود ، وغدا أرحل بقطار الصباح . . .
سأقول اننى تأخرت عن القطار» .

وعاد . . . كانت مدام شوميخينا و maman ونيوتا واحدى
بنات الاخوات جالسات فى الشرفة يلعبن الورق . وعندما
كذب فولوديا مدعيا انه تأخر عن القطار ، أبدين قلقهن
خشية أن يتأخر غدا عن موعد الامتحان ، ونصحنه أن
يستيقظ غدا فى وقت مبكر . وطوال فترة لعبهن جلس غير
بعيد ، وهو يتطلع الى نيوتا بنهم وينتظر . . . واكتملت فى
رأسه الخطة : سيقرب من نيوتا فى الظلام ، ويمسك
بيدها ، ثم يعانقها . ولا حاجة لأن يقول شيئا ، لأن
كل شيء سيكون مفهوما لكليهما دون كلمات .
ولكن السيدات لم يذهبن للتنزه فى الحديقة بعد
العشاء وواصلن اللعب . ولعبن حتى الواحدة صباحا ، ثم
تفرقن للنوم .

وقال فولوديا لنفسه بأسى وهو يأوى الى الفراش :
«ما أغبى هذا كله ! لكن لا بأس ، سأنتظر الى الغد . . .
غدا مرة أخرى فى العريشة . لا بأس . . .»
لم يحاول أن ينام ، بل جلس فى الفراش ، محيطا
ركبته بذراعيه ، وأخذ يفكر . كان التفكير فى الامتحان
كريها . وقد قرر بينه وبين نفسه انهم سيفصلونه حتما ،

وأنه ليس في هذا الفصل أى شيء مروع . . . بالعكس ،
كل شيء ممتاز جدا . فغدا سيكون طليقا كالطائر ، وسيرتدى
الملابس المدنية ، وسيدخن علنا ، وسيتردد على هذه الدار
لكى يغازل نيوتا فى أى وقت يشاء . لن يعود تلميذا ،
بل «شابا محترما» . وما عدا ذلك ، أى ما يسمى بال«كارير»
والمستقبل ، فأمره واضح : سيتطوع للخدمة ، او يعمل
فى البرق ، او حتى فى صيدلية ، حيث يترقى الى وظيفة
محضر أدوية . . . فما أكثر الوظائف . . . ومرت ساعة ،
وأخرى وهو جالس يفكر . . .

وقبيل الثالثة صباحا ، عندما بدأ ضوء الفجر يلوح ،
صرّ الباب بحذر ودخلت maman الغرفة .
وسألت وهى تتشاءب :

— أأنت نائما ؟ نم ، نم ، سأخرج حالا . . .
فقط سأخذ قطرات . . .

— ولماذا تحتاجين إليها ؟

— ليلي المسكينة عندها تشنج . نم يا بنى ، عندك
امتحان غدا . . .

واخذت من الصوان قارورة بها قطرات ما ، واقتربت
من النافذة وقرأت المكتوب عليها ثم خرجت .
وبعد دقيقة سمع فولوديا صوتا نسائيا يقول :

— يا ماريا ليونتيفنا ، هذه ليست القطرات
المطلوبة !

هذه قطرات السوسن ، ويلي تريد المورفين . هل ابنك نائم ؟
اطلبى منه أن يبحث عنها . . .
كان ذلك صوت نيوتا . وسرت البرودة فى جسد فولوديا .

واسرع يرتدى سرواله ، ثم القى بالمعطف على كتفيه واتجه الى الباب .

وكانت نيوتا توضح لأمه همسا :

— مفهوم ؟ المورفين ! مكتوب عليها باللاتيني .

أيقظي فولوديا وسوف يعثر عليه . . .

فتحت maman الباب فرأى فولوديا نيوتا . كانت

في تلك البلوزة التي ذهبت فيها للحمام . ولم يكن شعرها

مصففا بل تناثر على كتفها ، وكان وجهها ناعسا ، أسمر

في العتمة . . .

وقالت :

— ها هو فولوديا مستيقظ . فولوديا ، ابحث يا

عزيزى عن المورفين فى الصوان . مصيبة ليلى هذه . . .

دائما يحدث لها شيء ما .

ودمدت maman بكلمات ما ، وتشاءبت وانصرفت .

وقالت نيوتا :

— هيا ابحث ، ما لك واقف ؟

اتجه فولوديا نحو الصوان ، وجثا على ركبتيه وراح

يفتش بين القوارير وعلب الادوية . كانت يدها ترتعشان ،

وأحس فى صدره وجوفه بشيء ، وكأنما تدفقت فى احشائه

كلها أمواج باردة . وشعر بالاختناق والدوار من رائحة الأثير

وحامض الكربوليك وشتى الأعشاب الطبية التي كان يقبلها

دون أى داع بيدين مرتعشتين فتبعثر منه بسبب ذلك .

وفكر : «يبدو ان maman ذهبت . هذا حسن . . .

حسن . . .»

وسألت نيوتا بنبرة ممطوطة :

— حالا . . . ها هو المورفين على ما أظن . . . — قال
وهو يقرأ كلمة «morph...» على احدى القوارير . — تفضلى !
كانت نيوتا واقفة بالباب ، بحيث كانت احدى ساقيها
فى الطرقة والاخرى فى غرفته . وسوت شعرها الذى كان
من الصعب تسويته لغزارته وطوله ، ونظرت الى فولوديا نظرة
شاردة . وبدت لفولوديا فى هذه البلوزة الفضفاضة ، وبوجهها
الناعس ، وبشعرها المهدل ، فى هذا الضوء الشحيح المتسرب
الى الغرفة من السماء التى أبيضت وان لم تنرها الشمس
بعد ، بدت له جذابة ، باهرة . . . كان مفتونا ، وبدنه
كله يرتعش ، وتذكر باستمتاع كيف احتضن هذا الجسد
الخلاب فى العريشة . ومد لها الدواء قائلاً :

— كم انت . . .

— ماذا ؟

ودخلت الغرفة .

وسألت وهى تبتسم :

— ماذا ؟

كان صامتا يتطلع اليها ، ثم تناول يدها كما فى
العريشة . . . أما هى فنظرت اليه وهى تبتسم وتنتظر : وماذا
بعد ؟

وهمس :

— أنا أحبك . . .

كفت عن الابتسام ، وفكرت قليلا ، ثم قالت :

— مهلا ، يبدو أن أحدا قادم . آه من هؤلاء

التلاميذ ! — قالت فى شبه همس وهى تمضى الى الباب

وتطل في الطريقة . — كلا ، لا أحد هناك . . .

وعادت . . .

ثم خيل لفولوديا أن الغرفة ، ونيوتا ، والفجر ، وهو نفسه . . كل ذلك تركز في احساس واحد بسعادة حادة غير عادية ، لا مثل لها ، تستحق من أجلها ان تدفع كل عمرك وتحمل العذاب الأبدى ، ولكن ما أن مر نصف دقيقة حتى اختفى كل ذلك فجأة . لم يعد فولوديا يرى سوى وجه بدين دميم شوهه تعبير اشمئزاز ، وفجأة أحس هو ايضا بالقرف مما حدث .

وقالت نيوتا وهي تنظر الى فولوديا بتقزز :

— ينبغي عليّ ان أذهب . يا لك من دميم ،

بائس . . . انحص . . . فرخ بط قبيح !

وكم بدا بشعا لفولوديا الآن شعرها الطويل ، وبلوزتها الفضفاضة ، وخطواتها ، وصوتها ! . .

وقال لنفسه بعد أن ذهبت : «فرخ بط قبيح . . .

حقا أنا قبيح . . . كل شيء قبيح» .

كانت الشمس في الخارج قد بزغت ، وصدحت الطيور . وتناهت من الحديقة خطوات البستاني وصرير عربته اليدوية . . . وبعد ذلك بقليل تردد خوار البقر وأنغام زمارة الراعي . وكان ضوء الشمس وتلك الاصوات تنبئ بوجود حياة طاهرة ، أنيقة ، شاعرية في مكان ما في هذه الدنيا . ولكن أين هي ؟ لم يتحدث عنها الى فولوديا أحد ، لا maman ولا كل اولئك الاشخاص المحيطين به .

وعندما أيقظه الخادم ليلحق بقطار الصباح تصنع النوم . . . وقال في نفسه : «في داهية ، فليذهب كل شيء

ونفض من فراشه فى الحادية عشرة . وفكر وهو يمشط شعره امام المرآة ويتطلع الى وجهه الدميم الشاحب من السهاد : «صحيح تماما . . . فرخ بط قبيح» .

وعندما رآته maman وجزعت من عدم ذهابه الى الامتحان قال لها فولوديا :
— غبت فى النوم يا maman . . . لكن لا تقلقى ، سأقدم شهادة طبية .

واستيقظت مدام شوميخينا ونيوتا قبيل الساعة الواحدة . وسمع فولوديا كيف فتحت مدام شوميخينا نافذتها بصخب بعد ان استيقظت ، وكيف نادى على نيوتا بصوتها الأجش فردت هذه بضحك مجلجل . ورأى الباب يفتح فيتقاطر من غرفة الجلوس الى مائدة الافطار صف طويل من بنات الاخوات والطفيليات (وفى حشد الأخريات كانت maman) ، ولمح وجه نيوتا المغسول الضاحك ، وبجواره ظهرت لحية المعمارى الذى وصل لتوه وحاجباه الاسودان .

كانت نيوتا فى تاير اوكرانى لم يكن لائقا بها ابدا بل جعل منظرها أخرق . وكان المعمارى يلقي نكات مبتذلة وسطحية أما الكستليتة التى قدمت فى الافطار فقد بدا لفولوديا أن فيها بصلا زائدا . وبدا له ايضا أن نيوتا تضحك بصوت عال عن عمد وتنظر نحوه لكى تفهمه بذلك أن ذكرى ليلة الأمس لا تسبب لها أى قلق ، وأنها لا تشعر بوجود فرخ البط القبيح على المائدة .

وقبيل الساعة الرابعة رحل فولوديا مع maman الى المحطة . وأثارت الذكريات القدرة ، والسهاد ، والفصل

المنتظر من المدرسة ، وتأنيب الضمير . . آثار كل ذلك
فى نفسه غيظا ثقيلا قاتما . وتطلع الى صفحة وجه maman
الهزيل وأنفها الصغير ومعطفها المشمع الذى اهدته لها نيوتا ،
ودمدم :

— لماذا تضعين البودرة ؟ هذا لا يليق فى مثل
سبك ! أنت تتزوقين ولا تسددين خسائرك فى اللعب ،
وتدخين سجائر الآخرين . . هذا كريبه ! أنا لا احبك . .
لا احبك !

كان يهينها ، بينما راحت تدير عينيها بخوف ، وتشيح
بيديها وتهمس بذعر :

— ما هذا يا صديقى ؟ يا الهى ، سيسمك الحوذى !
اسكت والا سمك الحوذى ! انه يسمك !

ولكن فولوديا مضى يقول وهو يختق :
— لا احبك . . لا احبك ! أنت منحلّة ، بلا
قلب . . اياك ان تلبسى هذا المعطف ! أتسمعين ؟ والا
سأمزقه اربا . . .

فبكت maman مستعطفة :

— عيب يا ولدى ! سيسمك الحوذى !
— وأين ثروة أبى ؟ أين نقودك ؟ انت بددت كل
ذلك ! انا لا أخجل من فقرى ، ولكنى أخجل من ان
لى أما مثلك . . . عندما يسألنى رفاقى عنك أحمر خجلا . . .
كان عليهما ان يستقلا القطار لمسافة محطتين حتى
المدينة . ووقف فولوديا طوال الطريق فى شرفة العربة وجسده
كله يرتعش . لم يشأ أن يدخل العربة ، فقد جلست هناك
أمه التى كان يمقتها . وكان يمقت نفسه ومفتشى القطار

ودخان القاطرة ، والبرد الذى عزا اليه رعشته . . . وكلما ضاقت
نفسه ، ازداد احساسه بأنه توجد فى مكان ما فى هذا
العالم ، وعند اناس ما ، حياة نقية ، سامية ، دافئة ،
انيقة ، مليئة بالحب والرقه والمرح والانطلاق . . . أحس
بذلك فاستبدت به كآبة شديدة ، حتى ان أحد الركاب
نظر اليه نظرة فاحصة وسأله :

— ماذا ، يبدو أن اسنانك تؤلمك ؟

كانت maman وفولوديا يعيشان فى المدينة عند ماريا
بتروفنا ، وهى سيدة من النبلاء كانت تستأجر شقة كبيرة
وتؤجرها من الباطن للسكان . وكانت maman تستأجر
غرفتين ، احدهما ذات نوافذ وبها سريرها ولوحتان باطارين
مذهبين معلقتان على الجدران ، كانت غرفتها ، ومن داخلها
غرفة صغيرة مظلمة يقطنها فولوديا . وكانت هنا كنية ينام
عليها ، وفيما عدا الكنية لم يكن هناك اى اثاث . كانت
الغرفة كلها غاصة بسلال الملابس وعلب القبعات وبمختلف
انواع المتاع القديم الذى كانت maman تحتفظ به لسبب
ما . وكان فولوديا يحضر دروسه فى غرفة أمه او فى «الغرفة
المشتركة» . . . هكذا كانوا يسمون الغرفة الكبيرة التى كان
كل السكان يجتمعون فيها اثناء الغداء او فى اوقات المساء .
وعندما عاد فولوديا الى البيت استلقى على الكنية وتغطى
بالبطانية ليكبح ارتجاف بدنه . وذكرته علب القبعات والسلال
والمتاع القديم بانه ليس لديه غرفته الخاصة ، ملجأه الذى
يمكن ان ينتحى فيه بعيدا عن maman وضيوفها وعن
الاصوات التى كانت تتناهى الآن من «الغرفة المشتركة» .
وذكرته الحقيبة المدرسية والكتب المتناثرة فى الاركان بالامتحان

الذى تغيب عنه والسبب ما ودون مناسبة تذكر (منتون)
حيث كان يعيش وهو فى السابعة من عمره مع المرحوم
والده . وتذكر (بياريتس) * ، والفتاتين الانجليزيتين اللتين
كان يركض معهما على رمال الشاطئ واراد ان يسترجع
فى ذاكرته لون السماء والمحيط ، وارتفاع الامواج ، ومزاجه
آنذاك لكنه لم يتمكن من ذلك . ومضت الفتاتان الانجليزيتان
فى مخيلته بصورة حية مجسدة ، اما الاشياء الاخرى فاختلطت
وتبخرت فى اضطراب

«كلا ، الجو هنا بارد» ، — فكر فولوديا ، ثم نهض
فارتدى المعطف واتجه الى «الغرفة المشتركة» .
كانوا هناك يشربون الشاي . وجلس الى السماور ثلاثة
اشخاص : maman ، ومدرسة الموسيقى ، وهى عجوز
ترتدى عوينات باطار من عظم السلحفاة ، وأفجوستين
ميخايليتش ، كهل فرنسى بدين للغاية ، يعمل فى مصنع
عطور .

وقالت maman :

— انا لم أتغد اليوم . ينبغى ارسال الخادم لشراء
خبز .

فصاح الفرنسى :

— يا دونياشا !

واتضح أن ربة البيت أرسلت الخادم فى أمر ما .

فقال الفرنسى وهو يبتسم ابتسامة عريضة :

* منتون وبياريتس مدينتان ساحليتان فى فرنسا . المغرب .

— أوه ، هذه بسيطة جدا . انا ساذهب واشترى
لك الخبز . أوه ، هذه بسيطة !
وضع سيجاره ذا الرائحة القوية الكريهة فى مكان ظاهر ،
وارتدى قبعته وخرج . وما أن خرج حتى اخذت maman
تروى لمدرسة الموسيقى كيف كانت فى ضيافة آل شوميخين
وكيف استقبلوها هناك بحفاوة .
وقالت :

— ان ليلي شوميخينا قريبتى . . . المرحوم زوجها ،
الجنرال شوميخين كان ابن عم زوجى . أما هى فكانت
قبل الزواج البارونة كولب .
فقال فولوديا بعصبية :

— Maman ، هذا ليس صحيحا ! لماذا تكذبين ؟
كان يعرف جيدا أن maman تقول الحقيقة ، ولم
يكن فى حديثها عن الجنرال شوميخين والبارونة كولب كلمة
كذب واحدة ، ولكنه مع ذلك أحس أنها تكذب . بدا
الكذب فى طريقة كلامها وفى تعابير وجهها ، وفى نظرتها ،
فى كل شىء .

وكرر فولوديا ، ودق الطاولة بقبضته بشدة حتى أن
الاعاى اهتزت ، وانسكب الشاى من فنجان maman :
— انت تكذبين ! لأى داع تتحدثين عن الجنرالات
والبارونات ؟ كل هذا كذب !

ارتبكت مدرسة الموسيقى وسعلت فى منديلها متظاهرة
انها شرقت ، بينما بكت maman .

وفكر فولوديا : «الى أين أذهب ؟»
كان فى الخارج منذ قريب ، أما الاصدقاء فيخجل

من الذهاب اليهم . ومن جديد تذكر بلا مناسبة الفتاتين
الانجليزيتين . . . وذرع «الغرفة المشتركة» من ركن لركن ثم
دلف الى غرفة أفجوستين ميخايليتش . وهنا فاحت بشدة
روائح الزيوت العطرية وصابون الجليسرين . وعلى الطاولة وعلى
رفوف النوافذ ، بل وحتى على الكراسي اصطفت كمية لا
حصر لها من القوارير والاكواب والكؤوس بسوائل مختلفة
الالوان . وتناول فولوديا جريدة من على الطاولة ونشرها وقرأ
الاسم : Figaro * . . . وفاحت من الجريدة رائحة قوية
لطيفة . ثم أخذ من على الطاولة مسدسا . . .
وفى الغرفة المجاورة كانت مدرسة الموسيقى تطيب
خاطر maman :

— كفى ، لا تلقى بالا ! انه ما زال صغيرا !
الفتيان فى سنه دائما يتجاوزون الحدود . ينبغى التسليم بذلك .
فقالت maman بصوت منغم :
— لا يا يفجينيا أندرييفنا ، لقد فسد جدا . ليس
هناك كبير يحكمه ، وأنا ضعيفة ولا استطيع ان افعل شيئا .
كلا ، اننى تعيسة !
وضع فولوديا فوهة المسدس فى فمه ، وتحسس فيه
شيئا يشبه حرك الزناد او القفل فضغط عليه باصبعه . . .
ثم تحسس بروزا آخر ، وضغط مرة أخرى . ثم اخرج
المسدس من فمه ، ومسحه بذييل معطفه ، وتفحص القفل .
لم يسبق له ابدا أن أمسك بسلاح فى يديه . . .

وقال لنفسه مخمنا :

— يبدو ان هذا ينبغي رفعه . . . نعم ، يبدو هكذا . . .
ودخل أفجوستين ميخايليتش «الغرفة المشتركة» مقهقهها ،
وراح يتحدث عن شيء ما . ووضع فولوديا المسدس في
فمه مرة اخرى وضغط عليه بأسنانه ، وداس باصبعه على
شيء ما . ودوت طلقة . . . اصطدم شيء ما بقفا فولوديا
بقوة رهيبة ، فوقع على الطاولة وغاص بوجهه في الكؤوس
والقوارير مباشرة . ثم رأى المرحوم أباه في قبعة اسطوانية
بشريط أسود عريض ، لابسا ثياب الحداد على سيدة ما
في (منتون) ، رآه يحتضنه فجأة بكلتا ذراعيه ، ثم يسقطان
معا في هاوية سحيقة مظلمة للغاية .
ثم اختلط كل شيء واختفى . . .

المهارب

كانت تلك عملية طويلة . ففي البداية سار باشكا مع أمه تحت المطر ، تارة عبر حقل محصود ، وتارة في الغابة ، حيث كانت الاوراق الصفراء تلتصق بحذائه ، سار حتى لاح الفجر . ثم وقف زهاء ساعتين في المدخل المظلم ينتظر فتح الباب . لم يكن المدخل رطبا وباردا كما في الخارج ، بيد ان رذاذ المطر كان يتطاير الى هنا عند هبوب الريح . وعندما اكتظ المدخل شيئا فشيئا بالبشر ، دفن باشكا المحشور وجهه في معطف شخص ما كانت تنبعث منه بشدة رائحة سمك مملح ، ونعس . وها هو المزلاج يصير ، ويفتح الباب على مصراعيه ، فيدخل باشكا مع أمه الى غرفة الاستقبال . وهنا ايضا اضطروا لأن ينتظروا طويلا . كان المرضى جالسين على الأرائك بلا حراك وفي صمت . وتطلع باشكا اليهم ولزم هو الآخر الصمت ، رغم انه رأى الكثير من الاشياء الغريبة والمضحكة . لم يتمالك نفسه مرة واحدة فقط ، عندما دخل الغرفة فتى ما وهو يقفز على ساق واحدة ، فقد شعر باشكا بالرغبة في ان يقفز هو ايضا . لكز أمه أسفل كوعها وقال وهو يكتم ضحكة في كفه :

— انظري يا ماما . عصفور !

فقالت أمه :

— اسكت يا بني ، اسكت !

وظهر الحكيم النعسان فى شباك صغير وقال بصوت أجش :

— تقدموا للتسجيل !

وأسرع الجميع الى الشباك بمن فيهم الفتى النطاط المضحك . وكان الحكيم يسأل كلا منهم عن اسمه واسم أبيه ، وعمره ، ومحل اقامته ، ومتى مرض وغير ذلك . وعرف باشكا من ردود امه ان اسمه ليس باشكا ، بل بافل جالاكتيونوف ، وان عمره سبع سنوات ، وأنه أمي ، ومريض منذ عيد الفصح .

وبعد التسجيل بقليل كان عليهم ان ينهضوا ، اذ مر الدكتور عبر غرفة الاستقبال مرتديا مريلة بيضاء ومحزوما بفوطة . وحين مر بجوار الفتى النطاط هز كتفيه وقال بنبرة «تينور» منغمة :

— يا لك من أحمق ! حسنا ، ألت أحمق حقا ؟ لقد قلت لك ان تأتى يوم الاثنين وها انت تأتى يوم الجمعة . بالنسبة لى لا يهم حتى لو لم تأت ، ولكن ساقك ستضيع ايها الأحمق !

رسم الفتى على وجهه المسكنة الشديدة وكأنما كان ينوى ان يسأل حسنة ، وطرف بعينه وقال :

— اصنع معروفا يا ايفان ميكولايفتش !

فقال الدكتور مقلدا لهجته :

— دعك من ايفان ميكولايفتش ! قلت لك يوم

الاثنين وكان يجب ان تسمع الكلام . لست الا احمق . . .
وبدا استقبال المرضى . كان الدكتور جالسا في غرفته
يستدعى المرضى بالدور . ومن وقت لآخر تتردد من هناك
صرخات حادة ، وبكاء أطفال او هتاف الدكتور الغاضب :
— ما لك تصرخ ؟ هل أنا أقطع لحمك ؟ اجلس
ساكنا .

وجاء دور باشكا .

وصاح الدكتور :

— بافل جالاكتيونوف !

روعت الأم كأنما لم تكن تتوقع هذا الاستدعاء ،
ثم امسكت باشكا من يده وسحبته الى غرفة الدكتور . وكان
الدكتور جالسا الى الطاولة وهو يدق بمطرقة صغيرة آليا على
دفتر سميك .

وسأل دون ان ينظر الى الداخلين :

— مم يشكو ؟

فأجابت الأم :

— الولد عنده دمل في كوعه يا سيدى . . . — وارتسم
على وجهها تعبير وكأنما كانت حقا فى غاية الحزن بسبب
دمل باشكا .

— قلّعه !

فك باشكا المنديل من حول عنقه وهو يزفر ، ثم
مسح أنفه بكفه وراح يتزع معطفه على مهل .
فقال الدكتور بغضب :

— لم تأتى الى هنا للضيافة يا ولية ! ما لك تتلكئين ؟
لست الوحيدة عندى .

فالقى باشكا المعطف على الارض بعجله وخلع المميص
بمساعدة أمه . . . وتطلع اليه الدكتور بكسل وربت على بطنه
العارى .

— يا لها من كرش كبيرة رببتها يا أخى ، — قال
الدكتور ثم تنهد . — حسنا ، أرنى كوعك .
تطلع باشكا شزرا الى الطست المملوء بمخلفات الأربطة
الدموية ، ثم الى مريلة الدكتور وأجهش بالبكاء .
فقلده الدكتور ساخرا :

— إي . . . ي . . . ي ! آن الأوان ان تتزوج أيها
المخادع ، بينما تبكى ! اخص عليك !
نظر باشكا الى أمه محاولا ألا يبكى ، وتجلى فى
نظرته هذه رجاء : «لاتخبرى احدا فى البيت بأننى بكيت
فى المستشفى !»

وفحص الدكتور كوعه ، وضغط عليه ثم تنهد ، ومصمص
شفتيه ، ثم ضغط عليه مرة أخرى .
وقال :

— تستحقين الضرب يا ولية . لماذا لم تأتى به
من قبل ؟ خلاص ضاعت ذراعه ! انظرى يا حمقاء . .
مفصله مريض !
فتنهدت الولية :

— أنتم أدرى يا سيدى . . .
— يا سيدى . . . تهملين ذراعه حتى تتقيح ثم تقولين
يا سيدى . أى كسيب هو بدون ذراع ؟ سوف تقضين عمرك
كله فى العناية به . أظن لو ظهر فى انفك دمل لهرولت
الى المستشفى فورا ، بينما تتركين ذراع الولد تتقيح نصف

سنة . كلكن هكذا .

اشعل الدكتور لفافة تبغ . ومع دخانها المتصاعد راح يوبخ الولىة ويهز رأسه على ايقاع اغنية أخذ يدندن بها فى سره وهو يفكر فى شىء طوال الوقت . وكان باشكا يقف امامه عاريا وهو يصغى ويتطلع الى الدخان . وعندما انطفأت اللفافة انتفض الدكتور وقال بنبرة اهدأ :

— طيب ، اسمعى يا ولىة . المراهم والنقط لن تجدى شيئا . ينبغى ادخاله المستشفى .

— اذا كان ضروريا يا سيدى فلماذا لا يدخل ؟

— سنجرى له عملية جراحية . — ثم قال مخاطبا

باشكا وهو يربت على كتفه . — ابق عندنا يا باشكا .
دع أمك ترحل ، أما أنا وأنت يا أخى فسنبقى هنا .
الحياة هنا طيبة يا أخى ، آخر حلاوة ! وما أن نفرغ من
العمل يا باشكا حتى نذهب لاصطياد الحسون ، وسأريك
الثعلب ! وسنذهب معا لزيارة الجيران ! هه ؟ هل تريد ؟
وستأتى أمك غدا اليك ! هه ؟

ونظر باشكا الى أمه مستفهما ، فقالت :

— ابق يا بنى !

فصاح الدكتور بمرح :

— سيبقى ، سيبقى ! ولا حاجة للكلام ! سأريه

ثعلبا حيا ! وسنذهب معا الى السوق لنشترى الحلوى !
خذي يا ماريا دينيسوفنا الى الطابق الثانى !

بدا الطبيب ، الذى كان اغلب الظن فتى مرحا

وطيبا ، مسرورا بهذه الصحبة . وأراد باشكا أن يرضيه ،
خاصة وأنه لم يذهب الى السوق فى حياته ، ويود عن

طبيب خاطر ان يرى نعلها حيا ، ولكن كيف يبقى بلا أمه ؟
وبعد أن فكر قليلا قرر أن يرجو الطبيب ان يُبقي أمه ايضا
فى المستشفى ، ولكن قبل أن يتمكن من فتح فمه كانت
الحكيمة تقوده على الدرج الى الطابق العلوى . وسار يحدق
عن يمينه ويساره بفهم مفعور . فالدرج والأرضية وعوارض
الابواب — وكلها ضخمة مستقيمة ساطعة — كانت مطلية بطلاء
أصفر رائع ، وتفوح منها رائحة الزيت النباتى اللذيذة . وفى
كل مكان تدلت المصاييح وفرشت مماسح الاقدام ، وبرزت
من الجدران الصنابير النحاسية . ولكن باشكا اعجب أكثر
شئ بالسرير الذى أجلسوه عليه ، وبالبطانية الرمادية الخشنة .
وتحسس يده الوسائد والبطانية ، وطاف ببصره على العنبر ،
وقرر ان الدكتور يحيا حياة لا بأس بها ابدا .
كان العنبر صغيرا لا يضم سوى ثلاثة أسرة ، أحدها
خاو ، والثانى شغله باشكا ، أما السرير الثالث فكان يجلس
عليه عجوز ما ، بعينين مكثبتين ، وكان يسعل باستمرار
ويبصق فى كوز . ومن سرير باشكا كان يرى عبر الباب
جزء من عنبر آخر بسريرين : على أحدهما ينام شخص
شاحب جدا وهزيل ، وعلى رأسه كيس من المطاط وعلى
السرير الآخر جلس فلاح مباعدا ذراعيه ، معصوب الرأس ،
وكان يبدو قريب الشبه بامرأة .
وبعد أن أجلسست الحكيمة باشكا انصرفت ، ثم
عادت بعد قليل حاملة كوما من الملابس .
وقالت له :

— هذا لك . البس .
خلع باشكا ملابسه ، وباحساس لا يخلو من المتعة

راح يرندى الزى الجديد . وعندما ارندى القميص والسروال والروب الرمادى تطلع الى هياته بخيلاء ، وفكر فى أنه لا بأس لو يخطر فى القرية بهذا الزى . وتصور فى خياله كيف ترسله أمه الى مزرعة الخضروات على الشاطئ ليجمع أوراق الكرنب للخنزير الصغير . ويسير بينما يحيط به الصبيان والفتيات وينظرون بحسد الى روبه .

ودخلت العنبر ممرضة تحمل فى يديها صحفتين معدنيتين وملعقتين وقطعتى خبز . وضعت احدى الصحفتين امام العجوز والاخرى امام باشكا ، وقالت :
كل —

نظر باشكا الى الصفحة فرأى فيها حساء كرنب دسما بقطعة لحم ، ففكر ثانية فى ان الدكتور يحيا حياة لا بأس بها ابدا ، وأنه ليس عبوسا أبدا كما بدا له أول الامر . وظل باشكا طويلا يتناول الحساء وهو يلحق الملعقة بعد كل غمسة ، وعندما لم يتبق فى الصفحة سوى قطعة اللحم تطلع خلصة الى العجوز وحسده على انه ما زال يجرع الحساء . وشرع يأكل اللحم وهو يتنهد ، ويحاول أن يطيل فترة تناوله الى اقصى ما يمكن ، لكن جهوده باءت بالفشل ، فسرعان ما اختفى اللحم ايضا . لم تبق سوى قطعة خبز . وليس لذيذا أكل الخبز بدون غموس ، ولكن ما باليد حيلة ، ففكر باشكا قليلا ثم أكل الخبز . وفى تلك اللحظة دخلت الممرضة بصحفتين أخريين . كان فيهما هذه المرة لحم مقلي مع البطاطس .

وسألته الممرضة :

— واين خبزك ؟

وبدلاً من الرد نفخ باشكا اوداجه ثم زفر .
فقلت الممرضة مؤنبه :

— لماذا أكلته ؟ فبم ستأكل اللحم المقلي الآن ؟
وخرجت ثم عادت بقطعة خبز اخرى . ولم يكن
باشكا قد ذاق اللحم المقلي فى حياته ، وعندما تذوقه
الآن وجدده لذيذا جدا . واختفى اللحم بسرعة ، وتبقت
بعده قطعة خبز اكبر مما تبقى بعد الحساء . وعندما انتهى
العجوز من غدائه وضع قطعة الخبز المتبقية فى درج
الطاولة . واراد باشكا ان يفعل مثله ، ولكنه فكر قليلا ثم
أكل قطعة خبزه .

وبعد أن شبع خرج ليتجول . كان فى العنبر المجاور
بالاضافة الى الاثنين اللذين رآهما عبر الباب اربعة اشخاص
آخرون . ولم يجذب انتباهه سوى واحد منهم . كان فلاحا
طويلا ، نحيفا للغاية ، بوجه مكفهر مشعر . كان جالسا
على السرير يومئ برأسه ويلوح بيده اليمنى طوال الوقت
كالبندول . وظل باشكا لا يحول عنه بصره طويلا . وبدأت
له ايماءات الفلاح البندولية المنتظمة أول الامر هزلية ،
الغرض منها اثارة الضحك ، ولكنه عندما حذق مليا فى
وجهه أحس بالرعب ، وأدرك ان هذا الفلاح مريض مرضا
خطيرا . ودخل العنبر الثالث فرأى فلاحين بوجهين أحمرين
قاتمين كأنما لوثا بالطين . كانا جالسين على سريريهما دون
حرك ، ولاحا بوجهيهما الغريبين اللذين كان من الصعب
أن تميز فيهما الملامح ، أشبه بصنمين من آلهة الوثنيين .
وسأل باشكا الممرضة :

— لماذا هما هكذا يا عمتى ؟

وعاد باشكا الى عنبره فجلس على السرير وراح ينتظر
الدكتور ليذهب معه الى صيد الحسون او الى السوق . ولكن
الدكتور لم يأت . وظهر الحكيم للحظة فى باب العنبر المجاور .
وانحنى فوق المريض الذى كان على رأسه كيس ثلج وصاح :
— يا ميخيلو !

ولم يتحرك ميخيلو النائم . فأشاح الحكيم بيده وانصرف .
وراح باشكا ، فى انتظار الدكتور ، يتأمل جاره العجوز .
كان العجوز لا يكف عن السعال والبصق فى الكوز . وكان
سعاله طويلا متحشرجا . وأعجب باشكا بشيء مميز فى
العجوز : فعندما كان يسعل ويشهق ، يصفر شيء ما فى
صدره ويصيح بشتى النغمات .
وسأله باشكا :

— ما هذا الذى يصفر عندك يا جدى ؟
ولم يرد العجوز بشيء . وانتظر باشكا قليلا ثم سأله :
— وأين الثعلب يا جدى ؟
— أيّ ثعلب ؟
— الحي .

— وأين يمكن أن يكون ؟ فى الغابة !
مر زمن طويل ولم يأت الدكتور بعد . وحملت الممرضة
الشاي ووبخت باشكا لأنه لم يُبق على الخبز للشاي . وجاء
الحكيم مرة أخرى وأخذ يوقظ ميخيلو . ومال الجو الى
الزرقعة وراء النوافذ ، واشعلت مصابيح العنابر ، ولم يظهر
الدكتور . أصبح الوقت متأخرا للذهاب الى السوق او صيد
الحسون . فتمدد باشكا على السرير وأخذ يفكر . تذكر

الحلوى التى وعده بها الدكتور ، ووجه أمه وصوتها ، والعتمة
فى بيوتهم والفرن والجدة يجوروفنا التى لا تكف عن التذمر . . .
وفجأة شعر بالسأم والحزن . وتذكر ان أمه ستأتى غدا اليه
وتأخذه فابتسم وأغمض عينيه .
وأيقظه حفيف . كان هناك أحد يمشى فى العنبر
المجاور ويتحدث بصوت خافت . وفى ضوء اللمبات السهّارى
وقناديل الايقونات كانت ثلاثة أشباح تتحرك بجوار سرير
ميخايلو .

وقال أحدهم :

— هل نحمله بالسرير أم بدونه ؟

— بدونه . لن تمر بالسرير . ايه ، مات فى وقت

غير مناسب ، عليه الرحمة !

أمسك أحدهم ميخايلو من كتفيه والآخر من قدميه

ورفعاه : وتدلّت ذراعا ميخايلو واطراف روبه بتراخ . أما

الشخص الثالث — وكان ذلك الفلاح الذى يشبه المرأة —

فقد رسم علامة الصليب ، ثم خرج ثلاثتهم بميخايلو من

العنبر وهم يدقون باقدامهم فى اضطراب ويدوسون على اطراف

روبه .

وتردد فى صدر العجوز النائم صفير وصدح متعدد

النعلمات . وأصاخ باشكا السمع ، وتطلع الى النوافذ المظلمة

ثم قفز من السرير فى دعر .

وتأوه بصوت غليظ :

— ما . . . ا . . . ما ! . . .

ودون ان ينتظر ردا انفلت الى العنبر المجاور . وهناك

كان ضوء القناديل واللمبة السهّارى لا يكاد يشق الظلام .

وجلس المرضى على أسرتهم مضطربين لموت ميخائيلو .
وظهروا بهيئاتهم المشعة وفي اختلاطهم بالظلال أعرض وأطول
وبدا كأنهم يزدادون ضخامة . وعلى آخر سرير في الركن ،
حيث الظلمة أحلك ، جلس ذلك الفلاح يومئ برأسه ويهز
يده .

انطلق باشكا على غير هدى فاقتحم عبر المجدورين ،
ومن هناك الى الطرقة ، ومن الطرقة اندفع الى غرفة كبيرة ،
حيث كانت ترقد وتجلس في الاسرة مخلوقات رهيبة بشعر
طويل ووجوه عجائز . وبعد أن ركض باشكا عبر القسم
النسائي وجد نفسه مرة أخرى في الطرقة ، ورأى حاجز
السلم المعروف فانحدر الى أسفل . وهنا عرف غرفة الاستقبال
التي جلس فيها صباحا ، فراح يبحث عن باب الخروج .
صر المزلاج ، وهبت دفقة هواء بارد ، فانطلق باشكا
الى الفناء وهو يتعثر . لم يكن في ذهنه سوى فكرة واحدة :
أن يهرب ! ولم يكن يعرف الطريق ، لكنه كان واثقا
من أنه لو جرى فسيصل حتما الى دارهم ، الى أمه .
وكان الليل غائما ، ولكن ضوء القمر لاح خلف السحب .
وركض باشكا من المدخل الى الامام مباشرة ، ودار حول
الحظيرة فاصطدم بحرش خاو . وقف قليلا وفكر ، ثم
اندفع عائدا الى المستشفى ، ودار حولها ، وتوقف ثانية
مرتددا : فمن خلف مبنى المستشفى لاحت صلبان المقابر
البيضاء .

وصاح :

— ما . . . ا . . . ما !

وركض عائدا .

وبيينما كان يجرى مارا بمبان مظلمة جهمة رأى نافذة مضيئة .

بدت هذه البقعة الحمراء الساطعة فى الظلام مخيفة ، ولكن باشكا الذى جن رعبا ولم يعد يدرى الى أين يجرى ، اتجه نحوها . وكان بجوار النافذة مدخل ودرج وباب رئيسى بلوحة بيضاء . ارتقى باشكا الدرج ركضا ونظر فى النافذة فتولته فجأة فرحة واخلزة غامرة . لقد رأى فى النافذة الدكتور المرح الطيب جالسا الى المكتب يقرأ كتابا . ومد باشكا يديه نحو الوجه الأليف وهو يضحك من السعادة ، واراد أن يصرخ ، الا ان قوة مجهولة كتمت انفاسه وأهوت على ساقيه ، فترنح وسقط على الدرج مغشيا عليه .

عندما أفاق كان الضوء منتشرا ، وبجواره سمع الصوت المعروف جدا ، الصوت الذى وعده أمس بالسوق والحسون والثعلب ، يقول :

— يا لك من أحمق يا باشكا ! أأست أحمق حقا ؟

تستحق الضرب . . . فعلا تستحق الضرب .

محتوى الكتاب

٥	انطون بافلوفيتش تشيخوف
٢٥	فرحة
٢٩	الكبش والآنسة
٣٣	المغفلة
٣٧	وفاة موظف
٤٢	الصبي الشرير
٤٦	جهاز العروس
٥٥	ابنة ألبون
٦٣	البدن والنحيف
٦٨	دموع لا يراها العالم
٧٦	الحرباء
٨٣	القناع
٩٢	حلة النقيب
١٠٢	عند زوجة رئيس النبلاء
١٠٩	تواريخ حية
١١٤	الدبلوماسى
١٢١	المتمارضون
١٢٧	البربوط
١٣٧	الصياد
١٤٥	مع سبق الاصرار

[illegible]

انطون تشيخوف

مؤلفات مختارة في ٤ مجلدات

يسر دار «رادوغا» ان تصدر هذه المجموعة
من «المؤلفات المختارة» للكاتب الروسي العظيم
انطون تشيخوف (١٨٦٠-١٩٠٤) في اربعة
مجلدات

ويضم المجلد الاول القصص القصيرة التي
كتبها تشيخوف في الفترة من ١٨٨٠ الى ١٨٨٧ .
ويضم المجلد الثاني الروايات والقصص القصيرة
التي كتبت من ١٨٨٧ الى ١٨٩١ ، اما المجلد
الثالث فيضم الروايات والقصص القصيرة التي
كتبت في الفترة من ١٨٩٢ الى ١٩٠٣ . كما
خصص المجلد الرابع لآعمال تشيخوف الدرامية .
ويحتوي كل مجلد على صور فوتوغرافية ورسوم
لكبار الفنانين الروس والسوفييت

يتضمن المجلد الاول من «المؤلفات المختارة»
لانطون تشيخوف قصصا قصيرة كتبها الاديب
في مرحلة مبكرة من مراحل ابداعه (١٨٨٠-
١٨٨٧) وهي قصص مرحلة فكاهية
لتشيخوف الشاب مثل «الصبي الشرير»
و «زودها» و «في البيت الريفي» و «تحفة
فنية» . كذلك يتضمن المجلد اروع قصص
الكاتب الساخرة ، المعروفة على نطاق
واسع ، مثل «موت موظف» و «البدن
والنجيف» و «الحرباء» و «الصول بريشبييف» .

ولكن المركز الرئيسي في المجلد تشغله
تلك القصص التي يتجلى فيها حب الكاتب
العميق للناس الكادحين ، وتعاطفه الحار
مع أولئك الذين يهينهم «سادة
الحياة» الاقوياء المتخمين ، مثل قصص
«العازف الاجير» و «المصيبة» و «وحشة»
و «هرج» و «فانكا» .
وتستهل المجلد ذكريات الكاتب الكبير
مكسيم جوركي عن تشيخوف .



دار «رادوغا» . موسكو